حال السلف مع القرآن

الأستاذ الدكتور/ بدر بن ناصر البدر
قسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الحضارة للنشر والتوزيع

حال السلف

مع

القرآن

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر، بدر ناصر
حال السلف مع القرآن:/ بدر ناصر البدر،- الرياض١٤٣٢هـ
٥٥٢ص ؛ ٢٤ سم
ردمك: ٧- ٩٨٠- ٥١- ٩٩٦٠- ٩٧٨
١- القرآن- تاريخ أ- العنوان
ديوي ٢٢٢ ١٤٣٢/٣٦٦١

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٣٦٦١هـ
ردمك: ٧- ٩٨٠- ٥١- ٩٩٦٠- ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤
المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

حال السلف مع القرآن

الأستاذ الدكتور/ بدر بن ناصر البدر
قسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .. أما بعد:

فقد أنزل الله عز وجل القرآن الكريم على نبينا وقدوتنا محمدٍ ﷺ في أفضل الأزمان وأشرف الشهور شهر رمضان، يقول تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾[(1)]، وكان نزوله في أعظم ليلة من ليالي شهر رمضان ليلة القدر، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ ﴾[(2)]. بعث به رسوله – عليه الصلاة والسلام – للبلاغ ونشر الدين فقال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[(3)] وأن يُخرج الناس من ظلمات الكفر والشرك والوثنية إلى نور الإسلام والإيمان، قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[(4)].

وقد فضل الله عز وجل القرآن العظيم على غيره من الكتب السابقة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة القدر، الآيات: ١-٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١.

وجعله ناسخاً ومهيمناً عليها، فقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[(١)]. ومن عظيم شأنه وجلالة قدره أنه لو نزل على الجبال الصم لتصدعت، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[(٢)]. وتحدى الثقلين أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا لذلك، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[(٣)].

إن القرآن الكريم معجز في أسلوبه وهديه، غنيٌّ في معانيه ودلالاته، ثمينٌ في كنوزه وحقائقه، حي في نصوصه وتوجيهاته، قويٌّ في أهدافه وأغراضه، أقبل عليه المسلمون في مختلف مراحل التاريخ، قرأوه وتدبروه، نظروا في نصوصه وتأملوه، فسروا آياته وبينوا شرائعه، تحدثوا عن توجيهاته واستخرجوا من كنوزه وجنوا من ثماره، والعلماء والمفسرون والمتدبرون أخذوا هذا في كل قرن وسجلوه في كل عصر، وبقي القرآن بحول الله قادراً على العطاء، كنوزه ثمينة لا تنفد، ومعينه ثرٌّ كريم لا ينضب، وظلاله ممتدة وارفة لا تزول، وأنواره مُشعة مضيئة ولو طال عليها الزمان وامتدت بها السنون.

يقول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في وصف القرآن الكريم: «هو كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨،

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ (١). من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» (٢).

إن المؤمن عند ما يُحسن قراءة القرآن وتدبره يقف على زاد عظيم من معانيه ودلالته وهداياته، ونحن في عصرنا الحاضر أحوجُ ما نكون إلى القرآن العظيم، نتلوه ونتدبره، نفهمه ونفسره، نحيا به ونتعامل معه، نصلح أنفسنا ومجتمعاتنا على هديه، ونقيم مناهج حياتنا على أسسه ومبادئه وتوجيهاته (٣).

يقول الإمام الآجري – رحمه الله تعالى: «ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم، كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.

(٢) رواه الترمذي في سننه – أبواب فضائل القرآن – باب ما جاء في فضل القرآن: ٤/ ٣٤٥، رقم: ٣٠٧٠ مرفوعاً إلى النبي ﷺ وقال: «حديث غريب ... وإسناده مجهول وفي حديث الحارث – أي الأعور – مقال»..

(٣) ينظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم: ١١-١٥.

بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوة السورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»[(١)].

وروي عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال في القرآن الكريم: «لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة».

وقال الحسن البصري – رحمه الله: «الزموا كتاب الله وتتبعوا ما فيه من الأمثال، وكونوا فيه من أهل البصر، رحم الله عبداً عرض نفسه وعمله على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله الزيادة، وإن خالف كتاب الله أعتب نفسه ورجع من قريب».

إن التمسك بكتاب الله عز وجل تلاوة وتدبراً، تأملاً والتزاماً سبيل السعادة في الدارين الدنيا والآخرة وطريق الفلاح فيهما، قال ابن عباس – رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾»[(٢)].

---

(١) أخلاق حملة القرآن: ١٨-١٩.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٢٣ – ١٢٦.

وإذا نظرنا في سير الصحابة ومن بعدهم من سلف هذه الأمة نجدهم قد تلقوا هذا القرآن الكريم مدركين مدى الشرف الذي حباهم الله به؛ فأقبلوا عليه يحفظونه ويرتلونه آناء وأطراف النهار، جعلوه غذاء أرواحهم وقوت قلوبهم وقرة أعينهم، نفذوا أحكامه وأقاموا حدوده وطبقوا شرائعه، طهرت به نفوسهم وصلحت به أحوالهم، ودعوا الناس إليه ورغبوهم فيه.

وفي هذا الكتاب (حال السلف مع القرآن)، عرضٌ لهذه الصور المشرقة والأحوال المرضية من حياتهم رحم الله الجميع، لنرى نماذج تحتذى وأئمة يقتدى بهم، وفي مقدمتهم رسولنا وقدوتنا ﷺ الذي كان أعرف الناس بالله وأشهدهم خشية .

وقد سبق لي جهد متواضع في كتابي «منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم» ذكرتُ فيه أصولهم وقواعدهم والمنهج الذي ساروا عليه في العناية بالقرآن الكريم مع ذكر بعض الأمثلة من حياتهم على ذلك، وفي هذا الكتاب أكثرت من ذكر الأمثلة التطبيقية من حياتهم مع التعليق عليها ملتزماً المنهج التالي:

- عزوت الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية.
- خرجت الأحاديث باختصار في المتن دون التوسع في الحاشية.
- عزوت الآثار إلى أصحابها دون توثيق في الحاشية خشية الإطالة على القارئ، ولئلا يكبر حجم الكتاب عن صورته الحالية، ولسهولة الوصول إلى هذه الآثار عبر الوسائل الحديثة.
- وثقت كلام الأئمة من كتبهم، فإن تعذر فمن المصادر الأخرى.

- حرصت أن يكون أسلوب الكتاب أسلوباً سهلاً ميسراً يناسب عامة الناس، حيث يخاطب شرائح المجتمع، علَّ الله تعالى أن ينفع به.
- علقت على ما يحسن التعليق عليه مع الربط بالواقع والحث على التزام منهج سلفنا الصالح في العناية بالقرآن والعمل به، مع ذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.
- جعلت في بداية الكتاب مقدمات في بعض الموضوعات المهمة، وقد تكون مكررة فيما كتبته، لكنني التزمت فيها كثرة الأمثلة والعناية بالتطبيق مع الربط بواقع الناس.
- أفردت حياة سلفنا الصالح ومنهجهم في التأثر بالقرآن والعمل به، كل واحد منهم في ترجمة مستقلة، مبتدئاً بالقدوة المعلم خير من تأثر بالقرآن وعمل به ودعا إليه نبينا محمد ﷺ ثم الخلفاء الأربعة الراشدين ثم بقية الصحابة ثم الصحابيات ثم بقية السلف، ولم ألتزم منهجاً معيناً في ترتيبهم.
- لم ألتزم الكتابة عن حياة سلفنا الصالح كلهم مع القرآن الكريم، فهذا متعذر، لكن هذا ما تيسر جمعه والتعليق عليه، كما أنني في الكتابة عن أحدهم لم أذكر كل شيء في سيرته، بل كتبت ماله تعلق بالقرآن مع اجتهادي في التعليق عليه والعناية به.
- قد أجمع الحديث عن سيرة رجلين أو أكثر في آن واحد، وهذا قليل، لقوة الرابطة بينهم، إما في تعليم القرآن أو المجاورة أو التتلمذ على المشايخ أو غير ذلك.

- لم ألتزم ذكر وفيات الأعلام إلا لحاجة وضرورة مرتبطة بالموضوع.
- قد يتكرر التعليق على بعض آثارهم بأسلوب متقارب، فقد نظرت إلى تراجمهم على أنهم مستقلة، تقرأ في مجالس أو يستفاد منها على حدة.

أسأله تبارك أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإيمان بالقرآن وصفاته

إن الإيمان بالكتب التي أنزلها الله عز وجل ومنها القرآن الكريم أحد أركان الإيمان الستة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [(١)]، وفي حديث جبريل، قال: ما الإيمان؟ فقال – عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(٢)].

والقرآن الكريم هو خاتم هذه الكتب والمهيمن عليها، قال تعالى: «﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [(٣)]. قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير الآية قوله تعالى: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ قال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق وما خالفه فهو باطل، وقال ابن عباس: المهيمن الأمين والشاهد والحاكم على ما قبله من الكتب» [(٤)].

فالإيمان بالقرآن الكريم أنه من كلام الله عز وجل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، من عقيدة المسلم، فهو يعتقد أن القرآن سوره وآياته وحروفه من

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٥.

كلام الله سبحانه، نُقل إلينا بالتواتر، كما نزل على نبينا وقدوتنا محمد ﷺ وكما بلغه لأصحابه، ولهذا نجد القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة في مواضع شتى، قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[(١)]، ويقول تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾[(٢)].

لقد تحدى الله بهذا القرآن الجن والإنس، والعرب بشكل خاص أن يأتوا بمثله، والعرب آنذاك أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة فلم يستطيعوا، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ ﴾[(٣)]. ثم تحدى العرب جميعاً وخاصة قريش أن يأتوا بمثله فلم يفعلوا، قال تعالى: ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ ﴾[(٤)]، وقال عز وجل: ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ ﴾[(٥)]، وإمعاناً في التحدي طلب الله تعالى منهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، لكنهم لم يستطيعوا، قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٤ ﴾[(٦)].

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سوره، قال تعالى: ﴿ وَإِن

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٤) سورة الطور، الآية: ٣٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٤٩.

(٦) سورة هود، الآيتان: ١٣، ١٤.

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [(١)]، قال الإمام القرطبي قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ يعني: فيما مضى، وقوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ أي: لن تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهمهم وتحريكٌ لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها» [(٢)].

إن القرآن الكريم كلام الله العظيم وصراطه المستقيم، ونوره المبين وحبله المتين، إنه رسالة الله الخالدة، ومعجزته الباقية، ورحمته الواسعة ونعمته السابغة، وحجته الدامغة وحكمته البالغة، هو أساس رسالة التوحيد والمصدر القويم للتشريع والمنهل الزاخر لكثير من علوم الدنيا والآخرة، وهو شامل وافٍ لكل نواح الخير والسعادة، يفيض بالبر والإحسان والحكمة على القلوب المؤمنة والنفوس المطمئنة، هو أفضل ما تقرب المتعبدون إلى الله تعالى بتلاوته، وتدبر آياته والعمل به، فهو كنز الحسنات ومنبع الخيرات، روى أبو بكر الأنباري عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «إن هذا القرآن مأدُبة الله في الأرض، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم»، وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عنه أيضاً قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن».

قال الإمام الشاطبي: «كتاب الله تعالى هو كلية الشريعة وعمدة الملة، وينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه،

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٣٤.

ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله وما يجري في سبيله لا يحتاج إلى تقرير له واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة عِلم ضرورة، وإذا كان ذلك كذلك لزم لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله رفيقه وجليسه على مر الليالي وتتابع الأيام، فلا يقتصر على النظر فيه حتى يحمل نفسه على العمل به، فإن أخذ نفسه بذلك أوشك أن يفوز بالبغية وأن يظفر بالطلبة، وأن يجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول بمشيئة الله وتوفيقه» (١) .

إن أفضل وصف لهذا القرآن العظيم هو الوصف الذي وصفه به سبحانه المتكلم به، فقد وصفه بأوصاف تدل على رفعة شأنه وعلو مكانته، ووجوب الإيمان والتصديق به والعمل بأحكامه والوقوف عند حدوده، وقد ذكر الإمام السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن، أن الله تعالى وصف القرآن وسماه بخمسة وخمسين اسماً، ثم سردها وذكر الآيات الكريمات الدالة على ذلك (٢) .

إن العبد المؤمن يسلم لكلام الله ويصدق به؛ لإيمانه به، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (٣)، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٤)، فلا بد من التصديق الجازم بمعانيه وحقائقه ودلالاته، فما جاء في القرآن فهو الحق، وما قرره فهو الصدق، وما أشار له أو وجه إليه فهو الخير، وما أمر به فهو الهدى

---

(١) الموافقات: ٣/ ٣٤٥.

(٢) الإتقان: ١/ ١٥٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٧.

والصواب، وما نهى عنه فهو الشر والفساد، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(١)، من قال بالقرآن صدق ومن حكم به عدل، ومن التزم به استقام، ومن صدَّق به اطمأن، ومن وثق به اهتدى، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

إن إيمان المسلم بهذا كله يجعله يقف عند آياته متدبراً متأملاً، مؤمناً مصدقاً بكل ما أخبر به من ماض أو مستقبل، وإذا قرر القرآن أمراً وتضمن حكماً وشرعاً وجب التزامه والعمل به والتسليم له، وإذا تضمن نهياً أو تحذيراً وجب الإقلاع والبعد عما نهى عنه وحذر منه، فالأمر كله لله، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(٢).

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾(٣). بل يكون حالهم التسليم والاتباع وبذلك الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(٤).

إن القارئ لكتاب الله عز وجل لا بد أن تكون له نظرة مستبصرة ووقفة تأمل وتدبر في معانيه ودلالاته، يعود بعد ذلك بالتسليم، والانقياد، والاتباع

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٤) سورة النور، الآية: ٥١.

والامتثال لأوامره والوقوف عند حدوده، والحذر من الوقوع في زواجره ونواهيه.

فلنصوص القرآن الكريم إيحاءات خاصة ودلالات هداية، وظلال لطيفة وارفة، ولطائف نافعة، وهذا يحتاج إلى قارئ حي بصير، اطمأنت نفسه بالإيمان، فخالطت بشاشته قلبه، فأثرت على جوارحه وحواسه، متفهماً ما تدل عليه الآيات من معاني ودلالات، وما توحي به من إيماءات ولطائف، دون تكلف أو تعسف، وتحميل كلام الله عز وجل ما لا يحتمل من التقديرات المتكلفة والتأويلات البعيدة.

والقرآن الكريم غني عن هذا كله، فهو مبارك في أجره وثوابه، مبارك في معانيه ودلالاته، مبارك في إصلاح الظاهر والباطن، والفرد والمجتمع، بل والإنسانية جمعاء، يقول تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[1].

قال الرازي: «قوله: «مبارك» أي: كثير خيره، دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية، وقد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة، وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم»[2] يعني التفسير.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٢) التفسير الكبير: ١٣/ ٨٥.

وقال ابن عاشور: «والقرآن مبارك؛ لأنه يدل على الخير العظيم، فالبركة كائنة به، ولأن الله تعالى قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به، بركة في الدنيا وفي الآخرة، ولأنه مشتمل على ما في العمل به من كمال النفس وطهارتها بالمعارف النظرية ثم العملية، فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه»[(١)].

فالتالي لكتاب الله عز وجل المتدبر لآياته المتأمل فيها يرى هذه البركة شاملة عامة، تبرز في كل موضوع من موضوعاته، وتلحظ في كل جانب من جوانبه، ومن ذلك أننا نجد الآية الواحدة كلماتها معدودة قليلة لكنها غنية الدلالة، شاملة في معانيها، عظيمة في توجيهاتها، ولهذا كان من أبرز سمات الأسلوب القرآني: القصدُ في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى، فأسلوب القرآن أسلوب موجز قصد، لا إطناب فيه ولا حشو ولا استطراد، لا إسراف ولا تقتير.

إنه لا بد للقارئ البصير المتدبر أن يعيش في رحاب القرآن، يقف عند آياته وسورة، يستوفي حظه من بيانها ومعانيها، وينهل من دلالتها ولطائفها دون زيغ أو ملل، يحوي من الدلالات والتوجيهات في كل آية منه ما لا تحويه عشرات الكتب الضخام، ولا مقارنة بينهما، فالقرآن كلام الله عز وجل: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[(٢)].

وإذا أردنا أن نعيش حقاً في رحاب القرآن الكريم، فعلينا أن نؤمن بالقرآن عقيدة وشريعة، وأن نتدبر ألفاظه ومعانيه، وأن نحفظ سوره وآياته،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٣٧٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

وأن نبلغ دعوته ورسالته، وأن نعمل بأحكامه وشريعته، فالقرآن الكريم هو الروح الذي لا تحيا القلوب والأجساد إلا به، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (٢). وهو أيضاً حياة وروح للأمة، فيه حياتها وعزها وقوتها، لقد استطاع القرآن الكريم في فترة وجيزة أن يحيي العرب بعد موات، وأن يخرجهم من ظلمات الشرك والوثنية، والضعف والفرقة إلى نور الإيمان والوحدة والقوة، وأن يجعل منهم قادة وأئمة ودعاة، وأن يجعلهم وغيرهم خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

قال الإمام السيوطي – رحمه الله: «إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه علم كل شيء، وأبان فيه كل هدى وغي، فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج منه حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب، تبهر العقول وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب» (٣).

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٣) الإتقان: ١/ ٦-٧.

إن من بركة القرآن على أهله الذين يتلونه ويحفظونه، يتأملونه ويتدبرونه، يعملون به ويحتكمون إليه، يبلغونه ويعلمونه ويدعون إليه، أنه هدى يهديهم إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾[(٣)]، وللإمام الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن كلام نفيس في تفسير هذه الآية.

ومن بركة القرآن أنه شفاء للقلوب والأبدان من أمراضها الحسية والمعنوية، وشفاء وحَلٌّ ناجع للأفراد والمجتمعات والأمم من مشاكلها المستعصية، وأزماتها المتتالية، وهو أيضاً رحمة ومنة من الله عز وجل لمن تمسك به في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢ ﴾[(٤)].

والقرآن الكريم نور وضياء، به أخرج الله هذه الأمة من الظلمات إلى النور، من ظلمات العبودية لغير الله عز وجل إلى عبادته سبحانه، من التفرقة والجهل إلى نور الوحدة والعلم، يقول تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [(١)]، ومن بركته على أهله أنه وقايةٌ لهم وحصن منيع من شياطين الإنس والجن فلا يخلصون إليهم ولا يحققون مآربهم منهم، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [(٢)]، ويقول عز وجل: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [(٣)]. ومن بركته على أهله أيضاً أنه سبب عظيم في نيل الحسنات وكسب الدرجات فإن من قرأ حرفاً منه كان له بذلك عشر حسنات إلى أضعاف مضاعفة، كما أخبر بذلك الحبيب المصطفى والنبي المجتبى الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

هداية القرآن

أنزل الله عز وجل كتابه الكريم نوراً وهدى للناس، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [١]، وهداية القرآن قد شملت الإنس والجن، المتقدم والمتأخر، لخصائص ومميزات انفردت بها تلك الهداية، وقد أبان هذا الأمر علماؤنا المتقدمون والمتأخرون – رحمهم الله تعالى – وأجزل لهم المثوبة والأجر.

قال الزرقاني: «وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة وتامة وواضحة، أما عمومها فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر، وفي كل زمان ومكان، قال الله سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [٢]، وقال جلت حكمته: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [٣]، وقال عز اسمه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [٤].

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

وأما تمام هذه الهداية: فلأنها احتوت أرقى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من الهدايات، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بين مطالب الروح والجسد.

أما وضوح هذه الهداية فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، أسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق، يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص حكيم يقوي الإيمان واليقين، ويهذب النفوس والغرائز، ويصقل الأفكار والعواطف، ويصور له مستقبل الأبرار والفجار، تصويراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار» [(١)].

إن هداية القرآن الكريم ليست مقصورة على قوم دون قوم، أو خاصةً بفئة دون فئة، ولكنها للإنسانية جمعاء إذا آمنت وصدقت به وسارت على هديه والتزمت منهجه واستضاءت بنوره، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [(٢)]. فهو حجة الله على الناس كافة، به عزهم ورفعتهم متى تمسكوا به وانقادوا له، وعليه يكون الحساب والجزاء،

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ١٣٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١)، وقال – عليه الصلاة والسلام: «**والقرآن حجة لك أو عليك**» (رواه مسلم) . وقد اجتهد المسلمون قديماً وحديثاً في العناية بالقرآن الكريم من جميع الجوانب وشتى المجالات، يرومون بذلك الاهتداء به والاستضاءة بنوره، فقد ذكر تعالى جماع أهداف القرآن الكريم بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(٢)، وهذا يؤكد أن القرآن ليس للتلاوة فقط وإن جاء الأمر به في قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾(٣)، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾(٤).

ورتب على ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل، بل المراد الأعظم تدبر آياته وتأملها والنظر فيها لتكون الهداية به، ولن يحقق ذلك إلا بالعمل به والتحاكم ورد الأمور إليه، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٥).

وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن حياة الشقاء والتعاسة إلى الحياة الطيبة والسعادة الهانئة لن يكون إلا بالعمل بالقرآن والتمسك بتوجيهاته في جميع جوانب الحياة، والعناية به في شتى المجالات دون غلو أو جفاء أو إفراط أو تفريط، ودون زيغ أو فتنة، بل كما قال تعالى عن العلماء الراسخين:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٥) سورة ص، الآية: ٢٩.

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢).

هذا هو الإيمان الكامل المتكامل، والعناية الحقة الصادقة بالقرآن الكريم، حين يقترن الإيمان الصادق بأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، له المكانة العظمى في النفوس والهيبة والتقدير والإجلال والاحترام في القلوب، مع العناية به تلاوة لآياته وحفظاً لها، تدبراً وتأملاً في هداياتها ودلالاتها، خدمة له بتفسيره وبيان أحكامه والعلم بشريعته والوقوف على نكاته ولطائفه، تحقيقاً تاماً في العمل به والتقيد بتوجيهاته وتطبيق أحكامه والتزام آدابه، كما حكى جل وعلا حال المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣). فلا يلقي قياده لهواه ولا يستسلم لشهواته ولا ينحرف وراء رغباته وملذاته، حتى يقع في وحل الغواية والضلال.

وإن الناظر في سير سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – ليرى منهم عناية بالغة بكتاب الله عز وجل من جميع الجوانب وشتى المجالات، يقتدون في ذلك بالأسوة القدوة نبينا محمد ﷺ، لا يغفلون جانباً على حساب جانب آخر في العناية به، بل جاءت عنايتهم بكتاب الله عز وجل كاملة تامة، مع ما ينتابهم من القصور والنقص إذ هم من جملة البشر، وقد اعترفوا بذلك على أنفسهم.

وكانوا يستشعرون نعمة الله عز وجل وفضله ومنته بإنزال أفضل كتبه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٥١.

القرآن الكريم على خير خلقه محمد بن عبدالله – صلوات ربنا وسلامه عليه – نوراً وهدى للناس، ويحمدون له جل وعلا على هذه النعمة العظيمة، وفيها ومن أجلها تكون الغبطة والتنافس من أجل تحصيلها وخدمتها ورعايتها، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله من الناس أهلون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» (رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وسنده صحيح).

وفي الحث على التنافس والمسارعة في هذا العمل المبارك، روى عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – عنه ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين** – أي لا غبطة محمودة – **رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» (رواه البخاري).

وروى البخاري من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل، فسمعه جارٌ له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثلما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثلما يعمل**».

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى: «ومضمون هذين الحديثين أن صاحب القرآن في غبطة، وهي حسن الحال فينبغي أن يكون شديد الاغتباط

بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمني زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا، وهذا مذموم شرعاً، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام»[١] .

(١) فضائل القرآن: ٨١-٨٢.

فضل القرآن وأهله

لقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بأن أرسل إليها أفضل رسله وأنزل عليه أعظم كتبه القرآن الكريم هدى وشفاء، نوراً وضياء ورحمة، وجعل أهل القرآن هم أهله وخاصته، فرفع قدرهم وأعلى مقامهم وشرف منزلتهم ووعدهم الهداية والنجاة، والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والثواب الجزيل والأجر العظيم على تلاوته، مع تدبر معانيه وتفهم آياته، والعمل بأحكامه والقيام بحدوده والتمسك به.

فأشرف آية لأهل القرآن قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾[١]. روى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: «كان مطرف بن عبدالله يقول: هذه آية القراء»، وقال القرطبي – رحمه الله: «هذه آية القراء العاملين العالمين، الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق»[٢].

ويقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – مبيناً هذا الثواب العظيم والأجر الجزيل «قوله: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٣٤٥.

﴿فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم»(١).

كما تضمنت السنة المطهرة الأحاديث الكثيرة في فضل القرآن وأهله، وأجر تعلمه وتعليمه، وثواب العمل به والاحتكام إليه، لقد وصف رسول الله ﷺ القرآن العظيم بصفات عظيمة، وأشار في أحاديثه إلى بعض سماته وفضائله، وبين منزلة أصحابه وحملته العاملين به والداعين إليه في الدنيا والآخرة، وأوضح آثاره عليهم في كل شأن من شؤون حياتهم، إن هم عملوا به والتزموه.

فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» (رواه البخاري ومسلم).

ويذكر – عليه الصلاة والسلام – أقسام الناس وأحوالهم تجاه القرآن الكريم، فيما رواه أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – أنه قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانه ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر**» (رواه البخاري ومسلم).

ثم إن الله عز وجل تكفل بالرفعة وعلو المنزلة وشرف الرتبة لأهل القرآن العاملين به في الدنيا والآخرة، وفي هذا العمل المبارك تكون المسارعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٥٥٤.

والمسابقة، والغبطة والثناء لأهله، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» (رواه البخاري ومسلم)، وروى مسلم عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**»، فهذا هو المعيار الحق والميزان العدل الذي به تعرف مقامات الناس ومنازلهم، مع ما ينضم إلى ذلك من تقوى الله جل وعلا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ**﴾[(١)].

وقد روى الذهبي في ترجمة عبدالرحمن بن أبزى الخزاعي، من صغار الصحابة، له رواية وفقه وعلم، وهو مولى نافع بن عبدالحارث، أن نافعاً استنابه على مكة حين ذهب ليتلقى عمر بن الخطاب في عسفان، فقال عمر لنافع من استخلفت على أهل الوادي؟ يعني مكة، قال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: إنه عالم بالفرائض قارئ لكتاب الله، قال: أما إن نبيكم ﷺ قال: «**إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين**» وكان يقول: ابن أبزى ممن رفعه الله بالقرآن (رواه مسلم).

لكم رفع القرآن من وضيع فقير، ومولى وعبد، وصغير وكفيف، وذي عاهة بين الناس، بحفظهم للقرآن وتلاوته وتعليمه، وقد ثبت في الصحيحين من حديث عثمان بن عفان – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

كان أصحاب عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – خمسة كلُهم فيه عيب، عبيدة أعور، ومسروق أحدب وعلقمة أعرج، وشريح كوسج – أي: لا شعر على عارضيه – والحارث أعور، ومع هذا فهم من أئمة التابعين وفضلائهم، رفعهم القرآن بحفظه ومدارسته، وتعلمه وتعليمه.

قال الحسن بن فهم: «ما رأيت أنبل من خلف بن هشام، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن لأصحاب الحديث، وكان لا يرى استصغار حامل القرآن بل لا بد من توقيره، فإن معه أعظم وأفضل ما يُرفع به الناس».

ومن فضائل القرآن وثواب أهله في الآخرة ما رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**» (رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح)، وعن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح).

كما أن قارئ القرآن هو المقدم في إمامة الناس في الصلاة مع ما يستحقه من الإجلال والإكرام، والاحترام والتقدير، روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى ..** » الحديث، وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه –

قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**» (رواه أبو داود بإسناد حسن).

وهذا ما فقهه الصحابة وعملوا به وعظموه، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «**كان القراء أصحاب مجلس عمر – رضي الله عنه – ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً**» (رواه البخاري) .

جلالة القرآن وهيبته

إن عظمة القرآن وهيبته وجلالة وقعه في النفوس وأثره على القلوب والجوارح، سمة من سمات إعجازه وخصائص أسلوبه، وقوة معانيه.

ولا غرو فالقرآن العظيم، عظيم في معانيه وأسلوبه، جليل في موضوعاته وأغراضه، عميم نفعه وآثاره، يقول تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[١]، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير الآية: «يقول تعالى معظماً أمر القرآن ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ ﴾، أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل.

فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.. فإذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

﴿ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾[1]، أي: لكان هذا القرآن وقد قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾»[2][3].

وقال الإمام أبو حيان المفسر - رحمه الله تعالى: «والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر»[4].

إن هذه العظمة والهيبة في مناحي القرآن ومجالاته كلها هي التي - بعد فضل الله عز وجل وعنايته - كانت من أسباب إسلام الصحابة وتثبيت الله لهم بعد ذلك، ومن الناس من عاند وجحد وكفر، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5].

ففي الصحيح عن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[6]، قال: «كاد قلبي أن يطير»، وفي رواية: «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي».

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) تفسير البحر المحيط: ٨/ ٢٥١.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

(٦) سورة الطور، الآيات: ٣٥-٣٧.

وأيضاً فإن هذه الجلالة والهيبة لهذا القرآن العظيم من الأسباب التي أقبلت بقلوب المسلمين إليه المحبين لتلاوته والنظر فيه، قال القاضي عياض - رحمه الله تعالى: «وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهاً كثيرة، منها أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يُستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لحوناً وطرقاً يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها، ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾»[١][٢].

وهذا جزء من حديث رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب وفي سنده الحارث الأعور، والراجح أنه عن علي - رضي الله عنه - من كلامه.

ولذا جاء المروي عن السلف الصالح ومن بعدهم في الحث على التأثر بالقرآن والاتعاظ به كثير، يقول الإمام عبدالعزيز بن أبي رواد «من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ، الإسلام والقرآن والشيب».

(١) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: ١/ ٣٨٩.

حفظ القرآن ومعاهدته

إن من رحمة الله بهذه الأمة وفضله عليها أن أنزل القرآن الكريم هدى ورحمة، موعظة وذكرى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[2].

ومن أفضل ما تقرب به الصالحون إلى ربهم حفظ القرآن الكريم ومعاهدة هذا الحفظ خشية التفلت والضياع، إذ لا غرو أن من أنعم الله عليه بحفظ كتابه ليس كغيره من الناس، لما حباه الله من هذه النعمة العظيمة التي حفظها ووعاها، ورعاها وتعاهدها، ولا مقارنة بين قلب معمور بذكر الله وأعظمه القرآن، وبين قلب خاوٍ ميت، مشغول بالدنيا ولذاتها متقطع حسراتٍ على حطامها وزخرفها الفاني.

ولذلك قال – عليه الصلاة والسلام: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**» (رواه الترمذي من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – وقال: حديث حسن صحيح) . وعن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**» (رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح).

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

ولهذا لم تكن عناية السلف الصالح – رحمهم الله تعالى – مقصورة على تلاوة القرآن من المصحف بل كانوا يتسابقون إلى حفظه وضبطه وإتقانه منذ الصغر؛ لأن الحفظ في الصغر أسهل وأعون على الضبط، ومن فاته حفظ القرآن في أول عمره تدارك ذلك ولو في كبره، وقد اشتهر منهم جماعة بقوة الحفظ وسرعته ثم إتقان ذلك وضبطه، منهم قتادة بن دعامة السدوسي الإمام المفسر، قال مرة لسعيد بن المسيب: «خذ المصحف فأمسك علي، قال: فقرأ سورة البقرة، فما أسقط منها واواً ولا ألفاً ولا حرفاً، ثم قال: يا أبا النضر أحكمت؟ قال: نعم، فقال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة وإنما قدمت عليه مرة واحدة»، وحدث عن نفسه بقوله: «ما سمعت أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي»، ولذلك قال بكر بن عبدالله المزني: «من أراد أن ينظر إلى أحفظ أهل زمانه فلينظر إلى قتادة، فما أدركنا الذي هو أحفظ منه»، وقال محمد بن سيرين: «قتادة أحفظ الناس، أو من أحفظ الناس».

وممن اشتهر بقوة الحفظ والإتقان سليمان بن مهران الأعمش، يقول أبو بكر شعبة بن عياش: «كان الأعمش يعرض القرآن، فيمسكون عليه المصاحف فلا يخطئ في حرف»، ولذلك قال سفيان بن عيينة: «كان الأعمش اقرأهم لكتاب الله وأحفظهم للحديث وأعلمهم بالفرائض».

ومن المشهورين بقوة الحفظ واستحضار أي القرآن الكريم أبو سهل أحمد القطان، يقول أبو عبدالله بن بشر القطان: «ما رأيت رجلاً أحسن انتزاعاً لما أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زياد، وكان جارنا، وكان يديم صلاة الليل وتلاوة القرآن، فلكثرة درسه صار القرآن كأنه بين عينيه، ينتزع منه ما شاء من غير تعب».

فما كان لهذا الإمام المقرئ قوة الحفظ واستحضار الآي إلا بفضل الله ومنته عليه ثم بحرصه على المراجعة والمعاهدة، حتى كان القرآن بين عينيه، يستشهد منه ويستدل بآياته من غير خلط ولا تضييع.

وكانوا مع حرصهم على ضبط حفظهم القرآن وإتقانه يحاسبون أنفسهم ويلومونها على التقصير والخطأ عند قراءته عن ظهر قلب، ويعزون سبب ذلك إلى ذنوبهم وخطاياهم، ومن عقوبة الذنب حرمان الطاعة وعدم إتقان العبادة، قال جعفر بن سليمان الضبيعي «كان مالك بن دينار من أحفظ الناس للقرآن، كان يقرأ علينا كل يوم جزءاً من القرآن حتى ختم، فإن أسقط حرفاً قال: بذنب مني، وما الله بظلام للعبيد».

وهنا يذكر أهل العلم خلاف السلف في أيهما أفضل، قراءة القرآن عن ظهر قلب أم قراءته من المصحف، مع اتفاق الجميع على أن حفظ القرآن من أفضل الأعمال وأجل القرب، يقول الحافظ ابن كثير: «قال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع، فإن كان الخشوع أكثر عند القراءة عن ظهر قلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف أكثر فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظراً أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر إلى المصحف»[1] وهو بذلك أكثر عبادة وجهداً.

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وتفصيلاً النووي بقوله: «قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب؛ لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجتمع القراءة والنظر .. ونقل الغزالي في الإحياء أن كثيرين من

---

(١) فضائل القرآن: ٨٦-٨٧.

الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يقرؤون من المصحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف، وروى ابن أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف، ولم أر فيه خلافاً.

ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص، فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة من المصحف وعن ظهر قلب، ويختار القراءة عن ظهر قلب لمن لم يكمل خشوعه وتدبره إلا بها لكان هذا قولاً حسناً، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمولٌ على هذا التفصيل» [(١)].

وإذا كانت النصوص من الكتاب والسنة جاءت حاثة على قراءة القرآن والاستمرار على تلاوته اغتناماً للأجر واحرازاً للفضيلة، مع الثناء على أهله المعتنين به، فإنها جاءت أيضاً محذرة من تضييع نعمة حفظ القرآن والتكاسل في معاهدته ومراجعته؛ لأن فاعل ذلك والحالة هذه متهاون بما أنعم الله به عليه ووفقه له من حفظ كتابه.

روى أبو داوود والترمذي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«عرضت عليَّ أجور أمتي حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمتي فلم ار ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب أوتيها رجل فنسيها»**، ولذلك جاء الأمر بمراجعة الحفظ ومعاهدة التلاوة، ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: **«بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نُسي، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم»**، وعن

---

(١) التبيان: ٧٨.

أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**تعاهدوا القرآن، فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عُقُلِها**» (رواه البخاري).

وفي التعبير عن المعتني بالقرآن حفظاً وتلاوة بـ«صاحب القرآن»، معنى دقيق يناسب هذا الموضوع، قال القاضي عياض: «المؤالفة: المصاحبة وهو كقوله: «أصحاب الجنة»، وقوله أَلِفه أي: ألف تلاوته وهو أعم من أن يألفها نظراً من المصحف أو عن ظهر قلب، فإن الذي يداوم على ذلك يذل له لسانه ويسهل عليه قراءته، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة وشقت عليه» (١).

أما عن تشبيه تفلت القرآن من قلب صاحبه بالبعير المنفلت من قياده، فقد أبان ذلك الحافظ ابن حجر بقوله: «شبه درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يُخشى منه الشراد، فما زال التعاهد موجوداً فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدوداً بالعقال فهو محفوظ، وخص الإبل بالذكر؛ لأنها أشد الحيوان الإنسي نفوراً، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة» (٢).

وقد تضمن حديث ابن مسعود ذم من يقول: «نسيت آية كذا وكذا» لما فيه من الإشعار بعدم الاعتناء بالقرآن، إذ لا يقع النسيان إلا بترك التعاهد وكثرة الغفلة، فلو تعاهده بتلاوته والقيام به في الصلاة لدام حفظه وتذكره، فإذا قال الإنسان: نسيت آية كذا فكأنه شهد على نفسه بالتفريط. قال ابن بُطال: «هذا الحديث يوافق الآيتين، قوله تعالى:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (٣).

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٧٩.

(٢) فتح الباري: ٩/ ٧٩-٨٠.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٥.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يسر له، ومن أعرض عنه تفلت منه»[(١)].

لقد كانت عناية السلف - رحمهم الله تعالى - بالغة بتلاوة القرآن ومراجعة المحفوظ منه، يحذرون من التكاسل في ذلك أو التهاون في عدم الالتزام بحزب يقرؤه الشخص أو تعاهدٍ لما حفظه من القرآن، فهو والحالة هذه كمن فرط في نعمة عظيمة وهبها الله إياه ووفقه لها، وكلما أكثر من التلاوة والمراجعة حظي بالأجر العظيم وثبات ما لديه، عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح).

لذا فقد ذهب بعض السلف إلى أن نسيان السورة أو الآية من القرآن كبيرةٌ من كبائر الذنوب، وبعضهم حمله على الكراهة، قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه: «إني لأمقت القارئ أن أراه سميناً نسياً للقرآن»، وقال الضحاك بن مزاحم: «ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[(٢)]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب».

وكان الإنكار على من نسي القرآن والتحذير من هذا الفعل أمراً معهوداً عند السلف، يحكي ذلك أبو العاليه بقوله: «كنا نعد من أعظم الذنوب

---

(١) فتح الباري، ٩/ ٨٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

أن يتعلم الرجل القرآن، ثم ينام عنه حتى ينساه»، وعن ابن سيرين في الذي ينسى القرآن بعد ما حفظه: كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً.

قال القرطبي: «من حفظ القرآن أو بعضه فقد علت رتبته بالنسبة إلى من لم يحفظه، فإذا أخل بهذه الرتبة الدينية حتى تزحزح عنها ناسب أن يعاقب على ذلك، فإن ترك معاهدة القرآن يفضي إلى الرجوع إلى الجهل، والرجوع إلى الجهل بعد العلم شديد»(١).

إن العيش في رحاب القرآن الكريم وإدامة النظر فيه تلاوة وحفظاً أكبر معين على استحضار آياته والوقوف على هداياتها والتأمل الدقيق في مدلولاتها، ولا يكون هذا إلا بتوفيق من الله عز وجل ثم بمجاهدة النفس على ذلك، يقول الإمام التابعي الزاهد إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى: «على القلب ثلاثة أغطية، الفرح والحزن والسرور، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب، والعجب يحبط العمل، ودليل ذلك كله قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾(٢).

وقال أمير المؤمنين في الحديث الإمام التابعي عبدالله بن المبارك - رحمه الله تعالى: «لو أن رجلاً أتقى مائة شيء ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعاً، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعت الله تعالى يقول عن نوح - عليه السلام: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٨٦.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

﴿وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [(١)]، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [(٢)].

وفي الحث على التدبر والتأمل في آي القرآن الكريم يقول الإمام الآجري بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [(٣)]، وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [(٤)]، «ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم، كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوة السورة إذا افتتحها متى تعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة،وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؛ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفله» [(٥)].

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٥.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٥) أخلاق حملة القرآن ١٨-١٩.

ولذلك روي عن الحسن البصري أنه قال: «الزموا كتاب الله وتتبعوا ما فيه من الأمثال، وكونوا فيه من أهل البصر، ثم قال: رحم الله عبداً عرض نفسه وعمله على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله الزيادة، وإن خالف كتاب الله أعتب نفسه ورجع من قريب».

تنافس السلف في تلاوة القرآن وعنايتهم بتحقيقها

إن مما اتفق عليه الصالحون من عباد الله الأخيار الأكياس الإكثار من تلاوة القرآن وترتيله أناء الليل وأطراف النهار، اغتناماً للأجر وتحصيلاً للثواب، يقول المصطفى – عليه الصلاة والسلام: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به عشر حسنات، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» (رواه الترمذي والحاكم)، يقول الإمام أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ، والتابعون بإحسان، لزوم الجماعة واتباع السنة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله».

ومن حكايته – رحمه الله تعالى – حال من قبله مع الحث على التمسك بهديهم واقتفاء أثرهم قوله: «عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم».

وكانوا – رحمهم الله تعالى – يجدون في تلاوة القرآن الكريم ولزوم ذلك أنساً ولذة تعجز العبارة عن وصفها، وكانوا يتحسرون عند موتهم على انقطاعهم من الأعمال الصالحة ومن أجلها تلاوة القرآن الكريم، يقول الحسن البصري – رحمه الله تعالى: «تفقدوا الحلاوة في ثلاث، في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلم أن بابك مغلق»، وهذا حق، فإن الذي لا يأنس ولا يطمئن في صلاته وتلاوة كتاب ربه وذكر الله جل وعلا، بل يتململ منها ويتضايق حين إتيانها وحضور مجالسها،

فإنه محروم، حرم خير الله وفضله، ومسكين قد أغلقت عليه معاصيه وذنوبه أبواب الخير والأنس بالطاعة والراحة فيها، يقول جل وعلا في وصف كتابه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1]، وكان – عليه الصلاة والسلام يشتاق للصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، فيها يظهر العبد لربه استكانته وذله بين يديه، ولذلك كان يقول لبلال – رضي الله عنه: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**» (رواه أحمد وأبو داود)، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – محافظاً على ورده من الأذكار، ويقول: هي غدوتي وعشائي، وروي أنه قال: «المؤمن مع الذكر، كالسمك مع الماء، فهل للسمك بقاء بدون الماء، كذلك المؤمن لا حياة له ولا راحة ولا سعادة إلا بذكر الله، يقول جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[2].

ولذا جاء في سيرة الإمام المحدث حماد بن سلمة عنايته بهذه الأمور، يقول عفان بن مسلم: «قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة، ولكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير وقراءة القرآن والعمل لله من حماد بن سلمة»، وقال موسى بن إسماعيل: «كان حماد بن سلمة مشغولاً بنفسه، إما أن يحدث وإما أن يقرأ وإما أن يسبح وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال».

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ومن دقيق محاسبة السلف أنفسهم على حرمانهم من الأعمال الصالحة وإخلالهم بما التزموا به وعاهدوا أنفسهم عليه وظبطه وإتقانه ما رواه جعفر بن سليمان الضبيعي وكان ممن صحب العباد العلماء فأفاد منهم، قال – رحمه الله تعالى: «كان مالك بن دينار من أحفظ الناس للقرآن، وكان يقرأ علينا كل يوم جزءاً من القرآن حتى ختم، فإن أسقط حرفاً قال: بذنب مني، وما الله بظلام للعبيد». وممن صحبه عبدالله الداري، روى عنه أنه قال: «كان أهل العلم بالله يقولون: إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن، وإن الشبع يقسي القلب ويفتر البدن».

وروى عنه أيضاً قوله: «إن لله عقوبات في القلوب والأبدان، ضنك في المعيشة ووهن في العبادة، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»، وروى عنه قوله: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة عن الصفا».

ويحكي – رحمه الله تعالى – حال الصالحين في زمنه في إخلاصهم العمل لله عز وجل وإخفائه عن الناس ومن ذلك تلاوة القرآن الكريم، فيقول: «أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم إدهن ولبس صالح ثيابه ولقد كان الرجل منهم يتقرأ – أي يقرأ القرآن – عشرين سنة ما يعلم به جيرانه».

ومن الوصايا النافعة لأهل القرآن قول الإمام الجليل سفيان الثوري – رحمه الله تعالى: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس، ولا تزيدوا التخشع على ما في القلب، واتقوا الله وأجملوا في الطلب».

وإذا كانت عناية السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - متجهة إلى إتقان تلاوة القرآن وتجويده والرغبة في تحسين الصوت به وقوة الحفظ وتعاهده، حفاظاً على هذه النعمة الكبرى وخوفاً من التفريط فيها والتعرض بعد ذلك للعقوبة، حيث تكاسل في تعاهد هذا الحفظ ومراجعته.

كل ذلك وإن كان حسناً ومثاباً عليه صاحبه إلا أن عنايتهم كانت منصرفةً أكثر إلى ما هو أهم من ذلك وأتم، وهو فهم معانيه والتفكر في آياته والتأثر بها والعمل بمقتضاها، وقوفاً عند حدوده وائتماراً بأمره وحذراً من زواجره وبعداً عن نواهيه.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[1]. قالوا: يتبعونه حق اتباعه، وعن الشعبي - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾[2] قال: «أما إنه كان بين أيديهم ولكن نبذوا العمل به».

وعلى هذا درج السلف الصالح يوجهون الناس إلى ثمرة التلاوة والقراءة وهي خشية الله سبحانه والعمل بالكتاب وتحكيمه في شؤون الحياة صغيرها وكبيرها، عن أبي الزاهرية حدير بن كريب الحمصي «أن رجلاً أتى أبا الدرداء بابنه، فقال: يا أبا الدرداء إن ابني هذا جمع القرآن - أي تلاه وحفظه - فقال أبو الدرداء: اللهم اغفر، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاعه»، ويقول الحسن البصري: «إن أولى الناس بالقرآن من اتبعه، وإن لم يكن يقرؤه».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

بل إن علامة العلم النافع خشية الله سبحانه والتأثر بكلامه سبحانه القرآن الكريم والعمل به، يقول عبدالأعلى التيمي: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه، فليس بخليق أن يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تبارك وتعالى نعت العلماء فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾[1].

وهكذا كان رسولنا وقدوتنا – عليه أفضل الصلاة والسلام – عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي يقرأ آية واحدة، الليل كله حتى أصبح، بها يقوم وبها يركع وبها يسجد، قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]، (رواه أحمد والنسائي)، وهكذا كان الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعون لهم بإحسان رحم الله الجميع، يقوم أحدهم ما كتب له من الليل ويقف عند الآية الواحدة يرددها ويتأمل فيها، فعن تميم الداري أنه أتى المقام ذات ليلة، فقام يصلي فافتتح سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[3]، لم يزل يرددها حتى أصبح، وعن عامر بن عبد قيس أنه قرأ ليلة من سورة غافر فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[(١)]. لم يزل يرددها حتى أصبح.

وكانوا – رحمهم الله تعالى – ينكرون على من يهذ القرآن هذاً لا يتدبره ولا يتأثر به ويوجهون إلى المنهج الحق والطريق الصواب، عن أبي جمرة قال: «قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث – أي يختمه في ثلاثة أيام – فقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول». وسئل مجاهد بن جبر – رحمه الله تعالى – عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد وركوعهما واحد وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهما أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[(٢)]».

لذا فقد فسروا قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾، بنحو هذا، قال ابن عباس – رضي الله عنهما «بينه تبييناً»، وقال مجاهد: «ترسل فيه ترسلاً، بعضه في إثر بعض»، ولذلك يقول محمد بن كعب القرظي – رحمه الله تعالى: «لأن أقرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾، والقارعة، أرددُهما وأتفكر فيهما أحبُ إلي من أن أهذ القرآن».

وقد علموا أن مما يعينهم على التأثر بالقرآن وتدبر آياته تحسين الصوت حال تلاوته، فاعتنوا بذلك، لكن دون إفراط وغلو فيه بحيث يخرجهم إلى الألحان المطربة والأنغام المحرمة، وفي الأثر: «أحسن الناس صوتاً بالقرآن

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

أخشاهم لله تعالى» (رواه أبو عبيد في فضائل القرآن عن طاووس)، ولما سمع أنس بن مالك - رضي الله عنه - رجلاً يقرأ بهذه الألحان التي أحدث الناس أنكر ذلك ونهى عنه.

وروي عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة».

كما أن لأهل القرآن وحملته علامات يعرفون بها وسجايا يتخلقون بها وآداباً يحافظون عليها وسمتاً وهدياً يتمسكون به، يقول عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبتواضعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون».

ومن خصال حملة القرآن أنهم لا يذلون أنفسهم إلا لله عز وجل، فلا يتعلقون بمخلوق ولا يحتاجون لأحد؛ يقول الفضيل بن عياض: «ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له إلى أحد من الخلق حاجة، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه»، ويبين الحسن البصري حقيقة تلاوة القرآن، عائباً على بعض أهل زمانه عنايتهم بإقامة حروفه مع تضييع حدوده، لا يرى للقرآن عليهم أثر ولا خلق، يقول - رحمه الله تعالى: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتلاوته، ولم ينالوا الأمر من أوله، قال الله عز وجل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾[(١)]. وما تدبر آياته إلا باتباعه والعمل بعلمه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا، لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء».

وهؤلاء على العكس من حال الصحابة في تأثرهم بالقرآن واتعاظهم به، يقول عبدالله بن عروة بن الزبير قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله»، تريد قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[(٢)].

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

التحذير من هجر القرآن

إذا كان الحديث عن فضل القرآن وفضل تلاوته ورفعة أهله وعلو منزلتهم وجلالة قدرهم – فهم أهل الله وخاصته – بهذه الأهمية فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله من الناس أهلون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته**»، (رواه أحمد وابن ماجه والنسائي في فضائل القرآن والحاكم، قال البوصيري هذا إسناد صحيح).

فإنه – عليه الصلاة والسلام – قد حذر من هجر القرآن والإعراض عنه، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**» (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)[1]. ولهذا كان السلف الصالح يوصي بعضهم بعضاً بتلاوة القرآن والعناية به ومتابعته والعمل بأحكامه والوقوف عند حدوده، قال أبو سعيد الخدري – رضي الله عنه: «عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في أهل السماء وذكرك في أهل الأرض، وعليك بالصمت إلا في حق فإنك تغلب الشيطان».

وقال جندب بن عبدالله – رضي الله عنه: «أوصيكم بتقوى الله،

---

(١) وروى ابن المبارك في كتاب الزهد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «البيت الذي يتلى فيه كتاب الله كثر خيره وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله ضاق بأهله وقل خيره، وحضرته الشياطين وخرجت منه الملائكة».

وأوصيكم بالقرآن فإنه نور بالليل المظلم، وهدى بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة .. واعلم أنه لا فاقة بعد الجنة ولا غنى بعد النار»، وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، لا تكونوا عيالاً على الناس»، بل على قدر محبة العبد لكتاب الله يعرف قدر محبته لله عز وجل وتعظيمه وإجلاله، قال عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه: «لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله».

ولذلك جاء الأمر بتعاهد القرآن والإكثار من تلاوته والتحذير من نسيانه والغفلة عنه، فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عُقُلها**» (متفق عليه) . وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**»(متفق عليه)، وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها**» (رواه أبو داود والترمذي).

وهجر القرآن على أنواع، يشملها قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾** ﴾[1]. يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

«هجر القرآن أنواع، أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به، والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾»[1].

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسير الآية: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمدٍ ﷺ أنه قال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه فهذا من هجرانه، وتركُ الإيمان به وتركُ تصديقه من هجرانه، وتركُ تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ من غيره من هجرانه»[3].

إن من المقاصد المهمة والمطالب العالية لتلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه

---

(١) الفوائد: ٨٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣١٧.

تدبر آياته وتفهم نصوصه والتأمل فيها، وبذلك تنشرح الصدور وتستنير القلوب، بعد غفلتها وظلامها، فإنه لا حياة لها إلا بالقرآن، يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[٢]، وقال عز وجل حاثاً خلقه على التدبر والتفكر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[٤]. روى ابن جرير عن خالد بن معدان – رضي الله عنه – قال: «ما من عبد إلا له أربع أعين، عينان في وجهه يبصر بهما دنياه وما يصلحه في معيشته، وعينان في قلبه يبصر بهما دينه وما وعد الله بالغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللذين في قلبه فأبصر بهما ما وعد بالغيب، وإذا أراد الله بعبد سوءاً ترك القلب على ما فيه وقرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾».

وفي الأثر: «يأتي على الناس زمان يخلق القرآن في قلوبهم يتهافتون تهافتاً، قيل يا رسول الله، وما تهافتهم؟ قال: يقرأ أحدهم فلا يجد حلاوة ولا لذة يبدأ أحدهم بالسورة وإنما معه آخرها، فإن عملوا قالوا ربنا اغفر لنا، وإن تركوا الفرائض قالوا: لا يعذبنا الله ونحن لا نشرك به شيئاً، أمرهم رجاء ولا

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.

خوف فيهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾»[(١)(٢)].

وروى القرطبي عن معاذ – رضي الله عنه – قال: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوةً ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف إن قصروا قالوا سنبلغ، وإن أساؤوا قالوا سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً».

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى الديلمي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – مرفوعاً.

عناية السلف بإقراء القرآن وتعليمه

كثرت الوصية بين السلف - رحمهم الله تعالى - بتلاوة القرآن والعناية بحفظه وتلاوته ابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل وإصلاحاً للقلوب وتزكية للنفوس به، قال عبدالله بن عون: «أحب لكم يا معشر إخواني ثلاثاً، هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكف عن أعراض المسلمين».

وكان لهم اهتمام عظيم بتعليم القرآن وتحفيظه للناس صغاراً وكباراً، وبيان معانيه وأحكامه لهم، يقول النبي ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه)، قال أبو عبدالرحمن السلمي الراوي عن عثمان: «وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا» وقد جلس لإقراء الناس كتاب الله عز وجل في خلافة عثمان حتى زمن الحجاج.

وقد بلغوا في هذا مبلغاً عظيماً سبقوا به من بعدهم، فهذا أبو موسى الأشعري جلس يعلم القرآن بمسجد البصرة مع كثرة مسؤولياته وتعدد أشغاله فهو أمير البصرة، يقول عنه أنس بن مالك - رضي الله عنه: «بعثني الأشعري إلى عمر، فقال عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت: تركته يعلم الناس القرآن، فقال عمر: إنه كيس ولا تسمعها إياه».

وكان ابن الأخرم أحد الأئمة القراء الذين بذلوا جهودهم وأوقاتهم في تعليم كتاب الله عز وجل وصبروا على ذلك، فقد كانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، يقرأ عليه الطلاب من الفجر إلى الظهر ثم إلى العصر، يقول

محمد بن علي السلمي: «قمت ليلة سحراً لآخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني إلى حلقته ثلاثون قارئاً، قال: ولم تدركني النوبة إلا العصر»، وصنيع هؤلاء الطلاب دليل على عظيم حبهم تعلم تلاوة كتاب الله والعناية بحفظه وإجادة قراءته، وقد وجدوا من يرحب بهم ويُقبل عليهم ويشجعهم على أفضل الأعمال وخيرها.

بل إن بعض السلف نذر نفسه ليعلم طائفة من الناس، هم في أمس الحاجة إلى من يعلمهم كتاب الله عز وجل، ويصبر على ما يلقى في ذلك، وكأنه جعل حياته وجهده وقفاً على هذا العمل، فهذا أبو منصور البغدادي جلس دهراً يعلم كتاب الله عز وجل، يقرئ العميان، وروي عنه أنه أقرأ سبعين من العميان.

وكانوا - رحمهم الله - يحرصون على تعليم أبنائهم القرآن وهم في سن مبكرة؛ لأن التعليم في الصغر أدعى للحفظ والفهم والإتقان، وقد بوب البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن باب تعليم الصبيان القرآن، وذكر فيه قول سعيد بن جبير: «إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم». وفي رواية فقلت له: وما المحكم؟ قال: المفصل».

وكانوا لا يقدمون على تعليم القرآن وحفظه شيئاً بل كان من شروطهم - رحمهم الله - في طلب علم الحديث والفقه تعلم القرآن وحفظه، يقول الإمام النووي: «كان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن»، وقال مسلم بن مشكم: «قال لي أبو الدرداء: اعدد من في مجلسنا، قال: فجاء

ألف وستمائة ونيفاً فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبح انفتل وقرأ جزءاً فيحدقون به، ويسمعون ألفاظه، وكان ابن عامر مقدماً فيهم». وقال الوليد بن مسلم: «كنا إذا جالسنا الأوزاعي فرأى فينا حدثاً، قال: يا غلام قرأت القرآن؟ فإن قال نعم قال: اقرأ، وإن قال: لا، قال: اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم».

وقد ذهب بعضهم إلى تفضيل تعليم القرآن على الجهاد في سبيل الله، فقد قيل لسفيان الثوري الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن؟ فقال: يقرأ القرآن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، وهذا الكلام يحتاج إلى تفصيل وزيادة بيان، لكنه يدل دلالة واضحة على عظيم فضل تعلم القرآن وتعليمه وعناية السلف – رحمهم الله – بذلك غاية العناية، وبه كانوا يتواصون، فعن يونس بن جبير قال: «شيعنا جندباً – أي ودعناه – فقلت له: أوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نور بالليل المظلم، وهدى بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقه».

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «عليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تسألون وبه تجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل».

وكانوا يحرصون – رحمهم الله تعالى – على تعظيم هذا العلم الشريف الذي يعلمونه ويغتبطون به، فرحين مستبشرين بفضل الله عليهم به، روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن الأعمش قال: «مر أعرابي بعبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – وهو يقرئ قوماً القرآن، أو قال: وعنده قومٌ يتعلمون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد ﷺ».

وقد ذكر بعض المفسرين أن عمر بن الخطاب أتي بغنائم كثيرة، فوقف مع عماله يعدونها، فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين، هذا فضل الله ورحمته، فقال عمر: أخطأت بل هو القرآن، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: «والغرض أنه – عليه الصلاة والسلام – قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» وهذه صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكمل في أنفسهم المكملين لغيرهم، وذلك جَمْعٌ بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين، الذي لا ينفعون ولا يتركون أحداً ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾[2]، في أصح قولي المفسرين في هذا، هو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه أيضاً، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾[3]، فهذا شأن شرار الكفار، كما أن شأن الأخيار الأبرار أن يتكمل في نفسه ويسعى في تكميل غيره»[4].

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.

(٤) فضائل القرآن: ٨٤.

نهيهم عن التقعر والتكلف حال القراءة

أمر ربنا تبارك وتعالى بترتيل القرآن وتلاوته حق تلاوته، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ (١)، وقال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝١٢١﴾ (٢)، كما أمر النبي ﷺ بتحسين الصوت حال قراءته ما استطاع القارئ، وكان هذا هديه، ففي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به**»، وعن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» (رواه أبو داود والنسائي وإسناده صحيح). وعنه أيضاً قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ (٣)، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه» (رواه البخاري ومسلم).

وأثنى - عليه الصلاة والسلام - على من أوتي حسن الصوت بالتلاوة، عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**» (رواه البخاري ومسلم).

كل هذا بلا تكلف ولا تقعر ولا تشديد على النفس، بل حسب الطبيعة مع الاجتهاد في ذلك، روى ابن أبي مليكة عن عبدالله بن أبي يزيد قال: «مر

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٣) سورة التين، الآية: ١.

بنا أبو لبابة – رضي الله عنه – فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**» أي يحسن صوته حال تلاوته – قال: أي عبدالجبار بن الورد – فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع» (رواه أحمد وأبو داود وإسناده صحيح) .

وقد أبان ابن القيم – رحمه الله تعالى – التغني الممدوح المطلوب حال التلاوة بقوله: «ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلي وطبعه واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً» فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع» (١) .

وفي مقابل هذا حذر السلف من التكلف والتقعر، ونهوا عن التشدد والتمطيط ونحو ذلك حال القراءة، روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – قال: «أقرأ الناس للقرآن منافق يقرؤه، لا يترك منه واواً ولا ألفاً يلفته بلسانه، كما تلفت البقرة الخلا بلسانها، لا يجاوز ترقوته»، واللفت: اللي، أي تلويه، والخلا: هو النبات ما دام رطباً.

وروى عبدالرزاق في المصنف وابن المبارك في الزهد عن الحسن البصري – رحمه الله تعالى – قال: «تعلم هذا القرآن عبيدٌ وصبيان لم يأتوه من قبل

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٤٩٢.

وجهه، لا يدرون ما تأويله، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[(١)]، وما تدبر آياته إلا باتباعه، فإن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرؤه، ثم يقول أحدهم: تعال يا فلان: أقارئك، متى كانت القراء تفعل هذا؟ ما هؤلاء بالقراء ولا الحلماء، ولا الحكماء، لا أكثر الله في الناس أمثالهم».

وقد جاء في ترجمة الإمام المقرئ حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة - رحمهم الله تعالى - أن الإمام أحمد كره قراءته لما فيها من التكلف وزيادة المد، قال ابن قدامة: «ولم يكره الإمام أحمد قراءة أحد من العشرة إلا قراءة حمزة والكسائي، لما فيها من الكسر والإدغام والتكلف وزيادة المد»، والصحيح أن هذا التكلف الذي كرهه الإمام أحمد إنما جاء من رواة حمزة وتلامذته، وإلا فقد كان حمزة يكره التكلف وينهى عنه، وقد استقر الأمر على قبول قراءته وعدها في القراءات السبع.

قيل لحمز: «يا أبا عمارة، رأيت رجلاً من أصحابك يهمز حتى انقطع زره أي من التكلف - فقال: لم آمرهم بهذا كله»، وكان يقول لمن يزيد في المد والهمز: «لا تفعل، أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق الجعودة فهو قطط، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة»[(٢)]، وقال الإمام ابن الجزري: «وأما ما ذكر عن عبدالله بن إدريس وأحمد بن حنبل من كراهة قراءة حمزة، فإن ذلك محمول على قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة، وما آفة

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) المغني: ١/ ٤٩٢.

الأخبار إلا رواتها، قال ابن مجاهد: قال محمد بن الهيثم: والسبب في ذلك أن رجلاً ممن قرأ على سليم حضر مجلس ابن دريس فقرأ، فسمع ابن إدريس ألفاظاً فيها إفراط في المد والهمز وغير ذلك من التكلف، فكره ذلك ابن دريس وطعن فيه، قال محمد بن الهيثم: وقد كان حمزة يكره هذا وينهى عنه»[(١)].

لقد أبان الله جل وعلا حال المتأثرين بالقرآن وذكر نعوتهم وسيماهم، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[(٣)]، وكان هديه – عليه الصلاة والسلام – البكاء ورقة القلب عند تلاوة القرآن أو سماعه من غيره، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ علي**»، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت على هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[(٤)]. قال: «**حسبك الآن**»، فالتفت فإذا عيناه تذرفان».

قال بعض شراح الحديث: «إنما بكى ﷺ عند تلاوته هذه الآية؛ لأنه

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٢٦٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤١.

مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء، وقيل: بكى رحمة لأمته؛ لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلى تعذيبهم» (١).

وهكذا كان هدي سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – ترق قلوبهم عند تلاوة القرآن أو سماعه فيبكون ويتأثرون، بخلاف ما أحدثه غيرهم من الصياح ورفع الأصوات أو الصعق والغشي عند سماع القرآن، وقد أنكروا على من فعل ذلك وأرشدوه إلى السنة وحذروه من المخالفة، وحذروا غيرهم الاغترار بهؤلاء، مر ابن عمر – رضي الله عنهما – برجل ساقط والناس حوله، فقال: ما هذا؟ فقالوا: إذا قرئ عليه القرآن أو سمع الله يُذكر خرَّ من خشية الله تعالى، فقال ابن عمر: والله إنا لنخشى الله وما نسقط»، وسُئلت أسماء بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنها: «هل كان أحدٌ من السلف يُغشى عليه من الخوف؟ فقالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون».

ولما قيل لعائشة – رضي الله عنها: «إن قوماً إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: إن القرآن أكرم أن يُنْزَفَ عنه عقولُ الرجال، ولكنه كما قال الله عز وجل: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾» (٢).

❑◎◎❑

(١) فتح الباري: ٩/ ٩٩.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

تدبر القرآن

إن الحياة في ظلال القرآن الكريم نعمةٌ كبيرة ومنحة جليلة، حين يعيش المسلم في هذه الحياة على نور من كتاب ربه وهدىً من سنة رسوله ﷺ، القائل: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وسنتي**» (رواه الحاكم والطبراني).

وهذه الحياة التي يعيشها أهل القرآن تلاوة وحفظاً، تدبراً وتأملاً، عملاً والتزاماً، لا يعرفها إلا من ذاقها وعاشها ووجد آثارها في نفسه، ومما يعين على ذلك بل هو السبب الرئيس تدبر آيات القرآن والتأمل والنظر فيها ليكون ذلك عوناً على العمل والاتباع، فعلاً للأوامر واجتناباً للمعاصي والمحرمات.

ولذا جاء الأمر بذلك والحث عليه والترغيب فيه وبيان آثاره العاجلة والآجلة على أهله، يقول تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾**﴾[1]. ويقول عز وجل: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾**﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾**﴾[4].

كما أثنى جل وعلا على عباده المؤمنين الخاشعين المتأثرين بآيات القرآن

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٤) سورة القمر، الآية: ١٧.

الكريم، خشية وذلاً، بكاء وانكساراً بين يدي الله، زيادة في إيمانهم واستجابةً حقةً صادقة لله ولرسوله - عليه الصلاة والسلام - يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، ويقول أيضاً في حقهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2].

يقول ابن القيم - رحمه الله - مبيناً أهمية تدبر آيات القرآن والتأمل فيها: «وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمعُ الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[6]، وقال الحسن: «نزل القرآن ليتدبر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً».

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل، وجمع الفكر فيه على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٩.
(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٣.

معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتُشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه.

وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريقة الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى، ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه» (١) . إلى آخر كلامه – رحمه الله.

لقد علم السلف الصالح أهمية التدبر والتأمل في آيات القرآن الكريم، وأنه سبب رئيس في التأثر به، تنفيذاً لأحكامه وإقامة لحدوده وتطبيقاً لشرائعه، جعلوه غذاء أرواحهم وقوت قلوبهم وقرة أعينهم، طهرت به نفوسهم وصلحت به أحوالهم، فسعدوا في الدارين الدنيا والآخرة.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٥١-٤٥٣.

ولهم في ذلك أقوال كثيرة وأحوال مرضية – رحم الله الجميع – من ذلك قول عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه: «لا تنثروه نثر الدَّقْل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»، وقال عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما: «كنا صدرَ هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلاً عليهم ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به»، وقال أيضاً: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»، وقال الحسن: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار».

إن تلاوة القرآن بالتدبر والنظر، والتفكر والتأمل دواء القلوب وصلاح الباطن والظاهر، وعلى قدر هذا يكون تأثير القرآن، قال إبراهيم الخواص وقيل إبراهيم النخعي: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءةُ القرآن بالتدبر، وخلاءُ البطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين»، وقال مالك بن دينار: «ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض».

ويرثي الحسن البصري حال بعض أهل زمانه وهم في القرون المفضلة

السابقة فيقول: «إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم ينالوا الأمر من أوله، قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1] وما تدبر آياته: إلا باتباعه والعمل به، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة».

وهو القائل: «يا ابن آدم والله إن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك وليشتدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك».

ولا تزال الوصية بتدبر القرآن والنظر في آياته جيلاً بعد جيل، يقول أبو عثمان المغربي القيرواني: «ليكن تدبُرُك في الخلق تدبر عبرة، وتدبُرك في نفسك تدبر موعظة، وتدبُرك في القرآن تدبر حقيقة قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾»[2].

ومتى ابتعد العبد عن كتاب الله عز وجل وتنكب طريقه وانحرف عن صراطه سلك طرق الضلالة وتلاعبت به شياطين الإنس والجن، فقادته إلى مهاوي الردى ومسالك الرذيلة، وأعقبت له هما وغماً وضيقاً في الدنيا، ثم الحسرة والندامة في الدار الآخرة، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾[3]. ويقول عز وجل:

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة طه، الآيات: ١٢٤ - ١٢٦.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ ﴾[1].

ومما يعين العبد على التمسك بكتاب الله عز وجل والتأثر بآياته والعمل بأحكامه تدبر آياته والنظر فيها، كما هو هدي النبي ﷺ وصحابته الأخيار رضي الله عنهم أجمعين وسلف هذه الأمة رحم الله الجميع.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى: «فتبارك الذي جعل كلامه حياةً للقلوب وشفاءً لما في الصدور، وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[١]، فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود: «لا تهذوا القرآن هذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»، وروى أبو أيوب عن أبي جمرة قال: «قلت لابن عباس إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ السورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ» .. ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه، قال الحسن البصري: «أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً»[٢].

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٨٧.

العمل بالقرآن والإخلاص فيه

أنزل الله عز وجل كتابه الكريم ليعمل به ويوقف عند حدوده ويتحاكم إليه في صغير الأمور وكبيرها، وتكفل سبحانه لمن تمسك به الهداية والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾[2].

وقد جاءت أقوال السلف الصالح – رحمهم الله تعالى – المروية عنهم حاثةً على التمسك بالقرآن والسير على نهجه والتزام طريقه والعمل به، فمن ذلك أن جندب بن عبدالله البجلي خرج في سفر له، فخرج معه ناس من قومه حتى إذا كانوا بالمكان الذي يودع بعضهم بعضاً قال: «أي قوم، عليكم بتقوى الله، عليكم بهذا القرآن فالزموه على ما كان من جهد وفاقة، فإنه نورٌ بالليل المظلم وهدى بالنهار»، وعن زيد بن جبير قال: قال لي أبو البحتري الطائي: «اتبع هذا القرآن فإنه يهديك».

والمروي عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – في هذا المعنى والحث عليه كثير، من ذلك قوله: «إن هذا القرآن مأدبة الله في أرضه فمن دخل فيه فهو آمن»، أي: آمن من عذاب الله وعقوبته لمن خالفه، وهو آمن أيضاً من

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٧٤، ١٧٥.

فتن الشبهات والشهوات، وهو آمن أيضاً من الانحراف والزيغ والضلال، ولا يكون العبد من أهل القرآن حتى يتعلمه ويعمل به ويتلوه حق تلاوته، قال عمر - رضي الله عنه: «تعلموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله».

والمؤمن الصادق هو الذي ينظر حاله مع كتاب الله تعالى من حيث الإيمان التام والتصديق الجازم به، ومن حيث السمع والطاعة له والوقوف عند حدوده والعمل به، وبهذا انقسم الناس، وقد بين ذلك أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري - رضي الله عنه - بقوله: «إن هذا القرآن كائن لكم ذكرى وكائن لكم أجراً وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يُزخ في قفاه، فيقذفه في جهنم».

وبالتمسك بالقرآن فُسر قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، قال أنس بن مالك - رضي الله عنه: «هو القرآن»، وقال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه: «إن هذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره».

إن العمل بالقرآن الكريم والتحاكم إليه والسمع والطاعة لأوامره لا يكون إلا لمن علم معانيه وفهم ما دلت عليه آياته من أحكام وآداب، ومتى استبان معنى الآية وظهر له حكمها وجب العمل به، وما جهله سأل عنه أهل الذكر والعلم، وبهذا كان يتواصى سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - فعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: «كتاب الله ما استبان منه فاعمل به،

وما اشتبه عليك فآمن به وكله إلى عالمه»، وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «إن للقرآن مناراً كمنار الطريق، فما عرفتم فتمسكوا به وما اشتبه عليكم فذروه»، وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: «أما القرآن فمنار كمنار الطريق ولا يخفى على أحد، فما عرفتم منه فلا تسألوا عنه أحداً، وما شككتم فيه فكلوه إلى عالم».

ومما يعين على فهمه حتى يتيسر العمل به والتزامه العناية بمعرفة لغته التي نزل بها اللغة العربية، من حيث معاني مفرداتها وفهم غريبها والإلمام بقواعدها؛ لأنها معينة ولا شك على فهم المعنى، ولذلك قال الزركشي: «وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في هيئة الكلمة وصيغتها، ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً أو مفعولاً، أو في مبادئ الكلام أو في جواب إلى غير ذلك»(١)، والمروي عن سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - في الحث على تعلم اللغة العربية وإتقان قواعدها ومعرفة غريبها وأساليبها كثير، يقول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه: «لأن أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية»، وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «تعلموا إعراب القرآن كما تعلمون حفظه»، وروي عنه أيضاً قال: «تعلموا اللحن والفرائض كما تعلمون القرآن» وروي عنه أيضاً قوله: «عليكم بالتفقه في الدين، والتفهم في الدين وحسن العبارة».

ومما روي عن التابعين قول يحيى بن عتيق: قلت للحسن البصري: «يا أبا سعيد الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته،

(١) البرهان: ١/ ٣٠٢.

فقال: حسن يا ابن أخي فتعلمها، فإن الرجل ليقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها».

إن حب القرآن الكريم وتعظيمه والعناية به في جميع المجالات دليل صلاح العبد واستقامته وسلامة منهجه وطريقه، كما أنه دليل أيضاً على حبه الخير ومسارعته في مراضي الله عز وجل، كيف لا وهو يعتني بكلام سبحانه أعظم الكلام وأفضله، لذا فقد حملت سير سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - صوراً متعددة وأمثلة مباركة تدل على ما ذكرته، من ذلك ما ذكره الحسن البصري عن عامر بن عبد قيس الإمام المقرئ العابد بقوله: «كان عامر بن عبد قيس يصلي الصبح في المسجد، يقوم في ناحية منه، فيقول: من أقرئ؟ فيأتيه ناس يقرئهم القرآن حتى تطلع الشمس وتمكن الصلاة، فيقوم فيصلي الظهر، ثم يصلي حتى يصلي العصر، ثم يقوم إلى مجلسه من المسجد، فيقول من أقرئ؟ فيأتيه ناس فيقرئهم القرآن حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم يصلي حتى يصلي العشاء، ثم ينصرف إلى منزله، فيأخذ أحد رغيفيه من سلته فيأكله ويشرب عليه، ثم يضع رأسه فينام نومة خفيفة، ثم يقوم لصلاته، فإذا كان من السحر أخذ رغيفه الآخر فأكل وشرب، ثم خرج إلى المسجد».

وكانوا - رحمهم الله تعالى - في عنايتهم بكتاب الله جل وعلا يحرصون على كتمان ذلك وإخفائه عن الناس، يقول عبدالعزيز بن مروان: «وفدت إلى سليمان بن عبدالملك ومعنا عمر بن عبدالعزيز فنزلت على ابنه عبدالملك وهو عزب، فكنت معه في بيت فصلينا العشاء وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبدالملك إلى المصباح فأطفأه وأنا أنظر إليه، ثم قام يصلي حتى ذهب بي

النوم فاستيقظت وإذا هو في هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [(١)]. فبكى ثم رجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقتله البكاء، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عنه، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حساً»، وعن سفيان بن سعيد قال: «كان عمل الربيع بن خثيم سراً كله، حتى إن كان الرجل ليدخل عليه وهو يقرأ في المصحف فيغطيه»، وروي عن إبراهيم النخعي – رحمه الله تعالى – أنه كان يقرأ في المصحف فاستأذن عليه إنسان فغطاه وقال: «لا يرى هذا أني أقرأ في المصحف كل ساعة»، وهكذا كانوا رحمهم الله تعالى في إخفاء أعمالهم وكتمانها عن الآخرين حتى من أقرب الناس إليهم، عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧١﴾ [(٢)].

ومن ذلك ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام أن رجلاً أتى تميماً الداري – رضي الله عنه – فحدثه ساعة حتى استأنس به، فقال له: كم جزءاً تقرأ من القرآن؟ فغضب – رضي الله عنه – وقال: «لعلك من الذين يقرأ أحدهم القرآن في ليلة ثم يصبح فيقول: قرأت القرآن الليلة، فوالذي نفسي بيده لأن أصلي أربع ركعات نافلة أحب إلي من أن أقرأ القرآن في ليلة، ثم أصبح فأقول: قرأت القرآن الليلة».

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى: أنه قيل لعبدالله بن مسعود –

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٠٥-٢٠٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

رضي الله عنه – في رجل قال: قرأت البارحة كذا وكذا، فقال: «حظه من قراءته كلامه، أو قال: ذلك حظه من قراءته».

وقد روي عن الحسن البصري – رحمه الله تعالى – في هذا المعنى عدة آثار يحكي فيها حال من أدركهم من سلفنا الصالح في الإخلاص والبعد عن الرياء والشهرة، كقوله: «إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيرددها فإذا خشي أن تسبقه قام»، وقال أيضاً: «أدركت أقواماً ما كان أحدهم يستطيع أن يُسر عملاً فيعلنه، قد علموا أن أحرز العملين من الشيطان عملُ السر»، ولما قيل له: «ما عقوبة العالم؟ قال: موت القلب، قيل: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة».

وقد روى عنه بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ ﴾[1]، قوله: «إن الله يعلم القلب التقي والدعاء الخفي، إن كان الرجل قد جمع القرآن – أي حفظه وقرأه – وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور – جمع زائر – وما يشعر به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴾، وقد أثنى الله على زكريا فقال: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ ﴾[2] وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً».

إن إخلاص العمل لله سبحانه أحد شرطي قبول العمل، إذ لا يقبل

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣.

العمل إلا إذا كان خالصاً لله سبحانه صواباً موافقاً للكتاب والسنة، فما لم يكن خالصاً لله سبحانه رُد على صاحبه، والله غني عنه وعن عمله، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»، وروى أيضاً عنه – رضي الله عنه – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال جري فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن تنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جوادٌ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار**».

فقد تضمن الحديث الوعيد الشديد لمن يرائي بعمله ولا يخلص فيه لله سبحانه وهو الجواد المتفضل المنعم به عليه الموفق الهادي إليه، ولذلك ذكر بعض الشراح أن أبا هريرة كان إذا أراد التحديث بهذا الحديث جثى على ركبتيه وبكى تعظيماً لما دل عليه.

ومما جاء في السنة من التحذير والوعيد الشديد للمرائين بأعمالهم الصالحة وبخاصة ما يرتبط بالعلم وقراءة القرآن ما رواه أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»، وعرف الجنة ريحها، فإن ظهر العمل وبان للناس دون قصد وعمد من صاحبه فإن ذلك لا ينافي الإخلاص ولا يحبط العمل، وقد سئل عن ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو ذر – رضي الله عنه – قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه»؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» (رواه مسلم).

ولأهمية الإخلاص وبيان معناه جاءت عن السلف أقوال كثيرة فيه، تؤكد تحقيقه والتزامه واستحضاره في الأمور كلها، وتبين معانيه وعلاماته، قال ابن عباس – رضي الله عنهما: «إنما يحفظ الرجل على قدر نيته»، وروي هذا عن غيره بلفظ: «إنما يعطى الناس على قدر نياتهم»، وعن حذيفة المرعشي قال: «الإخلاص استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن»، ومثله ما روي عن القشيري حيث يقول: «أفضل الصدق استواء السر والعلانية».

ومن علامات الإخلاص قول ذي النون – رحمه الله تعالى: «ثلاث من علامات الإخلاص، استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة»، وقد اشتهر عن الإمام العابد الزاهد الفضيل بن عياض – رحمه الله تعالى – قوله: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما».

وصدق – رحمه الله تعالى – فإن المؤمن الكيس الصادق من يعمل الطاعات ويسارع في مراضي الله ويسابق في ميادين الصالحات طالباً ما عند الله راجياً ثوابه لا يريد مدحاً ولا ثناء من الناس ولا يطلب شهرة أو صرف أنظارهم إليه، فإن علم الناس بعمله واطلعوا على أحواله لم يزده ذلك إلا تواضعاً لله وانكساراً وذلاً بين يديه مع الاستمرار على ما هو عليه والازدياد منه، فإن ترك العمل من أجل الناس خلل ونقص عظيم، ونكوص على الأعقاب نسأل الله الثبات على دينه والإعانة على ذكره وشكره وحسن عبادته.

أخلاق أهل القرآن وسيماهم والواجب عليهم

إن لأهل القرآن وحملته هدياً وسمتاً تميزوا به عن غيرهم، لما تحملوه من شرف القرآن الكريم والعناية به، تلاوة وحفظاً تعلماً وتعليماً، فهماً لآياته ومعرفة لأحكامه، فهم أولى الناس بالخشية والتأثر، ورقة القلب ودمع العين، والخلق الفاضل والتعامل الحسن، والتمسك بالسنة والبعد عن الدنيا وعدم التعلق بها والمنافسة من أجلها.

عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: «إياكم والهذاذين الذين يهذون القرآن ويسرعون بقراءته، فإنما مثل ذلك كمثل الأكمة التي لا أمسكت ماء ولا أنبتت كلأ»، وقال ابن أبي مليكة: «صحبت ابن عباس – رضي الله عنهما – يعني في السفر – فإذا نزل قام شطر الليل يرتل القرآن، يقرأ حرفاً حرفاً، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب».

إن حامل القرآن حقاً من يصون ما تفضل الله به عليه من التوفيق لخدمة كتابه، فلا يتعلق بالدنيا ولا ينشغل بشهواتها ولذاتها عما هو مهيأ له وواجب عليه، وألا يجعلها في ناظره معيار السعادة والهناء، بل هي كما أخبر الله عز وجل عنها بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [1]، وقال تعالى:

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١).

وأخبر عنها النبي ﷺ فيما رواه عنه سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه – قال: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح). وعن عبدالله بن الشخير – رضي الله عنه – قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)، قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت**» (رواه أحمد والنسائي) . وغير ذلك من الأحاديث التي تبين حقيقة الدنيا وأحوال أهلها المتعلقين بها، وهذا ما فقهه السلف الصالح – رحمهم الله تعالى – الذين جعلوا القرآن ربيع قلوبهم ونور بصائرهم، فعرفوا لكل شيء قدره وأعطوه حقه، وتعاملوا معه على ضوء توجيهات القرآن لكريم وهداياته، الذي تكفل الله لمن استهدى به وسار على نهجه ألا يضل ولا يشقى في الدنيا والآخرة، يقول تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة التكاثر، الآية: ١.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[1]. وفي مقابل هذا يقول جل وعلا: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾[2].

ومن أمثلة ذلك في سير السلف الصالح وأقوالهم، قول سفيان بن عيينة: «من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾[3]. وقال: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[4]، يعني: القرآن».

وقال رجل لسليم بن عيسى القارئ المشهور أخص أصحاب حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة: «جئتك لأقرأ عليك بالتحقيق، فقال سليم: يا ابن أخي شهدت حمزة وأتاه رجل في مثل هذا فبكى، وقال يا ابن أخي، إن التحقيق صون القرآن، فإن صنته فقد حققته، وهذا هو التحقيق»، وعن أبي الأحوص قال: «إن كان الرجل ليطرق الخباء فيسمع فيه كدوي النحل – أي من قراءة القرآن – فما لهؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون».

ويعرض الحسن البصري – رحمه الله تعالى – أصناف القراء بقوله: «قراء القرآن على ثلاثة أصناف: صنف اتخذوه بضاعة يأكلون به، وصنف أقاموا

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٧.

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣١.

حروفه وضيعوا حدوده واستطالوا به على أهل بلادهم .. كثير هذا الضرب من حملة القرآن لا كثرهم الله، وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم، واستشعروا الخوف وارتدوا الحزن، فأولئك يسقي الله بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، والله لهذا الضرب من حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر».

وصدق – رحمه الله – فإن القراء بله الناس جميعاً على حال هذه الأصناف الثلاثة، منهم من اتخذ القرآن والسنة والعلم بهما بضاعة يتأكل بهما ولا يرى لهما عليه أثر، إنما هي ألقاب وأوصاف يترفع بها أمام الناس ويصرف بها أبصارهم إليه ويتشوف بها إلى المدح والثناء والسمعة والرياء. وصنف كان ما تعلموه من القرآن والسنة والفقه فيهما وبالاً عليهم، حين لم يعملوا بما تعلموه، وخالفوا ما عرفوه من الأوامر والنواهي، والنبي ﷺ يقول: «**والقرآن حجة لك أو حجة عليك**» (رواه مسلم) يقول أبو الدرداء – رضي الله عنه: «إن أخشى ما أخشاه يوم القيامة أن يقال يا عويمر أعلمت أم جهلت؟ فأقول: بل علمت، فيقال لي: فما ذا عملت فيما علمت».

أما الصنف الأخير فهم الموفقون بإذن الله، تلو القرآن حق تلاوته، وقاموا به آناء الليل وأطراف النهار، حكموه في شؤون حياتهم صغيرها وكبيرها، ساروا في دنياهم على ضوء هداياته وتوجيهاته، جمعوا به بين صلاح الظاهر والباطن، والخوف من الله عز وجل والرجاء فيما عنده، جعلوه ربيع قلوبهم ودواء أمراضهم وسبباً مباركاً في ذهاب همومهم وغمومهم.

قال الغزالي: «تلاوة القرآن حق تلاوته أن يشترك فيه اللسان والعقل

والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر، والانزجار والائتمار، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ» [١] .

إن مما يصرف القلب عن هدايات القرآن وأحكامه والتدبر في آياته التكلف في قراءته والتعسف في تلاوته وهذا منهي عنه، يقول أبو شامة المقدسي: «فأما ما يذهب إليه بعض أهل الغباوة من القراء من الإفراط في التمطيط والتعسف في التفكيك، والإسراف في إشباع الحركات، إلى غير ذلك من الألفاظ المستبشعة والمذاهب المكروهة فخارج عن مذاهب الأئمة وجمهور سلف الأمة، وقد وردت الآثار عنهم بكراهة ذلك» [٢] .

ومما روي عنهم في منهج أخذهم القرآن الكريم وتلقيه قول ابن عمر رضي الله عنه: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ، فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»، وقال عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه: «لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله»، وهو القائل يحكي حال الصحابة – رضي الله عنهم (إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به».

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٩٥.

(٢) الرشد الوجيز: ٢١١.

وقد فقه التابعون هذا المنهج في التعامل الحق مع القرآن الكريم، فألزموا به أنفسهم وروضوها عليه، ونقلوه إلى من بعدهم، مع حثهم على الالتزام به، يقول الحسن البصري: «إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»، وقال أيضاً: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراءُ مثل هذا»؟

عنايتهم بآداب حملة القرآن

كان لسلفنا الصالح عناية بآداب حامل القرآن وأخلاق أهله، إذ هم أهل الله وخاصته، والمروي عنهم في هذا كثير، حفلت به كتب التفسير والتراجم ومن كتب في فضائل القرآن، ومن خصه بالحديث عنه ككتاب أخلاق حملة القرآن للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الأجري المتوفى سنة ستين وثلاثمائة من الهجرة، وكتاب التبيان في آداب حملة القرآن للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة ست وسبعين وستمائة من الهجرة، وكتاب آداب تلاوة القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة، وغير ذلك.

والقدوة في هذا نبينا ﷺ الذي كان خلقه القرآن، روى مسلم في صحيحه من حديث سعد بن هشام، قال: «قلت لعائشة – رضي الله عنها: ما كان خلق النبي ﷺ؟ فقالت: قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾»(١). وعند أحمد وأبي داود والنسائي قالت: «كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه»، وصدق القائل:

يكفيك عن كل مدحٍ مدحُ خالقه ... واقرأ بربك مبدأ سورة القلم
شهم تشيد به الدنيا برمتها ... على المنائر من عرب ومن عجم

فالآداب الفاضلة والأخلاق الرفيعة أصلها وينبوعها القرآن الكريم، يقول عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه: «إن كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه،

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

وإن أدب الله عز وجل القرآن»، وقد اشتهر قوله: «ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون»، وروى عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - جملةً من الآداب التي يجب أن يتحلى بها حامل القرآن المعتني به، تعظيماً لكلام الله تعالى الذي يحمله، وتقديراً لمنة الله به عليه، قال - رضي الله عنه: «من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً، ولا ينبغي لصاحب القرآن أن يجهل فيمن يجهل، وفي جوفه كلام الله عز وجل»، وفي رواية قال: «لا ينبغي أن يلعب مع من يلعب، ولا يرفث مع من يرفث، ولا يبتطل مع من يبتطل - أي لا يكون بطالاً عابثاً كحال البطالين - ولا يجهل مع من يجهل».

إن الوصية لحملة القرآن بالعلم والعمل، والخلق والأدب، وإصلاح الظاهر والباطن لهم أكثر من غيرهم، لنعمة الله عليهم ومنته بحمل كتابه والتشرف بتلاوته وفهم آياته والعلم بأحكامه، ولذا كان السلف يخصونهم بمزيد توجيه وعناية، إذ هم القدوة لغيرهم ومحل النظر بين الأمة، قال عمر - رضي الله عنه: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على الناس»، وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: «يا حملة القرآن - أو يا حملة العلم - اعملوا به، فإن العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف علمهم عملهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً

يباهي بعضهم بعضاً»، وقال حذيفة بن اليمان: «يا معشر القراء استقيموا، فقد سبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً».

إن القرآن يملأ قلب صاحبه غنى عن غيره، وقناعةً به عمن سواه، كما أنه يملؤه ثباتاً ورسوخاً، وشجاعة وقوة، قال سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى: «من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألا تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[1]. وقوله أيضاً: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2]، وقوله أيضاً: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾»[3].

ومما جاء في سيرة سالم مولى أبي حذيفة وكان أحد الذين أمر النبي ﷺ أن تؤخذ عنهم القراءة لإمامته وإتقانه، أنه كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة ضد مسيلمة الكذاب فقيل له: «إنا نخاف عليك - كأنهم يعنون الفرار - فقال: فبئس حامل القرآن أنا إذاً» - رضي الله عنه.

قال الإمام الآجري - رحمه الله تعالى: «ألا ترون - رحمكم الله - إلى مولاكم الكريم، كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٢.

تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوة السورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»(١) ا.هـ.

ثم لما ذكر جملة من آداب حملة القرآن ونعوتهم التي يجب أن يتحلوا بها قال - رحمه الله تعالى: «جميعُ ما ذكرته ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به ولا يغفلوا عنه، فإذا انصرفوا عن تلاوة القرآن اعتبروا أنفسهم بالمحاسبة لها، فإن تبينوا منها قبول ما ندبهم إليهم مولاهم الكريم مما هو واجب عليهم من أداء فرائضه، واجتناب محارمه حمدوه في ذلك وشكروا الله على ما وفقهم له، وإن علموا أن النفوس معرضةٌ عما ندبهم إليه مولاهم الكريم قليلة الاكتراث به استغفروا الله من تقصيرهم، وسألوه النقلة من هذه الحال التي لا تحسن بأهل القرآن، ولا يرضاها لهم مولاهم إلى حال يرضاها، فإنه لا يقطع بمن لجأ إليه.

ومن كانت هذه حاله وجد منفعة تلاوة القرآن في جميع أموره، وعاد إليه من بركة القرآن كل ما يحب في الدنيا والآخرة»(٢).

ومما يجمل بأهل القرآن وينبغي لهم أن يطلعوا على أحوال من سبقهم من السلف الصالح - رحمهم الله تعالى، كيف كان منهجهم مع القرآن الكريم من جميع النواحي، وأن ينظروا في أحوالهم الحاضرة، فيروا البون الشاسع

---

(١) أخلاق حملة القرآن: ١٨.

(٢) أخلاق حملة القرآن: ٧٧.

والفرق الواسع بينهم، علَّهم أن يكونوا مثل ما كانوا عليه مع القرآن الكريم، والأمل في الله عظيم وحسن الظن به واجب، يقول القائل:

تشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

لكن مع بذل الأسباب والاجتهاد المتواصل، والحرص الدؤوب أن نسير على منهجهم وأن نقتدي بطرائقهم وأن نسلك مسالكهم مع القرآن الكريم.

الاستئكال بالقرآن وأخذ الأجرة عليه

كثر المروي عن سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - في التحذير من الاستئكال بالقرآن والتكسب به، وجعله مصدراً يستدرُّ به صاحبه الأموال والهدايا، ويتعيش عن طريقه؛ لأن في هذا الصنيع امتهاناً للقرآن وتنزيلاً من قدره في قلب صاحبه وقلوب الآخرين.

وقد جاءت السنة بالتحذير من هذا، فعن عبدالرحمن بن شبل - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه**»[(١)].

لذا فقد اشتد نكير الصحابة ومن تبعهم بإحسان على من سأل الناس بالقرآن أموالهم أو اتخذه مصدر تكسب وتعيش، عن فضيل بن عمرو قال: «دخل رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ مسجداً، فلما سلم الإمام قام رجل فتلا آيات من القرآن، ثم سأل، فقال أحدهما: إنا لله وإنا إليه راجعون، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيجيء قوم يسألون بالقرآن، فمن سأل بالقرآن فلا تعطوه**» وسنده منقطع فإن فضيل بن عمرو لم يسمع من الصحابة لكن رواه أحمد والترمذي من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - بلفظ «**من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس**» وهو حديث صحيح.

وغالباً ما يكون هذا التكسب مرتبطاً بالبدع التي ليس عليها دليل من

(١) رواه أحمد وأبو داود، ومعنى يتعجلونه: إما بالمال أو السمعة أو نحو ذلك.

الشرع، كمن يقرأ للميت في اليوم السابع من وفاته أو في الأربعين أو في المولد أو نحو ذلك، والواجب مناصحة هؤلاء القراء وتوجيههم، وكذا من يدعوهم ويقربهم ويجزل لهم العطايا ويغدق عليهم الأموال، فإنه والحالة هذه معين على الشر داعٍ إلى إحياء البدع وتمكينها في النفوس والبيوت، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»، وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر، رجلُ يباهي به، ورجلُ يستأكل به، ورجل يقرؤه لله عز وجل**».

ومما يرتبط بما سبق القول في أخذ الأجرة على تعليم القرآن وقراءته والرقية به ونحو ذلك، مما فيه أخذ الأجرة على القرب، حيث جاءت النصوص محذرةً من أن يعمل العبد طاعة مريداً بها الدنيا ومتاعها، قال تعالى: ﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾[2]. وقال جل وعلا: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ**

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[١].

ومما جاء في السنة من تحريم أخذ الأجرة على تعليم القرآن ونحوه ما رواه ابن ماجه عن أبي بن كعب – رضي الله عنه – قال: «علمت رجلاً القرآن فأهدى لي قوساً، فذكرت ذلك النبي ﷺ فقال: «**إن أخذتها أخذت قوساً من نار، فرددتها**»، ومنها الحديث السابق الذي رواه الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن شبل – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ بلفظ قال: «**اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به**»، وحديث عمران بن حصين – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**اقرؤوا القرآن واسألوا الله به فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس**» (رواه أحمد والترمذي).

ومن الأحاديث الدالة على تحريم طلب الدنيا بتعليم العلم والتحذير من ذلك ما رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**».

ولما دلت عليه النصوص السابقة فقد ذهب جماعة من السلف إلى تحريم أخذ الأجرة على تعليم القرآن والتحذير من ذلك ورفض ما يعطاه القارئ على ذلك، قال الإمام النووي: «وأما أخذه الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه، فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

عن جماعة من العلماء، منهم الزهري وأبو حنيفة»[(١)]، وممن روي عنه عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن الإمام التابعي المقرئ أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي، فقد دخل مرة داره فرأى جلالاً وجُزُراً فسأل عنها، فقالوا: بعث بها عمرو بن حريث؛ لأنك علمت ابنه القرآن، فقال: ردوها، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً»، وعن عطاء بن السائب قال: «كان رجل يقرأ على أبي عبدالرحمن، فأهدى له قوساً فردها، وقال: ألا كان هذا قبل القراءة».

وممن روي عنه المنع من أخذ الأجرة على تعليم القرآن ورفضها إن أعطيت إياه الإمام المقرئ حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة، ذكر عبدالله بن صالح العجلي – وهو أحد تلاميذه – أنه ختم عليه رجل من أهل حلوان، من مشاهيرهم، فبعث إليه بألف درهم، فقال لابنه: قد كنت أظن لك عقلاً، أنا آخذ على القرآن أجراً؟ أرجو على هذا الفردوس».

وممن يرى هذا الرأي الإمام المفسر أبو العاليه رفيع بن مهران الرياحي – رحمه الله تعالى – وكان يستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وكان يقول: «لا تأخذ على ما علمت أجراً، فإنما أجرُ العلماء والحكماء والحلماء على الله عز وجل».

وممن روي عنه أيضاً عدم أخذ الأجرة على تعليم القرآن الإمام التابعي مالك بن دينار – رحمه الله تعالى – فكان يعلم القرآن ولا يأخذ على ذلك أجراً، فإن أُرسل به تركه ولم يأخذه.

---

(١) التبيان: ٤٥.

ومن دقيق ورع السلف واحتياطهم لذممهم في هذه المسألة ما جاء في سيرة الإمام المقرئ أبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المشهور بابن عقدة المتوفى سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، حيث كان يؤدب ابن هشام الخزاز، فلما حذق الصبي وتعلم، وجه إليه أبوه بدنانير صالحة، فردها ابن عقدة، فظن ابن هشام أنه استقلها فأضعفها له، فقال: «ما رددتها استقلالاً، ولكن سألني الصبي أن أعلمه القرآن فاختلط تعليم النحو بتعليم القرآن، ولا أستحل أن آخذ منه شيئاً ولو دفع إلي الدنيا».

ومن العلماء من رأى جواز ذلك، قال الإمام النووي: «وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه، وهو قول الحسن البصري والشعبي وابن سيرين، وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها، إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة» [1] ا.هـ.

ومن هذه الأحاديث الصحيحة ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: «انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعلهم أن يكون عندهم بعض شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحدكم من شيء؟ فقال بعضهم: إني والله لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً،

---

(١) التبيان، ٤٥.

فصالحوهم على قطيع من غنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة – أي مرض – قال: فأوفوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا ، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فننظر الذي يأمرنا، فقدموا على النبي ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: «**وما يدريك أنها رقية، ثم قال: أصبتم، اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً**». وضحك النبي ﷺ.

ومما يدل على الجواز أيضاً ما ثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «**هل عندك من شيء تصدقها إياه**»؟ قال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال النبي ﷺ: «**إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً**» فقال: ما أجد شيئاً، فقال: التمس ولو خاتماً من حديد، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «**هل معك من القرآن شيء**»؟ قال نعم: سورة كذا وسورة كذا، لسور يسميها، فقال له النبي ﷺ: «**قد زوجتكها بما معك من القرآن**» وفي رواية متفق عليها: «**قد ملكتكها بما معك من القرآن**».

قال المجيزون: هذا الحديث دال أيضاً على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن فإن النبي ﷺ أجاز أن يكون تعليمها القرآن مهراً لها، وهذا هو الراجح.

ومما جاء النهي عنه الفخر بالقراءة والمراءاة بالتلاوة، أو الفجور حال

المخاصمة بالقرآن، وتأويله على خلاف ما فهمه سلفنا الصالح، وتحميل الآيات ما لا تحتمله من المعاني الباطلة والتكلفات المردودة، فقد بوَّب البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن باب إثم من راءى بقراءة القرآن وتأكل به أو فجر به وحكى ابن التين رواية أخرى: أو فخر به.

وذكر البخاري فيه ثلاثة أحاديث أحدها: عن علي - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يأتي في آخر الزمان قومٌ حدثاءُ الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة**»، والثاني: حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»، الحديث، الثالث: حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب، ولا ريح لها، ومَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر**».

قال الحافظ ابن كثير: «ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب، كما جاء في الحديث: «واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه» يعني: القرآن، والمذكورون في حديث علي وأبي سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد

قال في الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم وصلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم»، ومع هذا أمر بقتلهم؛ لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك.

إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[1]، والمنافق المشبه بالريحان التي لها ريح وطعمها مر هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾»[2][3].

وقال الحافظ ابن حجر: «ومناسبة هذين الحديثين للترجمة أن القراءة إذا كانت لغير الله فهي للرياء أو للتأكل به ونحو ذلك، فالأحاديث الثلاثة دالة لأركان الترجمة؛ لأن منهم من راءا به وإليه الإشارة في حديث أبي موسى، ومنهم من تأكل به وهو مخرج من حديثه أيضاً، ومنهم من فجر به وهو مخرج من حديث علي وأبي سعيد – رضي الله عنهما – وقد أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن من وجه آخر عن أبي سعيد وصحح الحاكم رفعه: «تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر، رجلٌ يباهي به، ورجلٌ يستأكل به، ورجل يقرؤه لله»[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٣) فضائل القرآن: ١٠٨.

(٤) فتح الباري ٩/ ١٠٠.

تحذير السلف من اتباع الهوى

كثرت النصوص من الكتاب والسنة والمروي عن السلف الصالح – رحمهم الله تعالى – في ذم الأهواء المضلة والتحذير من اتباعها، لما لها من آثار سيئة وعواقب وخيمة على أصحابها في الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما خاطب الله تعالى به نبيه داود – عليه السلام – بقوله: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وقد حذر الله من الوقوع فيه واتباع أهله نبيه وصفيه من خلقه نبينا وقدوتنا ﷺ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[4]، وقال تعالى مخاطباً عباده المؤمنين أن يحذروا من الهوى بجميع صوره وأشكاله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ ﴾[5].

ومن صور التحذير من اتباع الهوى والبعد عن أهله ما جاء في قوله

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾[(١)]، فقد أخبر تعالى أنه لا أحد أضل ممن يتبع هواه بغير هدى ولا علم، وهذا حال الظالمين الضالين، قال تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[(٢)]. وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[(٣)].

وفي موضعين آخرين من القرآن بيّن جل وعلا أن الهوى إله يعبده أصحابه من دون الله، وذلك باتباعه وطاعته وعدم مخالفته، بعد أن أعمى بصائرهم وطمس على قلوبهم، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[(٥)].

أما الأحاديث التي في ذم الهوى وبيان خطورته والتحذير منه فكثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي برزة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**»، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وقد عده – عليه الصلاة والسلام – من المهلكات متى اتبعه صاحبه وانقاد له، فقال: «ثلاث منجيات، خشية الله تعالى

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات، هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه» (رواه أبو الشيخ والطبراني في الأوسط بسند صحيح).

والمروي كثير عن السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - في التحذير من اتباع الهوى وذم أهله والبعد عن مجالسهم وسماع كلامهم والنظر في كتبهم، سلامة لدينهم وحفاظاً على إيمانهم وعقيدتهم، ونصحاً للأمة وأداء للأمانة، وهم في هذا يستدلون بآي الذكر الحكيم بفهم صحيح ونظر ثاقب، وذلك لما اعتنوا بكتاب الله جل وعلا، وساروا في حياتهم وفق توجيهاته واتباع تعاليمه، والاستهداء بهداياته ودلالاته.

من ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان، طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق»، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما: «لا تجالسوا أصحاب الأهواء، فإنهم يمرضون القلوب»، وعن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - قال: «اتهموا أهواءكم ورأيكم على دين الله، وانتصحوا كتاب الله على أنفسكم».

وفي بيان أضرار مجالسة أصحاب الأهواء وآثارها السيئة على العبد في دينه وتمسكه وخلقه يقول أبو قلابة - رحمه الله تعالى: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»، وقال إبراهيم النخعي: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين».

وكان السلف - رحمهم الله تعالى - يتواصون على هذا، فيحذرون طلابهم وغيرهم من مجالسة أهل الأهواء، معتمدين في توجيهاتهم على النصوص من الكتاب والسنة، شفقة على غيرهم وحباً لهم، قال عبدالرحمن بن عمر: ذكر عند ابن مهدي قوم من أهل البدع واجتهادهم في العبادة، فقال: «لا يقبل الله إلا ما كان على الأمر والسنة، ثم قرأ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾(١)، فلم يقبل ذلك منهم ووبخهم عليه، ثم قال: الزم الطريق والسنة، وسمعت عبدالرحمن يكره الجلوس إلى أصحاب الرأي وأصحاب الأهواء، ويكره أن يجالسهم أو يماريهم»، وذكر عنده مرة أصحاب رأي وهوى، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢).

والأصل في الهوى أنه ميل النفس إلى ما تهواه، فإن مالت إلى ما يخالف الشرع والدين فهو الهوى المذموم، وإن مالت إلى ما يوافق الشرع فهو الممدوح، وإذا ذكر الهوى مطلقاً أو ذكر ذمه فهو الهوى المذموم؛ لأنه الغالب، والله المستعان.

وهذا الهوى المذموم قد يكون شبهة وقد يكون شهوة، وقد ذكر أهل العلم - رحمهم الله - أن فتنة الشبهات أعظم وأشد خطراً من فتنة الشهوات؛ لأن الشبه إذا تواردت على القلب أضعفته وصرفته عما يدين الله به أو يعتقده إلى غيره، وقد لا يقتنع بشرع الله ولا يسلم لأمر الله ويرضى بدينه

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٧.

وشرعه، أما فتنة الشهوات فتكون في الأمور المحرمة كالفاحشة وشرب الخمر وشهوة جمع المال من غير حله، فالحلال ما حل بيده من أي سبيل كان.

قال الإمام الشاطبي: «ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك» (١)، وقال الحافظ ابن رجب – رحمه الله تعالى: «وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله ﷺ ومحبة ما يحبه» (٢).

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – خطر فتنة الشبهات فيقول: «واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾ (٣)، ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يُجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلمُ بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ» (٤).

---

(١) الاعتصام: ٢/ ١٧٦.

(٢) جامع العلوم والحكم: ١/ ٣٩٠.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٠.

(٤) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣٣، الاستقامة: ٢/ ٢٢٤.

إن أحدنا لا يبرئ نفسه ولا غيره من اتباع هواه ومجاراته، وتقديمه عما هو واجب عليه فعله أو سلوكه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى: «المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»[(١)]، فمظاهر اتباع الهوى في واقعنا كثيرة جداً يرى ذلك من قلب طرفه في أحوال الناس وأصغى إلى سماع أقوالهم ونظر في تصرفاتهم وأحكامهم، فكم لهذا من آثار سيئة وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، من أهمها:

أولاً: أن اتباع الهوى سبب عظيم لفساد الأمور كلها في جميع المجالات، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[(٢)]، فالفساد المذكور في الآية عام شامل لجميع أحوال الناس، في عقيدتهم وتصوراتهم وسلوكياتهم، واضطراب الموازين والمعايير عندهم، وجنوحهم إلى طرق الشر والضلال وتنكبهم عن الهدى والاستقامة، يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[(٣)].

ثانياً: أن اتباع الهوى والانقياد له سبب الهوان والذلة في الدنيا والآخرة، وقد حكى الله عز وجل لنا قصة الذي أوتي علماً وهدى فتنكب عنه وأعرض عن التشرف بحمله وتبليغ أمانته للناس، فكان حاله كالحيوان يقول تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ

---

(١) الوابل الصيب: ٥٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.

مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[1]، فهذا الرجل أوتي علماً فرضي بالدنيا وأخلد إليها ونافس الناس فيها، مقدماً هواه متبعاً إياه في كل شيء فكان ما قص الله من جزائه وسوء عاقبته.

ثالثاً: أن اتباع الهوى سبب فساد الرأي والفكر، والوقوع في التناقض والاضطراب، فصاحبه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما وافق هواه ولم يخالف رغبته، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه».

رابعاً: أن اتباع الهوى وتقديمه على أوامر الله موجب للعقوبة من الله عز وجل؛ لأنه يؤدي بصاحبه إلى تزيين الباطل وتحبيبه له ولغيره، كما أنه يزهده في الحق فيطبع على قلبه، فلا يتعظ بموعظة ولا

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

يرعوي لنصيحة، وهذا علامة الخذلان، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [(١)]، بل إن اتباع الهوى وتمكنه من قلب صاحبه يجعله منافحاً عن الباطل مبرراً قبول المعصية وتزيينها مخالفاً للصواب مضاداً للحق، ولذلك قال علي – رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق».

خامساً: أن اتباع الهوى سبب في البعد عن السنة واستبدالها بالبدعة، ولذا قال أبو عثمان النيسابوري: «من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾» [(٢)].

إن المؤمن الصادق المنصف من نفسه يعلم أنه واقع في شيء من تلك الأهواء، ويرى هذا من نفسه قليلاً أم كثيراً، ولا شك أن مجاهدة الهوى ومغالبته أمرٌ صعب على النفوس، كما قال أبو العتاهية:

أشد الجهاد جهاد الهوى ... وما كرم المرء إلا التقى
وأخلاق ذي الفضل معروفة ... ببذل الجميل وكف الأذى

لذا كان الخوف من الله ومنع النفس هواها موجباً لدخول الجنة بفضل

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

الله ورحمته، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[(١)]، ومع أن جهاد الهوى صعب وعسير إلا أن في قهره ومجاهدته لذة وعزة تحدو الإنسان إلى الاستمرار في مجاهدة هواه ومغالبته وتسهلها عليه، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[(٢)].

قال بشر الحافي: «من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب، واعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه»، وقيل ليحيى بن معاذ «من أصح الناس عزماً؟ قال: الغالب لهواه».

وقد ذكر أهل العلم – رحمهم الله تعالى – أموراً يكون بها علاج الهوى ومدافعته، من ذلك:

١ -خشية الله ومراقبته في القول والعمل والسر والعلن، وتحري الصدق والعدل مع الأقربين والأبعدين، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[(٣)].

٢ -استحضار عواقب اتباع الهوى وآثاره السيئة في الدنيا والآخرة، قال ابن الجوزي – رحمه الله – في ذكر علاجه: «أن يفكر في عواقب

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

الهوى، فكم قد أفات من فضيلة، وكم قد أوقع في رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكرٍ مع إثم، غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى»[(١)].

٣ -أن يعود نفسه مخالفة هواها ويأخذ بزمامها ويروضها على قبول الحق والعمل به وترك المعاصي والبعد عن الآثام، قال تعالى:﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾** ﴾[(٢)].

٤ -الإكثار من مجالسة أهل التقى والصلاح، فإن مجالسهم تذكر بالله والدار الآخرة وتزيد الإيمان وتعين على الطاعة، وفي المقابل يبتعد عن مجالس أهل الشر وأصحاب الأهواء، فإن المرء على دين خليله، جاء أحدهم إلى الحسن البصري فقال من أصاحب؟ قال: صاحب من إذا رأيته ذكرك الله.

وأعظم علاج للتغلب على الهوى دعاء الله سبحانه والتضرع إليه أن يجنبه الهوى ومضلات الفتن، ويسأله كلمة الحق والعدل في كل أموره، يستن في ذلك بأدعية النبي ﷺ ومنها: «**اللهم اهدني وسددني**» (رواه مسلم). وقوله: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»، وقوله: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**» (رواه الترمذي بسند صحيح).

---

(١) ذم الهوى: ١٢.

(٢) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.

هدي النبي ﷺ في التأثر بالقرآن

إن خير من تلا كتاب الله عز وجل وتغنى به فكان أجمل الناس صوتاً بذلك رسول الله ﷺ، وهو خير من تدبره وتأثر به وتأمل فيه، وهديه في ذلك أكملُ هدي وأتمه، فهو القدوة والأسوة، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[2].

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى: «والمقصود أن بحسب متابعة الرسول ﷺ تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أنه بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة، وقد أقسم ﷺ بأنه «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» (رواه مسلم).

وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، بل يجب عليه أن يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ويسلم له تسليماً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[١][٢]»ا.هـ.

وما شقي فئام من الناس رجالاً ونساء وضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت مع توافر النعم وسعة الأرزاق إلا بسبب انحرافهم عن نهجه وتنكبهم عن طريقه، فلن يُصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها من اتباع القرآن العظيم وسنة النبي الكريم – عليه أفضل الصلاة والسلام.

يقول ابن القيم – رحمه الله: «ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورةٍ إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي عل أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه – عليه الصلاة والسلام – ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) زاد المعاد: ١/ ٣٧-٣٨.

بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[١].

ومن هديه ﷺ الذي يستنار به ويسار على ضوئه وطريقه هديه في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه عند قراءته وسماعه أو تحسين الصوت به، فقد كان له عليه الصلاة والسلام حزبٌ من القرآن يقرؤه ولا يخل به، وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون له حزب يقرؤه من القرآن، لا يتركه قلَّ أم كثر، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ولذا قيل: من لم يكن له حزب من القرآن لم يختم القرآن، بل تمر عليه الأيام والليالي والشهور والأعوام وقد أضاع نصيبه من تلاوة القرآن، وفرط في كنز عظيم من الحسنات، والمحروم من حرم خير الله عز وجل.

وكانت قراءته ﷺ ترتيلاً لا هذاً ولا عجلة، بل قراءةً مفسَّرة، حرفاً حرفاً، وكان يقطع قراءته آية آية، فيقف عند رؤوس الآي، وكان يستعيذ بالله عز وجل من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وربما قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه، وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، فقد أمر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه حين بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[٢].

وكان يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومتوضئاً ومحدثاً، ولم يكن

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

يمنعه من قراءته إلا الجنابة، وكان ﷺ يتغنى بالقرآن مع جمال صوته – عليه الصلاة والسلام – به، إذ لم يكن أحدٌ أندى ولا أحسن صوتاً منه – عليه الصلاة والسلام – وهو القائل: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به**» (رواه البخاري)، وهو القائل: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» (رواه أبو داود وإسناده صحيح)، وروى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**».

والمراد بالتغني هنا ما اقتضته طبيعة القارئ وسمحت به دون تكلف ولا تشدد، مع ما يستطيعه من تزيين وتحسين محمود، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: «**لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً**» (رواه أحمد والنسائي)، فهذا هو الذي يتأثر به القارئ والسامع.

وهذه بعض الأمثلة من هديه ﷺ في تلاوته للقرآن وتحسين صوته به مع التأثر بآياته، فقد روى مسلم والنسائي وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم: ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1]. وقول عيسى بن مريم: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾** ﴾[2]. فرفع يديه فقال: «**اللهم أمتي أمتي وبكى**»، فقال الله: «**يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**»، وروى ابن

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

أبي شيبة وأحمد والنسائي عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركعُ بها ويسجد بها، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، قال: «**إني سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً**».

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ** ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[(١)]»، ولذلك قال الحسن البصري: «من وُسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه يُنظر له فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾، ثم قال: مُكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا».

وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: «كان النبي ﷺ في سفر فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾[(٢)]، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه»، وروى الإمام أحمد والطيالسي

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٢) سورة التين، الآية: ١.

وغيرهما عن عبدالله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ وهو يقول: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك، إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت**». وفي صحيح مسلم قصة خروج رسول الله ﷺ من بيته ولقائه بأبي بكر وعمر، قد أخرجهم الجوع، فاستضافهم الأنصاري فرحاً بهم، قائلاً: ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، فجاء بعذق فيه بسرٌ وتمر ولحم شاة، فأكلوا وشربوا فلما شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة**».

أبو بكر الصديق – رضي الله عنه

لقد كان تأثر السلف الصالح من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان بالقرآن الكريم شاملاً لجميع أنواع التأثر به، حيث البكاء والخشية من الله سبحانه وتعالى، وتعظيم حرمات الله سبحانه والوقوف عند حدوده، والعمل بأوامره واتباع توجيهاته وتشريعاته، والحرص على إصلاح الظاهر والباطن به، وتزكية النفوس وتربيتها على نهجه وتوجيهاته، فكانت حياتهم كلها في رحاب القرآن الكريم، فعاشوا وسعدوا في ظلاله وأدركوا هديه فعملوا به وحكموه في كل أمور حياتهم، وقدموه على حظوظ النفس ودواعي الهوى وزخرف الدنيا الفاني.

ولعلنا باطلاعنا على هذه النماذج المشرفة والصور الحية الطيبة، من حياتهم نترسم خطاهم ونشحذ بها همم المسلمين، وأن نعود بالأمة إلى ما كان عليه سلفها الصالح من تلاوةٍ للقرآن وحفظه وتدبره والتأثر به، فإنهم قد تلقوا القرآن الكريم من الرسول القدوة – عليه الصلاة والسلام – مدركين مدى الشرف الذي حباهم الله به، فجعلوه غذاء أرواحهم وقوت قلوبهم وقرة أعينهم، فطهرت به نفوسهم وصلحت به أحوالهم.

فمن هؤلاء أبو بكر عبدالله بن أبي قحافة صديق هذه الأمة، أول من آمن بالنبي ﷺ وصدقه، يقول – عليه الصلاة والسلام: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» (رواه البخاري ومسلم)، والقائل: «**ما لأحد عندنا يد إلا كافأناه، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة**» (رواه الترمذي).

كان – رضي الله عنه – رجلاً بكاء، سريع الدمعة حين يقرأ القرآن، أو يقوم في الصلاة، فلما أمر – عليه الصلاة والسلام – أن يؤم الناس بالصلاة، قالت عائشة: «يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق»، وفي بعض الروايات «رجل أسيف إذا قام مقامك لا يسمع الناس قراءته من كثرة البكاء» (رواه مسلم)، وكان ندي الصوت حسن التلاوة فيه رقة وخشوع، ولذلك لما كان في جوار ابن الدغنة قالت قريش – لما أفزعها تأثر النساء والصبيان بتلاوته – مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن بالصلاة والقراءة في غير داره، ففعل أبو بكر، فازدحم عليه نساء المشركين وأبناؤهم يستمعون تلاوته متأثرين ببكائه ورقته وعذوبة صوته، فأرسلوا إلى ابن الدُّغُنَّة، فأخبروه الخبر، فقال له ابن الدغنة: يا أبا بكر قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في عقد رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله ﷺ.

ويذكر أبو بكر حاله وحال أصحابه مع رسول الله ﷺ حين قدم أهل اليمن في زمانه وكانت لهم رقة في قلوبهم، فلما سمعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال أبو بكر: هكذا كنا ثم قست القلوب.

وعن زيد بن أرقم أن أبا بكر استسقى فأتي بإناء فيه ماءٌ وعسل، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله، فسكت ثم عاد فبكى حتى ظنوا ألا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وكف عن البكاء، فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ فقال: كنت مع النبي ﷺ وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول:

«**إليك عني إليك عني**» ولم أرمعه أحداً، فقلت يا رسول الله، أراك تدفع عنك شيئاً، ولا أرى معك أحداً؟ فقال ﷺ: «**هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها: إليك عني، فتنحت وقالت: أما والله لئن انفلت مني لا ينفلت مني من بعدك، فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني**».

إن من توفيق الله لعبده أن يرزقه الحكمة والثبات وحسن الاستدلال بكتاب الله عز وجل والتذكير بآيات الله وسنة رسوله ﷺ في الفتن والمشتبهات، والنوازل والمعضلات، وهذا ما كان لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه – لما توفي النبي ﷺ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن أبا بكر – رضي الله عنه – خرج حين توفي رسول الله ﷺ وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر فقال: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، إن الله تعالى قال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾[1]، قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله عز وجل أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما نسمع بشراً من الناس إلا يتلوها، وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فقعدت حتى ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها، أن رسول الله ﷺ قد مات.

وكانت وصاياه وخطبه – رضي الله عنه – من هدايات ودلالات آيات

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

القرآن الكريم، وفي رحابه وظلاله، فمن خطبه قوله: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله تعالى أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (١)، ثم اعلموا عباد الله أن الله تعالى اشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم، لا تفنى عجائبه، ولا يُطفأ نوره، فصدقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستبصروا فيه ليوم الظلمة».

ومن خطبه قوله: «ثم تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟ أين الملوك الذين كانوا أثاروا الأرض وعمروها؟ قد نسوا ونسي ذكرهم، فهم اليوم كلا شيء، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾ (٢). وهم في ظلمات القبور، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٣)، وأين من تعرفون من أصحابكم وإخوانكم؟ قد وردوا على ما قدموا، فحلوا الشقوة والسعادة، إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره».

وكان لا يغيب عنه القرآن والحث على الاستدلال به حتى في احتضاره، فإنه لما حضره الموت تمثلت عائشة بهذا البيت:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٢.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٨.

أعاذلُ ما يغني الحِذارُ عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فقال أبو بكر: ليس كذلك يا بنية ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [1]، ثم قال: انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما، ثم كفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

(١) سورة ق، الآية: ١٩.

عمر بن الخطاب – رضي الله عنه

إن الله تعالى قد شرف الصحابة – رضي الله عنهم – بصحبة نبينا ﷺ، ورؤيته وملازمته، ونصرته ومؤازرته والذب عنه وعن دينه، ودعوة الناس بعد ذلك إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وكانوا لهم أسوةً وقدوة في ذلك، روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا له فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

وفي مجال التأثر بالقرآن الكريم ضربوا أروع الأمثلة والسير العطرة، في امتثال ما جاء فيه والحذر مما نهى عنه، والحرص على إصلاح الظاهر والباطن به، مما أورثهم رقةً في قلوبهم وخشيةً من معبودهم، وبكاء وحزناً في خلواتهم وصلواتهم.

من هؤلاء عمر بن الخطاب فاروق هذه الأمة، أعز الله به الإسلام، كان الشيطان يفرق منه ويخاف، إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقاً آخر.

كان وقافاً عند كتاب الله عز وجل لا يتجاوزه أو يتعدى حدوده، روى البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه:

يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، فأذن له عمر، فدخل عليه فقال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[1]، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل»، قال جعفر الصادق: «أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق منها».

إن استشعار المؤمن عظمة القرآن الكريم ومنة الله به على خلقه، نوراً وهدى، ضياءً وشفاء، يعود عليه بمحبته وتعظيمه، والسير على نهجه وسلوك طريقه، والاستغناء به عن غيره، والمحروم من حرم خير الله، وهذا ما فقهه عمر – رضي الله عنه – وغيره، وكان يذكر به أصحابه وعماله ويغرسه في قلوبهم، ويتعاهده بكل رعاية وعناية، ذكر بعض المفسرين عند تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2]، أن عمر أتي بغنائم كثيرة من المال والأنعام والرقيق والمتاع، فوقف عماله يعدونها ويحصونها فتعبوا من كثرتها، فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين هذا فضل الله ورحمته، فقال عمر: أخطأت، القرآن هو فضل الله ورحمته، ثم تلا الآية: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وأشار بإصبعه إلى الغنائم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٥٧، ٥٨..

وكان – رضي الله عنه – يتعاهد قلبه وقلوب أصحابه بالقرآن، يذكرهم الله والدار الآخرة، فكان إذا جلس مع أصحابه نادى أبا موسى الأشعري فقال: يا عبدالله بن قيس ذكرنا ربنا.

وكان – رضي الله عنه – رقيق القلب شديد التأثر بآيات الله عز وجل سريع الدمع، «وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي» (رواه الترمذي)، فكان إذا قرأ سورة يوسف في صلاة الفجر لا يُسمع أواخر الصفوف قراءته من كثرة بكائه وغلبته عليه، وبخاصة حين يقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1]، وقرأ ذات يوم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[2]، فبكى ولزم بيته متأثراً بها، والناس يظنون أن به مرضاً، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء.

إن فقه القرآن الكريم وحسن الاستدلال به وإدراك هداياته ودلالاته علامةُ خير ورشد للعبد وهو من توفيق الله لعبده وإحسانه إليه، دخل عمر المسجد ذات يوم فسمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين، فقال عمر: يا عبدالله من الأقلون قال: أما سمعت الله يقول:﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[3]. ويقول: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[4]، ويقول: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ٨-١٠.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.

﴿ ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[(١)]، فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر، وهذا من كريم تواضعه ولين جانبه.

إن تزكية النفوس وتطهيرها، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، إنما يكون بآيات الذكر الحكيم مع مجاهدة النفس ومحاسبتها وأطرها على طاعة الله، ولو خالف بذلك شهواتها ورغباتها، وبهذا تكون الوصية والنصيحة، يقول عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالك قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا نفسكم، وتهيئوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾[(٢)]».

ويقول: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله، لولا أن أضع جبهتي لله، أو أجلس في مجالس ينتقى فيها طيب الكلام كما يُنَقَّى جيد التمر، أو أن أسير في سبيل الله عز وجل».

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: سألت عمر – رضي الله عنه: «لأي شيء سميت الفاروق؟ فقال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدري للإسلام، فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما في الأرض نسمة أحب إلي من نسمة رسول الله ﷺ، وسماني الفاروق، فرق الله بي بين الحق والباطل».

وخطب الناس ذات يوم فقرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

﴿بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١]، فقال: «استقاموا والله بطاعة الله، ولم يروغوا روغان الثعالب»، وكانت أثار هذه التربية في ظلال القرآن الكريم ورحابه ظاهرةً عليه – رضي الله عنه – في كل شأن من شؤون حياته، ويسأل الله الثبات والزيادة من فضله، يقول حبيب بن صهبان الكاهلي كنت أطوف بالبيت وعمر بن الخطاب يطوف ما له إلا قول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٢].

وكان له ورده من ذكر الله عز وجل وقيام الليل، وهو القائل: «عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء»، وتقول إحدى نسائه: كان عمر يصلي العشاء ثم يأمر أن نضع عند رأسه توراً فيه ماء، فيعار – أي فيستيقظ من الليل – فيضع يده في الماء، فيمسح وجهه ويديه ثم يذكر الله عز وجل، حتى يغفو ثم يتعار، حتى تأتي الساعة التي يقوم فيها للصلاة والقيام».

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

عثمان بن عفان - رضي الله عنه

من صور تأثر الصحابة - رضي الله عنهم - بالقرآن الكريم وعملهم بآياته في حياتهم العامة والخاصة، تزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم على منهج القرآن الكريم وفي ظل توجيهاته ما كان لعثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين، ذي النورين وصاحب الهجرتين - رضي الله عنه.

كان من الذين ﴿ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، كان ممن ﴿هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾[2]، غالب أحواله الكرم والحياء والخوف والرجاء، حظه من النهار الجود والصيام، ومن الليل السجود والقيام.

كان - رضي الله عنه - مكباً على تلاوة القرآن الكريم، لا يفتر عنه إلا لحاجةٍ أو عمل، وذلك دلالة حبه له، وطهارة قلبه عما يشغله عنه، لما قيل له في ذلك قال: «لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كتاب الله عز وجل»، كان - رضي الله عنه - على هدي من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، مستجيباً لنداء الله مسارعاً في كل خير، مسابقاً في كل بر وإحسان وهذه بعض أقوال الصحابة في تأثره بالقرآن وتطبيقه آياته، قال محمد بن حاطب: «ذكروا عثمان بن عفان، فقال الحسن بن علي: الآن يجيء أمير المؤمنين، قال: فجاء علي، فقال علي: كان عثمان من الذين ﴿ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾».

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[1]. قال: «هو عثمان بن عفان»، وعنه أيضاً قال: «ثلاثة من قريش، أصبح الناس وجوهاً وأحسنها أخلاقاً وأثبتها حياء، إن حدثوك لم يكذبوك وإن حدثتهم لم يكذبوك، أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح».

إن لآيات القرآن الكريم تأثيراً ظاهراً وباطناً على أهل القرآن، حيث تعظيم الله عز وجل وخشيته، والخوف منه والحذر من عقابه، ولين القلوب وتعلقها بالله عز وجل، مع البكاء من خشية الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

وهذا ما كان لعثمان بن عفان – رضي الله عنه – فقد كان لين القلب سريع الدمع، يطيل القيام والسجود، تذللاً وإنكساراً بين يدي ربه عز وجل، وتلك حال يحبها الله ويرضاها من عبده، وكان للإيمان باليوم الآخر بدءاً من الموت – لأن من مات فقد قامت قيامته – وحتى الانصراف بين يدي الله عز وجل فريق في الجنة وفريق في السعير وما بينهما من القبر وظلماته والقيامة وأهوالها وعرصاتها، كان بهذا يتأثر وله يستعد، عن هانئ مولى عثمان قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له فقال: «**القبر أول**

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» وفي رواية أنه قال: «**ما رأيت منظراً أفظع إلا والقبر أفظع منه، وإن القبر لأول منزلة ينزلها العبد من منازل الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار**».

هذا في جانب الخشية والخوف من الله عز وجل، أما في جانب الأخلاق فقد تربى على يد الرسول الكريم ﷺ الذي كان خلقه القرآن، فاستهدى بهديه وسار على نهجه، كان - رضي الله عنه - حيياً والحياء كله خير، يقول - رضي الله عنه - عن نفسه: «وايم الله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، وما ازددت في الإسلام إلا حياء».

وكان - رضي الله عنه - جواداً كريماً سخياً، استجابة لنداء الله عز وجل: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤** ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥** ﴾[2]، وغير ذلك، يقول أبو هريرة - رضي الله عنه: «اشترى عثمان بن عفان من رسول الله ﷺ الجنة مرتين، حين حفر بئر رومة، وحين جهز جيش العسرة».

وعن عبدالرحمن السلمي قال: «خطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان: علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حث فقال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها قال ثم حث فقال عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، فرأيت النبي ﷺ يقول بيده ويحركها: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذا**» (رواه الخلال في السنة)، وعن عبدالرحمن بن سمرة قال كنت مع النبي ﷺ في جيش العسرة، فجاء عثمان بألف دينار، فنثرها بين يدي رسول الله ﷺ ثم ولى، قال فسمعت رسول الله ﷺ وهو يقلب الدنانير يقول: «**ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم**» (رواه أبو نعيم في حلية الأولياء).

وكان عثمان – رضي الله عنه – مع هذا الثراء وكثرة المال، والجاه بكونه أمير المؤمنين متواضعاً لين الجانب طلق الوجه، حسن المعاملة مع الخادم والأجير والمسكين والفقير، يُجلل هذا زهد وورع وعدم تعلق بالدنيا، يقول الحسن البصري: «رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة، ليس حوله أحد، وهو أمير المؤمنين» وفي رواية قال: «رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد، وهو يومئذ خليفة، قال: ويقوم وأثر الحصى بجنبه، قال فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين».

وهكذا كان – رضي الله عنه – مع أهله ومواليه فكان إذا قام من الليل يأخذ وضوءه، فيقول له أهله: ألا تأمر الخدم يعطوك وضوءك، فيقول: لا، إن النوم لهم، يستريحون فيه»، ويقول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في عثمان: «لقد كان أوصلنا للرحم، وأتقانا لله عز وجل»، وصدق – عليه الصلاة والسلام – القائل: «**ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» (رواه مسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه) .

***

علي بن أبي طالب – رضي الله عنه

إن من سير الصحابة العطرة المتأثرة بالقرآن الكريم التي عاشت في رحابه ونعمت في ظلاله، لما سارت على نهجه وترسمت طريقه، واستغنت به عن غيره، من هذه السير الناصعة ما كان لعلي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة ووالد الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة – رضي الله عنهم – استخلفه النبي ﷺ في فراشه ليلة الهجرة ففداه بنفسه، واستخلفه على المدينة في غزوة تبوك وآخاه، ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال: خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: تُخلفني في النساء والصبيان؟ فقال – عليه الصلاة والسلام: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي**».

كان علي – رضي الله عنه – من علماء الصحابة بالقرآن الكريم، وله في كتب التفسير روايات كثيرة منقولة عنه في تفسير بعض الآيات، يقول عن نفسه: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين نزلت، وإن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»، وهذا سبب رئيس في تأثره وانتفاعه بآي الذكر الحكيم، مع الفهم والتدبر والنظر والتأمل، وكان يوصي بهذا ويحث عليه في خطبه وحكمه، يقول – رضي الله عنه: «ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها».

ويحكي علي – رضي الله عنه – أحوال الصحابة – رضي الله عنهم – وتأثرهم بالقرآن الكريم، أحيوا ليلهم بقراءته وتلذذوا بمناجاة ربهم مع الخشوع والبكاء، فيقول: «لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين»، وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»، ومعنى «لا حسد»، أي: لا غبطة إلا في اثنتين، والآناء: الساعات.

لقد كانت وصايا علي – رضي الله عنه – وخطبه وما أثر عنه من أقوال من مشكاة الوحيين الكتاب والسنة وفي فلكهما، والمروي عنه من ذلك كثير، فعن عبد خير بن يزيد عن علي – رضي الله عنه – قال: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين، رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، أو رجل يسارع في الخيرات، ولا يقل عمل في تقوى، وكيف يقل ما يتقبل».

وعن مهاجر بن عمير قال: قال علي بن أبي طالب «إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخر، ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ألا وإن الآخرة قد

ترحلت مقبلة، ولكل واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

وعنه – رضي الله عنه – قال: «احفظوا عني خمساً، فلو ركبتم الإبل في طلبهن لأنضيتموهن قبل أن تدركوهن، لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم، ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له».

لقد حظي علي – رضي الله عنه – بفضائل كثيرةٍ ومناقب جمة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب**»؟ فقيل: يا رسول الله، يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه فأتي به**»، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية» .. الحديث.

وعن زر بن جبيش قال: قال علي – رضي الله عنه: «والله إنه لعهد رسول الله ﷺ، إنه قال: «**لا يبغضني إلا منافق ولا يحبني إلا مؤمن**» (رواه مسلم).

إن المؤمن الصادق في محبته لكتاب ربه عز وجل بل ولذكره عموماً لا يفتر عنه، ولا يترك حزبه من القراءة والذكر، فيكون معه كحال السمك مع

الماء، فالذكر حياة القلوب وطمأنينتها وسعادة النفوس وراحتها: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١)، وهذا ما كان لعلي مع زوجه فاطمة – رضي الله عنها – بنت النبي ﷺ، فإنها لما تعبت في خدمة البيت حتى مجلت يداها من الرحى، أتت والدها النبي ﷺ لما أتي بسبي تسأله خادماً، فاستحيت ولم تسأله شيئاً، فلما رجعت قال لها علي ما فعلت؟ قالت: استحييت فلم أسأله شيئاً، فأرسلها الثانية فلم تسأله، ثم ذهبا سوياً في الثالثة، فقال رسول الله ﷺ ما أتى بكما؟ فقال علي: يا رسول الله شق علينا العمل، فأردنا أن تعطينا خادماً نتقي به العمل، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**هل أدلكما على خيرٍ لكما من حمر النعم**»؟ قال علي نعم يا رسول الله، قال: تكبيرات وتسبيحات وتحميدات مائة مرة، وفي رواية تسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين وتكبران أربعاً وثلاثين فذلك خير لكما من خادم، قال علي: فما فاتتني منذ سمعتها من رسول الله ﷺ فقال رجل: «ولا ليلة صفين، قال: ولا ليلة صفين» (رواه النسائي).

وأختم سيرته بوصف ضرار بن حمزة له بين يدي معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – حيث يقول: «إنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، بالقيام كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

نبتديه لعظمه، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، كان يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، يقول يا دنيا عمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق، فذرفت دموع معاوية حتى خرت على لحيته فما يملكها، وقد اختنق القوم بالبكاء، ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك».

عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه

إن من علماء الصحابة – رضي الله عنهم – بالقرآن الكريم وتفسيره أبا عبدالرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي، من السابقين إلى الإسلام، يقول – رضي الله عنه: «لقد رأيتني سادس ستةٍ، ما على الأرض مسلم غيرنا»[(١)]، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد كلها، كان صاحب وساد النبي ﷺ وسواكه ونعليه وطهوره، كان قريباً من النبي ﷺ يقول أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه: «لقد أتيت رسول الله ﷺ، وما أرى إلا ابن مسعود من أهله»، من قربه ولطفه به، وكان – رضي الله عنه – يشبه بالنبي ﷺ في هديه وسمته ودله.

أما شأنه – رضي الله عنه – مع القرآن، فقد كان من علماء الصحابة به تلاوة وقراءة، تفسيراً وبياناً، تأثراً وتمثلاً، أثنى عليه الصلاة والسلام على قراءته، حيث كان – رضي الله عنه – من أوائل من تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ فسعدوا به ونعموا، عن عمر – رضي الله عنه – قال: «خرجت أنا وأبو بكر مع رسول الله ﷺ فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ: يسمع قراءته، فلما كدنا نعرفه قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»، قال: ثم جلس الرجل يدعو، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «**سل تعطه، سل تعطه**» (رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني بسند صحيح).

---

(١) رواه الطبراني والبزار ورجالهما رجال الصحيح.

وعن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر، وقد نفرا من قريش، فقالا: يا غلام هل عندك من لبن تسقينا؟ فقلت: إني مؤتمن ولست ساقيكما، فقال النبي ﷺ: «**هل عندك من جذعه لم ينز عليها الفحل**»؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها النبي ﷺ ومسح الضرع ودعا فحفَّلَ الضرع، ثم أتاه أبو بكر بصخرة منقعرة فاحتلب فيها، فشرب أبو بكر ثم شربت، ثم قال للضرع أقلص فقلص، قال: فأتيته بعد ذلك فقلت علمني من هذا القول، قال: إنك غلام معلَّم، فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد» (رواه أحمد بسند صحيح).

وعن عبدالله بن يزيد قال: «أتينا حذيفة بن اليمان فقلنا له: حدثنا بأقرب الناس برسول الله ﷺ هدياً وسمتاً ودلاً نأخذ عنه ونسمع منه، قال: كان أقرب الناس برسول الله ﷺ هدياً وسمتاً ودلاً عبدالله بن مسعود، حتى يتوارى عنا في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفى».

ويقول أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه: «لا تسألونا عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهرنا من أصحاب محمد ﷺ، يعني ابن مسعود». وعلل ذلك في رواية عنه بقوله: «إن كان ليدخل إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا»، وسئل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عن ابن مسعود فقال: «قرأ القرآن ثم وقف عنده، وكفى به علماً».

لقد بلغ عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – مبلغاً عظيماً وشأواً كبيراً

في العلم بمعاني القرآن وتفسيره وأسباب نزوله ومعرفة أحكامه وحدوده، مع حرصه على طلب علم ذلك والازدياد منه، يقول عن نفسه: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وأعلم فيم نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطي لأتيته».

وعن مسروق قال: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ - أي: مجتمع الماء يريد: أن الصحابة فيهم العالم والأعلم - يروي الرجل، والإخاذ يُروي الرجلين، والإخاذ يُروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، أي: صرفهم وقد ارتووا - فوجدت عبدالله من ذلك الإخاذ».

ومما يدل على علمه بتفسير القرآن ودقيق معرفته بذلك واستحضار الآيات الدالة على تلك المعاني ما رواه الشعبي قال: «ذكروا أن عمر بن الخطاب لقي ركباً في سفر له، فيهم عبدالله بن مسعود فأمر عمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ فأجابه عبدالله بن مسعود: أقبلنا من الفج العميق، فقال عمر: أين تريدون؟ فقال عبدالله: البيت العتيق، فقال عمر: إن فيهم عالماً، وأمرا رجلاً فناداهم: أي القرآن أعظم؟ فأجابه عبدالله، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١)، قال: نادهم أي القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾[(١)]، فقال عمر: نادهم أي القرآن أجمع؟ فقال ابن مسعود: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[(٢)]، فقال عمر: نادهم أي القرآن أخوف؟ فقال ابن مسعود: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾[(٣)]، فقال عمر: نادهم أي القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[(٤)]. فقال عمر: نادهم أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم».

كان ابن مسعود – رضي الله عنه – مع علمه بمعاني القرآن وتفسيره وتبحره في ذلك وإلمامه الواسع بكثير من علومه شديد التأثر به، فقد ذكروا في سيرته أنه كان يقوم به حظه من الليل، ويُسمع له دوي بقراءته كدوي النحل، مع ظهور آثاره عليه، حيث كثرة العبادة ولزوم الطاعة والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد لها، مع حسن خلقه وطيب معشره وتواضعه، وله في ذلك أسوة بمعلم البشرية، الذي كان أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية عليه الصلاة والسلام.

عن حبيب بن أبي ثابت قال: «خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع»، وعن الحارث بن سويد قال: قال عبدالله بن مسعود: «لو تعلمون ما أعلم من نفسي لحثيتم على رأسي التراب».

وبهذا كان يوصي نفسه وأصحابه - والوصية لمن بعدهم - كقوله: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس فرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون: باكياً محزوناً حليماً حكيماً سكّيتاً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً، ولا سخاباً ولا صياحاً ولا حديداً» (رواه أحمد).

كان عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - من أعلام الصحابة - رضي الله عنهم - في التفسير الذي كانت آثار القرآن ظاهرة عليه، امتثالاً لأوامره ووقوفاً عند حدوده وحذراً من زواجره، وتمثلاً لأخلاقه، مع الخشية من الله سبحانه والحب الصادق لكلامه عز وجل، والتأثر عند تلاوته، ودعوة تلاميذه والناس أجمع إلى ذلك.

فقد سكن لكوفة وكانت له مدرسة بها، أفاد منها تلاميذه، فاغتبطوا بما تعلموه وتلقوه منه - رضي الله عنه - من أشهرهم: علقمة بن قيس، ومسروق والأسود بن يزيد ومرة الهمذاني وعامرٌ الشعبي والحسن البصري وقتادة بن دعامة السدوسي وغيرهم.

وكان - رضي الله عنه - يتعاهد طلابه من حملة القرآن وغيرهم بالتوجيه والنصح والإرشاد، عيشاً في رحاب القرآن وتأثراً به في كل شأن، وإصلاحاً به الظاهر والباطن، وتقويماً للأخلاق وتهذيباً للنفس، والقول في هذا لهم وللأمة من بعدهم.

يقول رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه»، وقال أيضاً: «إن هذا القرآن مأدبةُ الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت الذي تسمع فيه سورة البقرة»، وقال أيضاً: «إنما هذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره».

وفي المقابل يجب على حامل القرآن ومن رام التأثر به أن يحذر الذنوب والمعاصي، يقول - رحمه الله: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلمه للخطيئة يعملها»، وهو القائل: «إذا كنت في خلوتك لا تبكي على خطيئتك ولا تتأثر بتلاوة كتاب ربك فاعلم أنك مسكين قد كبلتك خطيئتك».

يقول ابن القيم - رحمه الله - معدداً آثار الذنوب والمعاصي: «ومنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور، ولما جلس الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقال الشافعي - رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فَضْلٌ ... وفضل الله لا يؤتاه عاص

إلى أن قال: «قال عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في

قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمةً في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق».

ثم قال: «ومنها – أي من آثار الذنوب والمعاصي – حرمان الطاعة – وأفضلها تلاوة القرآن وحفظه والتأثر به، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرا، فينقطع عنه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة، منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان» [(١)] .

أما توجيهاته – رضي الله عنه – لطلاب العلم وحملته فكثيرة، منها قوله: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها» وعنه – رضي الله عنه – قال: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية»، ويصف حال أصحاب النبي ﷺ في مقام الفضل والعبادة فيقول: «أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: فبأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم».

ومن وصاياه ومواعظه التي تنم عن معرفة بكتاب الله عز وجل واستهداء بسنة الرسول الكريم – عليه أفضل الصلاة والتسليم – قوله: «من اليقين ألا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحمدن أحداً على رزق الله، ولا تلومن أحداً على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص الحريص، ولا يرده كره الكاره، وإن الله بقسطه وحكمه وعدله وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»، وعنه –

---

(١) الجواب الكافي: ٧٤-٧٦.

رضي الله عنه – قال: «كونوا ينابيع العلم ومصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سُرُجَ الليل جُدُدَ القلوب، تُعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض».

ويصف حال العبد وما حصل في الدنيا فيقول: «ما منكم إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة إلى أهلها»، فالدنيا ظل زائل ومتاع حال، إن أضحكت يوماً أبكت زمناً، المتعلقون بالدنيا على وجل من بلايا نازلة أو منايا قاضية، يقول الحسن البصري: «لقد فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحاً».

والمؤمن الصادق في إيمانه يزن حاجاته ومطالبه وما هو قادم عليه بالميزان الحق الموافق للكتاب والسنة، فما وافق قبله وما خالف رده، لا يقدم على ذلك تعصباً مذموماً أو هوى مقيتاً أو شهوة طاغية، جاء رجل فقال يا أبا عبدالرحمن علمني كلمات جوامع نوافع، فقال له عبدالله بن مسعود: «لا تشرك بالله شيئاً، وزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيباً قريباً».

وفي مجال الحث على حسن الخلق وتهذيب السلوك وأطر النفس على معالي الأمور والبعد عن سفاسفها يقول – رضي الله عنه: «إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه فليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»، وقال أيضاً: «الحق ثقيل مرئي، والباطل خفيف وبيء، ورب شهوة تورث حزناً طويلاً»، وقال أيضاً: «والله الذي لا إله إلا هو ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان»، وعنه أيضاً قال: «لا تكونن إمعة، قالوا: وما الإمعة؟ قال: يقول أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت، ألا ليوطنن أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس ألا يكفر».

ابن عباس – رضي الله عنهما

إن أعلم الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – بكتاب الله عز وجل وتفسيره، عبدالله بن عباس الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، إمام التفسير وحبر الأمة وترجمان القرآن، ولد بشعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، وانتقل مع أبويه إلى المدينة دار الهجرة عام الفتح، وكان قد أسلم قبل ذلك، وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، وروى عنه وعن الصحابة جملةً كثيرةً من الأحاديث.

كان ابن عباس يلقب بالحبر والبحر لكثرة علمه وسعة معرفته بكتاب الله عز وجل وغيره، لذا فقد انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله عز وجل، كان عمر – رضي الله عنه – يجلسه في مجالسه مع كبار الصحابة ويدنيه منه، وكان يقول له: «إنك لأصبح فتياننا وجهاً وأحسنهم خلقاً، وأفقههم في كتاب الله»، وقال في شأنه: «ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول».

وقد كثر الثناء عليه اعترافاً بمنزلته وبياناً لقدره في علمه بكتاب الله عز وجل وتفسيره وتأثره به قولاً وعملاً، قال عبدالله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»، وقال تلميذه مجاهد: «كان ابن عباس يسمى البحر من كثرة علمه»، وقال سعد بن أبي وقاص: «ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألب لباً، ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس، لقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات فيقول: قد جاءت معضلة ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهل

بدر»، وقال طلحة بن عبيد الله: «لقد أعطي ابن عباس فهماً ولَقَنَاً وعلماً، ما كنت أرى عمر يقدم عليه أحداً»، وقال طاووس «ما رأيت أورع من ابن عمر ولا أعلم من ابن عباس»، وقال أيضاً: «أدركت نحواً من خمسمائة من الصحابة، إذا ذاكروا ابن عباس فخالفوه، فلم يزل يقررهم حتى ينتهوا إلى قوله»، وعن مسروق قال: «كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت أعلم الناس»، ومثل هذه الأقوال في الثناء عليه كثير.

إن الله عز وجل إذا أراد بعبده الخير وفقه لطاعته واستعمله فيما يرضيه ولا شك أن من أفضل الطاعات وأجل القربات العلم بمعاني كتاب الله عز وجل وتفسيره، مما يعين على التأثر والعمل به، وقوفاً عند حدوده وعملاً بأوامره وحذراً من زواجره، ولقد كان عبدالله بن عباس إماماً في هذا الشأن، ولعل سبب نبوغه وجلالته يرجع إلى الأمور التالية:

أولاً: دعاء النبي ﷺ بقول: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» (رواه أحمد وغيره)، وفي رواية أخرى: «**اللهم علمه الحكمة**» (رواه البخاري)، والذي يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى هذا واضحاً فيما صح عنه – رضي الله عنه.

ثانياً: نشأته في بيت النبوة وملازمته لرسول الله ﷺ من سن التمييز، فهو ابن عمه، وخالته ميمونة إحدى أمهات المؤمنين تحت رسول الله ﷺ، فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزلت فيها بعض آيات القرآن.

ثالثاً: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، يأخذ ويروي عنهم، ويعرف عنهم مواطن نزول القرآن وتواريخ التشريع وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت رسول الله ﷺ، يقول – رضي الله عنه – عن نفسه: «وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، ولو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف»، وفي رواية قال: «فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد التراب فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك فأسألك عن الحديث».

رابعاً: حفظه للغة العرب ومعرفة غريبها وآدابها شعراً ونثراً، وخصائصها وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بالبيت من شعر العرب، ويبين لنا ابن عباس مبلغ الحاجة إلى معرفة لغة العرب وأساليبها وحفظ الكثير من أشعارها فيما رواه أبو بكر ابن الأنباري عنه قال: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه»، وروى عنه أيضاً قال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»، ومما يدل على سعة علمه بلغة العرب ومعرفة غريبها

وأساليبها ما رواه البخاري في صحيحه عنه في تفسير غريب سورٍ كاملةٍ كسورة الأنعام مثلاً.

خامساً: بلوغه مرتبة الاجتهاد وعدم تحرجه منه لما استكمل أدوات المفسر، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق، ما دام أنه يثق أن الحق في جانبه، فقد كان ابن عمر ينتقد عليه جرأته على تفسير القرآن، فما لبث أن رجع إلى قوله واعترف بمبلغ علمه، فقد روي أن رجلاً أتى ابن عمر يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم قال أخبرني، فذهب فسأله، فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً».

لقد تبوأ الصحابي الجليل عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - بفضل من الله عز وجل وتوفيق ثم بما يسر من الأسباب السابقة وغيرها منزلةً عالية في التفسير، فكانت أقواله واجتهاداته موفقة قيمة، تدل على عقل راجح وإيمان راسخ ورأي صائب، يقول ابن عمر - رضي الله عنهما: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد»، ويقول تلميذه مجاهد: «كان ابن عباس إذا فسر الشيء رأيت عليه النور».

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

لذا فقد كان الصحابة يقدرون لابن عباس علمه ويثقون بتفسيره، وقد وجد هذا التقدير صداه وأثره في عصر التابعين، فكانت له مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عنه بمكة، ثم غذت بعلمها وعم نفعها الأمصار الإسلامية المختلفة، وما زال تفسيره يلقى من المسلمين احتراماً وتقديراً وقبولاً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عنه فإنهم لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر، وقد ذكر الزركشي أن قول ابن عباس مقدم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم في التفسير [(١)].

وكان النبي ﷺ يدنيه ويقربه ويتعاهده بالنصح والتوجيه والإرشاد، وأشهر ما روي من ذلك تلك الوصية العظيمة التي أوصاه بها وعلمه إياها - وهي للأمة من بعده - لم يضن بها عليه وهو الغلام اليافع، روى أحمد والترمذي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كنت رديف النبي ﷺ فقال: «**يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن**»؟ قلت: بلى، فقال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**».

إن فهم كلام الله عز وجل ومعرفة المراد به وتفسيره معين ولا شك على

---

(١) البرهان: ٢/ ١٥٧.

التأثر به قولاً وعملاً، وقد ذكرت فيما سبق أن ابن عباس – رضي الله عنهما – بلغ المنزلة العالية والرتبة الرفيعة في ذلك، وقد عرف الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعون له ذلك وأقروا له بالإمامة والعلم فيه.

ومن أمثلة ذلك: ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾[1]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»، وكان عمر إذا ذكره قال: «ذلك فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول»، وعن سعيد بن جبير قال: قال عمر لابن عباس: «لقد علمت علماً ما علمناه»، وعنه قال: قال عمر: «لا يلومني أحدٌ على حب ابن عباس».

وعن شقيق قال: «خطبنا ابن عباس وهو على الموسم، فافتتح سورة البقرة، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم لأسلمت».

---

(١) سورة النصر، الآية: ١.

ولم يكن علم ابن عباس ونبوغه مقتصراً على فهم القرآن الكريم والعلم بتفسيره ومعانيه، بل ضم إليه علوماً شتى في الفقه والحديث والفتوى ومعرفة لغة العرب شعرها ونثرها، فكان الناس يصدرون عنه بكل علم نافع وافر، قال فيه عطاء: «ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يُصدرهم كلهم من واد واسع»، وقال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال، بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب وتأويل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً».

ولما قيل لطاووس لزمت هذا الغلام - أي ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: «إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارؤوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس»، وبالجملة فقد كانت حياته حياةً علميةً مباركة في شتى العلوم، لا سيما فهمه لكتاب الله عز وجل وعلمه بمعانيه وتفسيره.

وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - ممن منحه الله عز وجل رقة القلب ودمع العين من خشيته جل وعلا، وتلك علامة خير ورشد وتوفيق من الله لعبده، وقد روى عنه من صحبه وجالسه من ذلك الشيء الكثير، فعن

عطاء بن أبي رباح قال: «كان ابن عباس يقوم آخر الليل أمام البيت بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾[1]، فيبكي ويكثر البكاء، فإذا رأيناه في الصباح قلنا قد فقد أحد أبنائه من كثرة بكائه».

وعن عبدالله بن أبي مليكة قال: «صحبت ابن عباس – رضي الله عنهما – من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شطر الليل، فسئل كيف كانت قراءته؟ قال: قرأ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾[2]، فجعل يرتل ويكثر في ذاكم النشيج»، وعن أبي رجاء قال: «رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من البكاء».

هكذا كان – رضي الله عنه – يتأثر بآية واحدة، يقف عندها فيرتلها ويتدبرها ويتأملها، فلم يكن يتعجل في قراءته أو يسرع بها، همه أن يختم دون تأثر أو تفكر، عن أبي جمرة الضُبعي قال: قلت لابن عباس: «إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث؟ فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول»، وعنه – رضي الله عنه – قال: «لأن أقرأ البقرة في ليلة وأتفكر فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن هذرمة».

لقد ذكر أهل العلم أن شرف أي علم بشرف المعلوم به، ولذا كان العلم بتفسير كتاب الله عز وجل ومعرفة معانيه وخدمته في جميع مناحيه من أشرف العلوم وأزكاها وأعلاها منزلة، وذلك لأنها شرفت واشتغلت بكتاب الله عز

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة ق، الآية: ١٩.

وجل، خير الكتب المنزلة، القائد والهادي لكل خير وسعادةٍ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾** ﴾[1].

ومن منة الله عز وجل على حملة كتابه العالمين بتفسيره العاملين به السائرين على نهجه، أن جعلهم جل وعلا من أهله وخاصته تكريماً وتقديراً لهم، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله من الناس أهلون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته**» (رواه أحمد وابن ماجه والنسائي في فضائل القرآن وسنده حسن).

وهذا ما علمه الصحابة – رضي الله عنهم – وعقلوه، ففرحوا بذلك والله يقول: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[2]. ثم عملوا به وتمسكوا بهديه وساروا على نهجه، أحلوا حلاله وحرموا حرامه ووقفوا عند حدوده.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في سيرة حبر الأمة وترجمان القرآن، إمام المفسرين عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – يجمل ذلك ويشهد به تلميذه طاووس فيقول: «ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لحرمات الله من ابن عباس»، فأهل القرآن يجب أن يكون لهم تميز عن غيرهم من حيث العمل به والاستغناء به عن الدنيا وزخرفها الفاني، فمن خالف ذلك هان على الله وعلى خلقه ﴿ **وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾[3]. روى القرطبي عنه

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٨.

قال: «لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي له لأحبهم الله ولكن طلبوا الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس».

وكان – رضي الله عنه – متخلقاً بأخلاق حملة القرآن متسماً بسيماهم في صغير الأمر وكبيره، عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال: «شتم رجل ابن عباس، فقال ابن عباس: إنك تشتمني وفيَّ ثلاث خصال، إني لآتي على الآية من كتاب الله تعالى فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به ومالي به سائمة»، أي نَعَمٌ راعية، هكذا يكون قلب المؤمن محباً لإخوانه المسلمين الخير والنفع في دينهم ودنياهم، يسره ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم، رحيماً مشفقاً عليهم، يشاركهم آلامهم وآمالهم وأفراحهم وأتراحهم، لا أن يكون ضيق النفس أناني الطبع، تهمه نفسه ومن له به ارتباط وثيق، كزوج وولد وقريب، ولا شأن له بالآخرين.

ومتى كان المؤمن وبخاصة إذا كان من أهل القرآن حي الضمير زكي المعدن ذا نفس رحيمة وحسٍ مرهف كان همه وجهده تعليم الناس وإرشادهم ونصحهم وتوجيههم على نورٍ من كتاب الله عز وجل وهدى من سنة رسوله ﷺ، يواسي الفقير ويعطف على المسكين ويتحسس المحتاجين والأرامل والأيتام، يقول – عليه الصلاة والسلام: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي)، فإن لم يتيسر له هذا كله وليس له به طاقة، فلا أقل من أن يشاركهم ويعيش معهم

همومهم وغمومهم، أو سرورهم وفرحهم، يلهج لسانه بالدعاء لهم، وهو مأجور مثاب على هذا بإذن الله عز وجل.

كانت مجالس ابن عباس – رضي الله عنه – عامرةً بالنصح والتوجيه، من مشكاة الوحيين الكتاب والسنة، وما يفيض الله به عليه ويوفقه له من الفهم الراسخ والاستنباط الدقيق، ومن ذلك قوله: «يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته».

ويصف العلماء حقاً بقوله: «العلماء بأيام الله عز وجل إذا تذكروا عظمة الله عز وجل طاشت لذلك عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء، ومع الظالمين الخطائين وإنهم لأبرار برآء، ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له القليل ولا يدلون عليه بالأعمال، هم حيثما لقيتهم مهتمون ومشفقون، وجلون خائفون».

وهكذا كانت حياته – رضي الله عنه – علم وتعليم، دعوة وعمل، تأثر

وبكاء من آي الذكر الحكيم الذي قال الله فيه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]. ويقول جل وعلا في وصف المتأثرين به المستهدين بهديه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وكانت وفاته – رضي الله عنه – بالطائف سنة ثمانٍ وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة، وكان لوفاته أثر بالغٌ في نفوس الناس لما له من عظيم المنزلة ورفيع القدر عندهم في العلم والتقوى، لما بلغ جابر بن عبدالله خبر وفاته تأثر وقال: «مات أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبةً لا تُرتق»، ولما بلغ خبر وفاته ابن الحنفية قال: «اليوم مات رباني هذه الأمة».

وحق لهم ولغيرهم ذلك فإن موت العالم مصيبة كبيرة وخطب جلل، فالعلماء ورثة الأنبياء، عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: قال ﷺ: «**إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**» (رواه مسلم وأحمد).

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

أُبي بن كعب – رضي الله عنه

اشتهر بالتفسير من الصحابة عددٌ قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرةً أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأي والاجتهاد، وقد كان لهؤلاء ثناء من الرسول ﷺ.

ومن هؤلاء أبو المنذر أُبي بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً وما بعدها، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ الوحي مقدمه المدينة، وكان يحفظ كتاب الله عز وجل وكان سيد القراء، لقول النبي ﷺ فيه: «**وأقرؤهم أبي**» (رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه).

ولا أدل على جودة قراءته وحفظه لكتاب الله عز وجل من قراءة النبي ﷺ عليه فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ①﴾[1]، فقال: آلله سماني لك؟ قال: «**نعم**»، قال: فجعل أُبي يبكي» (رواه البخاري ومسلم). وعند الترمذي وغيره أنه قيل لأُبي: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني وهو يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[2].

وعند الترمذي والطبراني في الأوسط واللفظ له عن أبي بن كعب قال:

---

(١) سورة البينة، الآية: ١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٨.

قال رسول الله ﷺ: «**إني أمرت أن أعرض عليك القرآن**»، فقال: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلمت، قال فرد النبي ﷺ القول، فقلت: يا رسول الله وذُكرتُ هناك؟ قال: «**نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى**»، قال: فاقرأ إذاً يا رسول الله».

هكذا يكون الشرف والقدر لحامل القرآن المتقن له العامل به، حيث يؤمر النبي المصطفى والحبيب المجتبى من الله عز وجل أن يقرأ على أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال الحافظ ابن حجر: «بكى - أُبي - إما فرحاً وسروراً بذلك، وإما خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة، وقال القرطبي: تعجب أبي من ذلك، لأن تسمية الله له ونصه عليه ليقرأ عليه النبي ﷺ تشريف عظيم، وقال أبو عبيد: المراد بالعرض على أبي ليتعلم أبي منه - أي النبي ﷺ - القراءة ويتثبت فيها، وليكون عرض القرآن سنة، وللتنبيه على فضيلة أُبي بن كعب وتقدمه في حفظ القرآن، وليس المراد أن يستذكر منه النبي ﷺ شيئاً بذلك العرض، ويؤخذ من هذا الحديث مشروعية التواضع في أخذ الإنسان العلم من أهله وإن كانوا دونه» (١) .

وقال الإمام النووي: «ومنها: المنقبة الشريفة لأُبي، بقراءة النبي ﷺ، ولا يُعلم أحدٌ من الناس شاركه في هذا، ومنها منقبة أخرى له بذكر الله تعالى له ونصه عليه في هذه المنزلة الرفيعة» (٢) .

وفي موقف آخر مع النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم

---

(١) فتح الباري: ٧/ ١٢٧.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٨٦.

- أثنى على علم أبي بالقرآن ومعرفة ما خص الله بالفضل بعض آياته ففي صحيح مسلم عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله أعظم**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فأعادها فقلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، قال: فضرب في صدري وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**».

قال الإمام النووي معلقاً على هذا الحديث: «فيه منقبةٌ عظيمة لأبي، ودليلٌ على كثرة علمه، وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكنيتهم، وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة، ولم يُخف عليه إعجاب ونحوه، لكمال نفسه ورسوخه في التقوى»[(١)].

وقد ضم أبي بن كعب - رضي الله عنه - مع حفظه كتاب الله عز وجل والإكثار من تلاوته حيث كان يختمه في كل ثمان، ضم مع هذا علمه بتفسيره ومعانيه، وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، حتى عُد من المكثرين في التفسير الذين يعتد بما صح عنهم ويعول على تفسيرهم، فكثرت الرواية عنه - رضي الله تعالى عنه - في كتب التفسير وتعددت طرقها، وتتبع العلماء هذه الطرق بالنقد والجرح والتعديل، ليميزوا ما صح عنه مما هو دخيل وضعيف، وأكثر من يروي عنه ابنه الطفيل وأبو العالية وغيرهما.

وكان تفسيره لكتاب الله عز وجل على هدي من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو اجتهاد يتحرى فيه الحق والصواب، وأذكر لهذا مثالين، أحدهما: «جاء رجل إلى أُبي، فقال: يا أبا المنذر، آية في كتاب الله قد أغمتني،

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٩٣.

قال أي آية، قال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[1]، قال: ذاك العبد المؤمن ما أصابته من نكبة مصيبةٍ فيصبر فيلقى الله تعالى فلا ذنب له»، وتفسيره هذا من مشكاة النبوة ومن ميراث النبي ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال: يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾[2]. فكل سوء عملناه جزينا به، فقال رسول الله ﷺ: «**مالك يا أبا بكر**»؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال النبي ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء**»؟ قال: بلى، قال: «**فهو مما تجزون به**».

المثال الثاني: ما رواه أبو العالية عنه قال: «المؤمن بين أربع، إن ابتلي صبر وإن أعطي شكر، وإن قال صدق وإن حكم عدل، فهو يتقلب في خمسة من النور، وهو الذي يقول الله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾[3]. كلامه نور وعلمه نور، ومدخله في نور ومخرجه من نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة، والكافر يتقلب في خمسة من الظلم، فكلامه ظلمة وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة ومخرجه في ظلمة ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

ومن وصاياه بكتاب الله والعمل به ما رواه أبو العالية قال جاء رجل إلى أبي بن كعب فقال: أوصني، قال: «اتخذ كتاب الله إماماً، وارض به قاضياً وحكماً، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم شفيعٌ مطاع، وشاهدٌ لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم وخبركم وخبر ما بعدكم».

معاذ بن جبل – رضي الله عنه

إن الله عز وجل يتفضل على من شاء من عباده بمزيد عناية واهتمام بكتاب الله عز وجل تلاوة وحفظاً، تدبراً وتفهماً، عملاً وتطبيقاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، وقوفاً عند حدوده وحذراً من زواجره، ولقد كان للصحابة – رضي الله عنهم – شأن وشأوٌ في هذا المقام العظيم ومرتبة جليلة ومنزلةٌ عالية، سبقوا بها من بعدهم، وامتازوا بها عن غيرهم.

ومن أولئك الصحابي الجليل معاذ بن جبل بن عمرو الأوسي الأنصاري أبو عبدالرحمن، أسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة، وشهد العقبة مع السبعين، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وخصه بمزيد قرب منه حيث أردفه وراءه وبعثه إلى اليمن بعد غزوة تبوك، وشيعه – عليه الصلاة والسلام – ماشياً في مخرجه وهو راكب.

امتدحه – عليه الصلاة والسلام – بعدة خصال، وقدمه على غيره في بعض المناقب، وقد يشركه مع نفر قليل فيها، من ذلك قوله – عليه الصلاة والسلام: «**أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل**» (رواه النسائي وابن ماجه)، وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: لو استخلفت معاذ بن جبل، فسألني عنه ربي عز وجل ما حملك على ذلك؟ لقلت: سمعت نبيك ﷺ يقول: «**إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل كان معاذٌ بين أيديهم رتوةً بحجر**» (رواه أبو نعيم في الحلية)، أي يتقدمهم مقدار رمية بحجر، وقال: «من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل»، ومن مناقبه – رضي الله عنه – عنايته بالقرآن

الكريم، حتى صار يعرف به مع نفر من الصحابة ولذلك شهد لهم الرسول ﷺ بذلك، وتلك تزكية منه لهم، عن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد - فبدأ به - ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة**» - رضي الله عنهم (رواه البخاري).

وعن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار، أُبي بن كعب ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد، قلت - أي قتادة - لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي» (رواه البخاري).

إن أهل القرآن يظهر عليهم آثار ما حفظوه وتعلموه منه، متبعين ذلك العمل به، والتزامه في كل شأن من شؤون حياتهم العامة والخاصة، مع دعوة الناس إليه، بعد أن كانوا قدوةً لهم في ذلك، مع السمت والوقار لجلالة القرآن وهيبته، وقد شهد بذلك لمعاذ بن جبل عددٌ من الصحابة والتابعين، عن فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه: «إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقيل: إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقال: ما نسيت، هل تدري ما الأمة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يُعلِّم الخير، والقانت المطيع لله، وكان معاذ يعلم الناس الخير، ومطيعاً لله ولرسوله». وقال جابر بن عبدالله: «كان معاذ من أحسن الناس وجهاً وأحسنه خلقاً، وأسمحه كفاً».

وقال أبو مسلم الخولاني: «دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحواً من ثلاثين

كهلاً من أصحاب النبي ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا، لا يتكلم ساكت، فإذا اختلف القوم في شيء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي من هذا؟ فقال: معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - فوقع في نفسي حبه، فكنت معهم حتى تفرقوا».

وعن شهر بن حوشب قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له».

إن فهم آيات كتاب الله عز وجل وتعقل معانيها والإفادة من هداياتها ودلالاتها تجعل لأهل القرآن نظراً وبصيرة في الحكم على الأمور والموازنة بين الأعمال وبيان الفاضل من المفضول منها، وهذا ما كان لمعاذ - رضي الله عنه - حيث يقول: «ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله، قالوا: يا أبا عبدالرحمن ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ »[1]، فذكر الله أكبر وأعظم وأفضل من كل شيء، فأهله السابقون المقدمون، يقول - عليه الصلاة والسلام: «**سبق المفردون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**» (رواه مسلم)، وهم الأحياء الحياة الحقيقية والسعادة الطيبة، يقول - عليه الصلاة والسلام: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت**» (رواه البخاري ومسلم).

ولذا يقول شيخ الإسلام: «المؤمن مع ذكر ربه كحال السمك مع الماء»، بل أعظم من ذلك، ولكن ما لجرح بميت إيلام، وإذا كان - عليه الصلاة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

والسلام - يقول: كما ثبت في الصحيح: «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب أو خير لي مما طلعت عليه الشمس**»، فكيف يفرط في ذلك مؤمن؟

إن فضل السلف على الخلف كثير، وبخاصة صحابة نبينا ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، فقد كانوا أعمق هذه الأمة علماً وأقومها هدياً وأقلها تكلفاً وأسلمها منهجاً، على نور من كتاب الله عز وجل وهديٍ من سنة رسوله ﷺ، نبذاً للبدع وهجراً لأهلها ومجالسهم.

يقول معاذ - رضي الله عنه: «إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة والصغير والكبير والحر والعبد، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما يُبتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وإن على الحق نوراً».

كان معاذ - رضي الله عنه - محل عناية وتوجيه من النبي المصطفى والحبيب المجتبى، يتعاهده بالتوجيه والنصح، والتفقد والسؤال عن حاله، وهذا للأمة من بعده ففي الصحيحين أنه - عليه الصلاة والسلام - أردفه على حمار، وقال له: «**يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**أما حق الله على العباد فأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأما حق العباد على الله فأن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً**»، وقال - رضي الله عنه - أخذ رسول الله ﷺ يوماً بيدي ثم قال: «يا

معاذ والله إني لأحبك**»، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنا والله أحبك، فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» (رواه أحمد وأبو داود والنسائي بسند قوي).

وعنه قال: دخل علي رسول الله ﷺ فقال: «**كيف أصبحت يا معاذ**»؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله تعالى، قال: «**إن لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول**»؟ قال: يا نبي الله، ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي، ولا أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، قال: «**عرفت فالزم**» (رواه الطبراني وأبو نعيم).

ومع ما له من هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية عند رسول الله ﷺ وحبه له فقد كان من دعائه إذا تهجد من الليل: «اللهم قد نامت العيون وغارت النجوم وأنت حي قيوم، اللهم طلبي للجنة بطيء وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هدى ترده إلي يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد».

ولما حضرته الوفاة قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، وقيام الليالي ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ومجالسة أناس ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى طيب التمر».

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: «مر عمر بمعاذ وهو يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «**إن أدنى الرياء شرك، وأحب العبيد إلى الله الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك مصابيح العلم وأئمة الهدى**» (رواه الحاكم وصححه).

أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه

من علماء الصحابة وقرائهم كتاب الله عز وجل أبو موسى عبدالله بن قيس بن سليم الأشعري التميمي، دعا له النبي ﷺ بقوله: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً**» (رواه البخاري ومسلم).

كان مشهوراً بحسن الصوت وجماله حين يرتل القرآن، وأثنى عليه النبي ﷺ بذلك وغيره، ففي صحيح مسلم عن ابن بريدة عن أبيه قال: خرجت ليلة من المسجد، فإذا النبي ﷺ عند باب المسجد قائم، وإذا رجل يصلي، فقال لي: «**يا بريدة، أتراه يرائي**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**بل هو مؤمن منيب، لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود**» فأتيته فإذا هو أبو موسى الأشعري فأخبرته، ورواه الإمام أحمد ولفظه عن ابن بريدة عن أبيه قال: جاء رسول الله ﷺ إلى المسجد وأنا على باب المسجد، فأخذ بيدي فأدخلني المسجد، فإذا رجل يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد فقال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب**»، وإذا رجل يقرأ، فقال: «**لقد أعطي هذا مزماراً من مزامير آل داود**»، قلت: يا رسول الله أخبره؟ قال: «**نعم**»، فأخبرته، فقال لي: لا تزال لي صديقاً، وإذا هو أبو موسى.

ولما مر النبي ﷺ ببيته في الليل وقف يستمع لقراءته، فلما أصبح رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، قال أبو موسى: «لو علمت يا رسول الله لحبرته لك تحبيراً».

لذا فقد بعثه رسول الله ﷺ ومعاذاً إلى اليمن، وأمرهما أن يعلما الناس القرآن، كما أنه الذي أقرأ الناس بالبصرة وفقههم في دينهم، أخذاً بقول النبي ﷺ كما ثبت في الصحيح: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، فأشرف الناس قدراً وأعلاهم منزلة وأوفرهم حظاً في الدنيا والآخرة من اشتغل بأفضل الأمور وأكرم العلوم ألا وهو القرآن الكريم.

ولا شك أن ترتيل القرآن وتحسين الصوت بتلاوته بلا إفراط في ذلك، مما يعين على التأثر به وعدم الملل من قراءته والاستماع لقارئه، بل إن القراءة والحالة هذه تكون معينة على فهم الآيات والوقوف عند هدايتها ودلالاتها، ولذا جاء الأمر به، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾[1]، قال ابن عباس: بينه تبييناً، وقال مجاهد: ترسل فيه ترسلاً، وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد بسند صحيح عنه ﷺ قال: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»، وفي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن تجهر به**»، ولما قيل لابن أبي مليكة: فإن لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع.

قال الإمام الآجري – رحمه الله: «ينبغي لمن رزقه الله حُسْنَ الصوت بالقرآن أن يعلم أن الله قد خصه بخير عظيم، فليعرف قدر ما خصه الله به، وليقرأ لله لا للمخلوقين، وليحذر من الميل إلى أن يُستمع منه ليحظى به عند السامعين، رغبة في الدنيا والميل إلى حسن الثناء والجاه من أبناء الدنيا، فمن مالت نفسه إلى ما نهيته عنه خفتُ أن يكون حُسْنُ صوته فتنةً عليه، وإنما ينفعه

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٤.

حسن صوته إذا خشي الله عز وجل في السر والعلانية، وكان مراده أن يُستمع منه القرآن لينتبه أهل الغفلة عن غفلتهم، فيرغبون فيما رغبهم الله عز وجل، وينتهوا عما نهاهم، فمن كانت هذه صفته انتفع بحسن صوته، وانتفع به الناس»[(١)] .

وكان أبو موسى الأشعري، ممن نفع الله الناس بقراءته لما حباه الله عز وجل إياه من جمال الصوت وحسنه حال تلاوته القرآن الكريم، فكان يذكر الناس ربهم والدار الآخرة ويعظهم وينصحهم ويخص أهل القرآن من الطلاب والمتعلمين بمزيد عناية وتوجيه، كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إذا جلس مع أصحابه وفيهم عبدالله بن قيس أبو موسى الأشعري، يقول له: «يا عبدالله بن قيس ذكرنا ربنا عز وجل والدار الآخرة»، فيتلو عليهم ما تيسر من القرآن.

ولما قدم أبو موسى الأشعري دمشق على معاوية ونزل في بعض دورها، خرج معاوية من الليل يستمع لقراءته، لما يعلمه عنه، يقول أبو عثمان الهندي: «ما سمعت مزماراً ولا طنبوراً ولا صنجاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري، إن كان ليصلي بنا، فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته»، ويقول العجلي: «لم يكن في الصحابة أحدٌ أحسن صوتاً منه».

يقول أنس بن مالك – رضي الله عنه: «كنا في مسير مع أبي موسى، فسمع الناس يتحدثون فسمع فصاحةً، فقال: مالي يا أنس؟ هلمَّ فلنذكر ربنا، فإن هؤلاء يكاد أحدهم أن يفري الأديم بلسانه، ثم قال: يا أنس ما أبطأ

---

(١) أخلاق حملة القرآن، ص٧٩.

بالناس عن الآخرة وما ثبرهم عنها - أي صدهم ومنعهم من الاستعداد لها - قلت: الشهوات والشيطان، قال: لا والله، ولكن عجلت لهم الدنيا وأخرت الآخرة ، ولو عاينوا ما عدلوا وما مالوا»، هكذا كان - رضي الله عنه - يوجه جلساءه وأصحابه، ويستغل الأوقات لنصحهم وإرشادهم، وفاء بالمسؤولية الملقاة على أهل العلم وأداءً للواجب الذي تحمله، ومن ذلك أنه جمع القراء فبلغوا زهاء ثلاثمائة فوعظهم وقال: «أنتم قراءُ أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم، كما قست قلوب أهل الكتاب، وقال: إن هذا القرآن كائن لكم أجراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زُخ في قفاه، فقذفه في النار».

لقد جمع أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - مع ما سبق القضاء والفتيا والفقه في الدين، قال الشعبي: «قضاة الأمة عمر وعلي وزيد وأبو موسى»، وعن صفوان بن سليم قال: «لم يكن يفتي في المسجد زمن رسول الله ﷺ غير هؤلاء: عمر وعلي ومعاذٍ وأبي موسى»، وبه انتفع أهل البصرة، يقول الحسن البصري «ما قدمها - أي البصرة - راكبٌ خيرٌ لأهلها من أبي موسى»، وهكذا العالم القارئ للقرآن العارف بمعانيه أينما حلَّ نفع.

وكان معظماً للسنة متمسكاً بها مقتدياً بسيد الأولين والآخرين الرحمة المهداة والنعمة المسداة عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، يقول حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه «إن أشبه الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله ﷺ عبدالله، أي: أبو موسى الأشعري» (رواه البخاري ومسلم).

وكان لقربه من النبي ﷺ ومحبته العظيمة له يخصه ببعض الحديث، والخطاب له وللأمة بعده، فعنه – رضي الله عنه – قال: قال لي النبي ﷺ: «**يا عبدالله بن قيس**، أو يا أبا موسى، **ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة**»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**قل: لا حول ولا قوة إلا بالله**» (رواه البخاري ومسلم).

أبو الدرداء – رضي الله عنه

إن القرآن الكريم نورٌ وهدى، وشفاء ورحمة، لمن استهدى به وأقبل عليه، واستغنى به عن غيره، فهو منة الله سبحانه على هذه الأمة، يقول جل وعلا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[(١)]، كل هذه الفضائل وغيرها كثير لأهل القرآن العاملين به المتأثرين بآياته، بعد قراءته وحفظه وتدبر آياته والنظر فيها.

وهذا ما كان لسلفنا الصالح ومن بعدهم ممن وفقه الله عز وجل لهذا الخير، والمحروم من حرم خير الله، ومن هؤلاء الذين نعموا بالقرآن لما استهدوا به وساروا على نهجه وطبقوا شرعه وتأثروا به الصحابي الجليل أبو الدرداء عويمر بن مالك – رضي الله عنه.

كان – رضي الله عنه – من علماء الصحابة وفقهائهم بالقرآن الكريم، فشرف بذلك، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهذا هو الفقه والعلم الأصيل، وغيره متفرع عنه، يقول – رضي الله عنه: «إنك لا تفقه الفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً»، ثم بعد الفقه العمل بآياته امتثالاً للأوامر واجتناباً للنواهي ووقوفاً عند حدوده، فعلى هذا الحساب والسؤال يوم القيامة، يقول

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

- رضي الله عنه: «أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: يا عويمر أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت علمت، لا تبقى آية آمرةٌ أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها، الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع»، وفي رواية: قال: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفت للحساب أن يقال لي: قد علمت، فما عملت فيما علمت».

إن أهل القرآن لهم وردهم من الليل لا يتركونه، لما يجدون فيه من اللذة والأنس وحلاوة المناجاة، فلا يترك قيام الليل بالصلاة وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار إلا محروم، قد حرم خير الله وفضله، يقول - عليه الصلاة والسلام: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**» (رواه مسلم)، فكان أبو الدرداء إذا سمع المتهجدين بالقرآن يقول: «بأبي النواحون على أنفسهم قبل يوم القيامة، وتندى قلوبهم بذكر الله، أو لذكر الله عز وجل»، كيف والله يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، وكان يقول: «التمسوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده».

إن القرآن الكريم نور وهدى لمن سار على نهجه واستهدى به، فلا يجوز أن يضرب بعضه ببعض أو يعارض بعضه ببعض، إثارة للفتنة والشبهة، وتضليلاً للناس وبعداً بهم عن هداياته ودلالاته، يقول أبو الدرداء - رضي الله عنه: «إن مما أخشى عليك زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق، وعلى القرآن منار كمنار الطريق»، لذا فقد حذر السلف وأهل العلم من المراء

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

والجدل بالقرآن وبينوا آثاره السيئة على الخاصة والعامة، وأمروا الناس أن يأخذوا بالكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة – رضي الله عنهم – من ذلك ما رواه أبو أمامة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [1] (رواه أحمد والترمذي).

وعن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون في القرآن، فقال – عليه الصلاة والسلام: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض، وإنما كتاب الله تعالى يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، ما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه**» (رواه أحمد والطبراني)، وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «تلا رسول الله ﷺ يوماً هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾ [2]، فقال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه أو به، فهم الذين عنى الله عز وجل فاحذروهم**».

إن رقة القلب وسرعة التأثر ببكاء وخشية، علامة خير ورشد بالعبد، وضد ذلك الشقاء والضلال، يقول ابن القيم: «خمس من الشقاء، قسوة القلب وجمود العين وركوب بحر التمني، والحرص على الدنيا وطول الأمل»، وقد

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

كان أبو الدرداء على جانب عظيم من رقة القلب وسرعة البكاء تأثراً مما يراه ولو لم يكن به، روي «أنه لما فتحت قبرص وفرق بين أهلها بكى بعضهم إلى بعض، رؤي أبو الدرداء جالساً يبكي، فقيل له: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ما أهون الخلق على الله، إذا هم تركوا أمره، بينا هي أمةٌ قاهرة ظاهرة، لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

تقول أم الدرداء: «بات أبو الدرداء ليلة يصلي فجعل يبكي، ويقول: اللهم أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقي، حتى أصبح، فقلت: يا أبا الدرداء ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق، فقال: يا أم الدرداء إن العبد المسلم يُحْسُنُ خلقُه حتى يدخله حسنُ خلقِه الجنة، ويسوء خلقُه حتى يدخله سوء خلقِه النار»، وصدق – عليه الصلاة والسلام – القائل: «**إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» (رواه الطبراني)، وهو القائل: «**ذهب حسنُ الخلق بخيري الدنيا والآخرة**» (رواه الطبراني والبزار).

إن الذي يعيش في رحاب القرآن ويتفيأ ظلاله، اتصالاً وارتباطاً به وتدبراً وتفهماً لآياته وإيماناً صادقاً به وبموعوده، يزن الأمور بالميزان الحق الذي لا اختلال فيه ولا اضطراب، وينظر إليها عن بصيرة وتوفيق، ومن ذلك هذه الكلمات النيرات من أبي الدرداء – رضي الله عنه – حيث يقول: «لولا ثلاث خلال لأحببت ألا أبقى في الدنيا، قيل: وما هن؟ فقال: لولا وضوع وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة، وتمام التقوى أن يتقي الله عز وجل العبد، حتى يتقيه في مثقال الذرة، إن الله تعالى قد بين لعباده الذي هو يصير

إليهم، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[١]، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه، ولا شيئاً من الخير أن تفعله».

وقال أيضاً: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر عملك، وأن تباري الناس - أي: تسابقهم - في عبادة الله عز وجل، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل».

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

عبدالله بن رواحة – رضي الله عنه

جمع الله عز وجل لصحابة نبينا ﷺ - ورضي الله عنهم أجمعين – رقة القلب ودمع العين وسرعة الاستجابة لله ورسوله، ومحاسبة النفس وتزكيتها وأطرها على طاعة الله، مع لين الجانب وحسن الخلق وكرم النفس، فإذا دعا داعي الجهاد لبوا داعيه، يذودون عن حياض الدين الذي أكرمهم الله به، ويدعون الناس إليه ليخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى سماحة الإسلام.

ومن هؤلاء الصحابة عبدالله بن رواحة بن ثعلبة أبو محمد، أحد النقباء الاثني عشر، شهد العقبة مع السبعين وبدراً وأحداً والحديبية وخيبر وعمرة القضية، بعثه النبي ﷺ على سرية في ثلاثين، إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر فقتله، ثم أرسله إلى خيبر خارصاً، فلم يزل يخرصُ عليهم إلى أن قتل بمؤتة.

كان مقرباً من النبي ﷺ يدنيه منه، فكان أحد شعرائه مع حسان بن ثابت وكعب بن مالك متمسكاً بسنته – عليه الصلاة والسلام – عاملاً بهديه مقتدياً به، ولو كان في ذلك مشقة وجهد عليه، ففي الصحيحين عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: «لقدر أيتنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر، حتى إن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما في القوم صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة».

أما حاله مع القرآن العظيم فتلذذ بتلاوته يحي ليله بقراءته، يناجي به ربه ويتقرب به إليه، قال بعض السلف: «أهل الليل – أي أهل قيام الليل – في

ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم»، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وماذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب شيء في الدنيا؟ قال: إحياء الليل بالصلاة وتلاوة القرآن والتلذذ بذكر الله عز وجل»، وهكذا كان رسول الله ﷺ، روى البخاري في صحيحه في كتاب التهجد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – وهو يذكر رسول الله ﷺ قال: «**إن أخاً لكم لا يقول الرفث، يعني بذلك عبدالله بن رواحة، حين قال:**

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقناتٌ أن ما قال واقعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ»

وقد روى البخاري قبل هذا حديث عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له، فإن توضأ قبلت صلاته**».

لقد كان عبدالله بن رواحة – رضي الله عنه – على جانب عظيم من خشية الله وتعظيمه وصدق الإيمان به وبموعوده، مما أورثه تأثراً بآيات القرآن وانكساراً في قلبه وسرعة دمعه، «وأبعد الناس من الله القلب القاسي»، عن عروة بن الزبير قال: «لما أراد ابن رواحة الخروج إلى أرض مؤتة من الشام، أتاه المسلمون يودعونه فبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟ قال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة لكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ وَإِن

﴿مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[(١)]، فقد علمت أني واردُ النار، ولا أدري كيف الصدر بعد الورود»، وفي رواية: «فأيقنت أني واردها، ولم أدر أأنجو منها أم لا».

وفي تفسير الآية اختلفت أقوال المفسرين، فمنهم من يقول إن الورود هو الدخول في نار جهنم، فيدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، هذا قول جابر بن عبدالله وابن عباس في رواية عنه، وفي رواية أخرى عنه وهو مروي عن ابن مسعود وآخرين أن المراد بالورود المرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، تمر عليه الخلائق كلهم ويسقط في النار الكفار ومن أمرت بأخذه من العصاة، وينجي الله المتقين بحسب أعمالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[(٢)].

وقد روى البخاري ومسلم – واللفظ للبخاري – من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال ﷺ: «**ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم**»، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «**مَدْحضة مَزِلَّة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكةٌ مفلطحة، لها شوكة عُقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً**».

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٢.

ولذلك كان من دعاء السلف: «**اللهم أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً**».

كان عبدالله بن رواحة من المجاهدين الأوائل في سبيل الله عز وجل، الذين بذلو أنفسهم رخيصة في سبيله، يتسابقون إلى حياض الموت، لعلهم أن يظفروا بشهادة في سبيله تكون ثمناً لجنة عدن، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾ (١).

ففي غزوة مؤتة شجع عبدالله الناس لما رأوا كثرة عدد عدوهم وقوة عدتهم، فقال: «والله يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل العدو بعدة ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهورٌ وإما شهادة».

وكان – رضي الله عنه – الأمير الثالث على جيش مؤتة بعد زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب، وقد استشهدوا جميعاً في هذه الغزوة، وقد ذكر النبي ﷺ خبرهم للصحابة في المدينة وهو على منبره ودموعه على خديه – عليه الصلاة والسلام – فقال: «**أخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل شهيداً، ثم**

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم قال: لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبدالله ازوراراً عن سرير صاحبيه، فقلت: عم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبدالله بن رواحة بعض التردد» (رواه أبو نعيم في حلية الأولياء).

عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما

من أحب شيئاً أحب ذكره ولم يملَّ منه، ولم يغفل عنه، وإذا كان ذلك كذلك فإن أهل القرآن الصادقين في محبته، يقبلون على تلاوته وحفظه، وتفهم آياته والتدبر فيها، وامتثال أوامرها والحذر من نواهيها والوقوف عند حدودها، وهذا دليلٌ على طهارة قلوبهم وصفاء نفوسهم وعدم تعلقهم بالدنيا، التعلق الذي يصرفهم أو يصدهم عن أفضل الذكر القرآن لكريم، ولذا كان عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يقول: «لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله عز وجل».

ومن الصحابة المكثرين من تلاوة القرآن، المشغلين أزمانهم المحافظين على حزبهم منه عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - يقول عن نفسه: جمعت القرآن فقرأته في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن أخشى أن يطول عليك الزمان وأن تمل قراءته، ثم قال: اقرأ في شهر**، قال: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي، قال: «**اقرأه في عشرين**»، قلت: أي رسول الله دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي، قال: «**اقرأه في سبع**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي فأبى، وفي رواية قلت: إني أقوى من ذلك، قال: «**اقرأه في كل ثلاث**»، قلت: إني أقوى من ذلك، قال: «**فغضب وقال: قم فاقرأ**»، الحديث في البخاري وفي آخره قال مجاهد: «وكان حين ضعف وكبر يقرأ من حزبه كذلك، يزيد أحياناً وينقص أحياناً غير أنه يُوفي العدد، إما في سبع وإما في ثلاث، قال: ثم كان يقول بعد ذلك: لأن أكون

قبلت رخصة رسول الله ﷺ أحب إلي مما عُدل به، لكني فارقته على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره».

قال الإمام النووي - رحمه الله: «ينبغي أن يحافظ على تلاوته - أي القرآن - ويكثر منها، وكان السلف - رضي الله عنهم - لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه، فروى ابن أبي داود عن بعض السلف - رضي الله عنهم - أنهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة واحدة، وعن بعضهم في كل شهر ختمة، وعن بعضهم في كل عشر ليال ختمة، وعن بعضهم في كل ثمان ليال، وعن الأكثرين في كل سبع ليال .. إلى أن قال: والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصدٌ له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة.

وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة، ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**» (رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم. قال الترمذي: حديث حسن صحيح).

ثم قال: «وينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر، وفي صلاة الليل أكثر، قال الله تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٣.

وإنما رُجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون من الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء به الشرع من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً، ولحديث: «**ينزل ربكم إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي شطر الليل، فيقول: هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأعطيه**»[(١)].

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، ٤٦ وما بعدها.

عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما

من الصحابة الفقهاء العالمين بالقرآن وأحكامه، الواقفين على هداياته ودلالاته. أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - فقد كانت له استدلالات دقيقة واستنباطات موفقة من آي الذكر الحكيم مما يدل على رسوخ علمه بالقرآن، من ذلك أن رجلاً أتاه فقال يا أبا عبدالرحمن، أنت ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ - فذكر مناقبه - فما يمنعك من هذا الأمر - أي من الدخول في الفتن - قال: «يمنعني أن الله تعالى حرم علي دم المسلم، قال فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[1]، قال: قد فعلنا، وقد قاتلناهم حتى كان الدين لله، فأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى يكون الدين لغير الله».

وكان لعلمه بالقرآن رقيق القلب سريع الدمع مستجيباً لنداء الله عز وجل مسارعاً في مراضيه مسابقاً إلى جنة عرضها السموات والأرض، فقد كان - رضي الله عنه - إذا قرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[2]، بكى وامتنع من قراءة ما بعده، وعن نافع مولى ابن عمر قال: «ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى، ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٦.

﴿ ... ٢٨٤﴾[1]، ثم يقول: إن هذا الإحصاء شديد»، ولا يخفى – أن الله عز وجل خفف عن الأمة بالآية الأخيرة من هذه السورة، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ٢٨٦﴾[2]، قال الله عز وجل: «قد فعلت»، كما ثبت في الصحيح.

وعن نافع أيضاً قال: «كان ابن عمر – رضي الله عنه إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3]. بكى حتى يغلبه البكاء».

هكذا كان تأثره بآي القرآن الكريم بكاء وخشية من الله سبحانه، وتلك وايم الله علامة سعادة ورشد وهدى للعبد، فهنيئاً لمن بكت عينه من خشية الله، يقول النبي ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» (رواه الترمذي والطبراني).

وكان – رضي الله عنه – ينكر على من يصعق عند قراءة القرآن أو سماعه من غيره أو يسقط، حيث لم يكن هذا من هدي النبي ﷺ ولا أصحابه – رضي الله عنهم – وقد كانوا أرق الناس قلوباً وأشدها تعظيماً لربها، قيل «إنه لما مر برجل ساقط، قال ما شأنه؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن يصيبه هذا، فقال: إنا لنخشى الله وما نسقط».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.

كان - رضي الله عنه - مستجيباً لنداء الله عز وجل في كتابه، وذلك عنوان الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)، فعن عبدالله بن أبي عثمان قال: «أعتق عبدالله بن عمر جاريته التي يقال لها: رميثة، وقال إني سمعت الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٢)، وإني والله إن كنت لأحبك في الدنيا، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل»، وعن نافع أن ابن عمر - رضي الله عنهما - كان لا يعجبه شيء من ماله إلا أخرج منه لله عز وجل.

فالبر مرتبة عالية ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بتوفيق من الله وهداية ثم بمثل هذه الأعمال الجليلة المتعدية النفع، من بذل وعطاء، ونفقة وسخاء من خير المال، بطيب نفس وانشراح صدر، أملاً فيما عند الله ورجاءً في وعده الصادق، وهو لا يخلف الميعاد، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ (٣)، ويقول جل وعلا: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ (٤).
ويقول تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً

---

(١) سورة النور، الآية: ٥١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[1].

إن الأماني إنما تكون صادقة محمودة إذا أتبعها صاحبها العمل الجاد النافع، وشرف الإنسان بشرف ما يتمناه ويرجو حصوله ويأمل وقوعه، روى أبو نعيم في حلية الأولياء «أنه اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبدالله بنو الزبير بين العوام وعبدالله بن عمر، فقالوا: تمنوا، فقال: عبدالله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب أما أنا: فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبدالله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة، قال: فنالوا كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر الله له».

وهكذا كان ابن عمر، دؤوباً جاداً في طاعة الله عز وجل وتحري سنة النبي ﷺ محباً لكتاب ربه مقبلاً عليه بالتلاوة والقيام به أواخر الليل، قيل لنافع مولى ابن عمر: «ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال: لا تطيقونه، الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما».

وعند البخاري ومسلم – عنه رضي الله عنه – قال: «كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلاماً عزباً شاباً، فكنت أنام في المسجد فرأيت كأن ملكين أتياني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، ولها قرون كقرون البئر، فرأيت فيها ناساً قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، فلقينا ملك فقال: لن تراع، فذكرتها لحفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نعم الرجل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

عبدالله لو كان يصلي من الليل، قال: فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً».

لقد كان عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – مربياً لأصحابه موجهاً لجلسائه وتلاميذه على نور من كتاب الله عز وجل وهدي من سنة النبي ﷺ، الذي أخذ بمنكبه يوماً وقال له: «يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (رواه البخاري)، وكان – رضي الله عنه – إذا حدث بهذا الحديث يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (رواه البخاري).

ولما قال له رجل: «يا خير الناس ويا ابن خير الناس، قال له ابن عمر: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله أرجو الله تعالى وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه»، أي بثنائكم ومدحكم إياه أمامه.

وعن الرياحي قال: «شرب عبدالله بن عمر ماء مبرداً فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (١)، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً، شهوتهم الماء، وقد قال الله عز وجل: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾» (٢).

ويحكي نافع مولاه قيامه بالليل فيذكر أنه كان يصلي ما كتب الله له ثم ينام، فيقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا فيعاود الصلاة، ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح، كل هذا تحقيقاً منه

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.

لصفات المتقين وأولياء الله الصالحين الذين قال الله في وصفهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١).

وروى البخاري في صحيحه أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ مما أراد أن يقرأه، وهذا من محبته للقرآن وتلذذه بتلاوته.

يقول الإمام الآجري – رحمه الله تعالى: «أحب لمن قرأ القرآن أن يتحزَّن عند قراءته ويتباكى ويخشع قلبه، ويتفكر في الوعد والوعيد ليستجلب بذلك الحزن، ألم يسمع إلى ما نعت الله عز وجل من هو بهذه الصفة، وأخبر بفضلهم فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (٢)، ثم ذم أقواماً استمعوا القرآن فلم تخشع له قلوبهم، فقال عز وجل: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ (٣)، يعني: لاهين، والقليل من الدرس للقرآن مع التفكر فيه وتدبره أحب إلي من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة وأقوال المسلمين، عن أبي جمرة قال قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول» (٤).

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ١٧-١٩.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النجم، الآيات: ٥٩-٦٢.

(٤) أخلاق حملة القرآن، ص١٦٩.

أبو رقية تميم بن أوس – رضي الله عنه

إن قسوة القلب مرض خطير وداء عضال يقعد عن الخير ويصد عن الهداية، فلا يقبل صاحبه هدى ولا يرعوي عن باطل، ولا يكف عن سفاهة، ولو أجلبت عليه المواعظ وترددت عليه النصائح، فهو لا يعبأ بأوامر الله، ولا يستحي منه ولا من خلقه أن يقع في معاصيه.

ولقد ذم الله عز وجل قسوة القلب وحذرنا منها، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2]، صاحب القلب القاسي بعيد من ربه، محروم من فضله وجوده وإحسانه، «فأبعد الناس من الله القلب القاسي»، قال بعض السلف: «خمس من الشقاء: جمود العين وقسوة القلب وركوب بحر التمني وطول الأمل والحرص على الدنيا».

وقد عد السلف الصالح – رحمهم الله – قسوة القلب عقوبةً من الله عز وجل لعبده، ومصيبةً عظمى ابتلي بها صاحبها وهو لا يشعر، قال مالك بن دينار: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب» (رواه أحمد في الزهد). وروى أبو نعيم عن حذيفة قال: «ما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه».

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

إن مظاهر قسوة القلوب كثيرة متنوعة، وكلنا يرى ذلك من نفسه، فمن مظاهر قسوة القلب وآثار ذلك عدم الاستجابة لله عز وجل ولرسوله ﷺ والإعراض عن أوامرهما والله عز وجل يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]، ومنها عدم التأثر بآيات القرآن لكريم، والله عز وجل يقول: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3]، وهذا التأثر يشمل رقة القلب ودمع العين والخوف من الله، وما يتبع ذلك من امتثال للأوامر وحذر من النواهي والزواجر.

لذا فقد اعتنى الأكياس من عباد الله بإصلاح قلوبهم واستقامة أحوالهم وفق منهج الكتاب والسنة، يحذرون كل الحذر من قسوة القلوب وإعراضها عن كلام ربها، لما يعلمون نتائج ذلك الوخيمة وآثاره السيئة في الدنيا والآخرة، وإن من يقلب النظر في سيرهم العطرة - وبخاصة صحابة نبينا ﷺ يرى ذلك واضحاً حين جاهدوا أنفسهم، فرقت قلوبهم وعظمت خشية الله في نفوسهم وهملت أعينهم بالبكاء خوفاً وخشية من الله سبحانه، وظهر هذا التأثر على جوارحهم وأعمالهم.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤..

(٢) سورة النور، الآية: ٥١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.

فهذا أبو رقية تميم بن أوس الداري – رضي الله عنه – كان عابداً يكثر تلاوة القرآن لحبه إياه، وتلك علامة طهارة قلبه بإذن الله، يقول عثمان – رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله عز وجل»، فكان تميم رضي الله عنه يختم القرآن في سبع ليال، وكانت هذه عادة كثير من السلف، فقسموا القرآن سبعة أحزاب، في اليوم الأول بعد الفاتحة يقرؤون ثلاث سور البقرة وآل عمران والنساء، وفي اليوم الثاني الخمس بعدها المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة، وفي اليوم الثالث السبع بعدها، وفي اليوم الرابع التسع بعدها، وفي اليوم الخامس يقرؤون إحدى عشرة سورة بعدها، وفي اليوم السادس يقرؤون ثلاث عشرة سورة بعدها، فإذا كان اليوم السابع قرؤوا المفصل من سورة ق إلى سورة الناس.

وكان تميم الداري – رضي الله عنه – مع حبه لكتاب الله وإكثاره تلاوته شديد التأثر به، يتوقف عند الآية الواحدة يرددها ويتدبرها، فتوجب له ذلاً وانكساراً، ورقة وبكاء، قال مسروق: «قال لي رجل من أهل مكة، هذا مقام أخيك تميم الداري، صلى ليلة حتى أصبح يقرأ آية يرددها ويبكي، ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾»[1]. وقام – رضي الله عنه – في المسجد بعد أن صلى العشاء طويلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾[2]، قال الحافظ ابن كثير «قوله: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾،

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

أي ثقلت سيئاته على حسناته، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي، خابوا وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة، ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أي: ماكثون دائمون مقيمون فلا يظعنون، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني عابسون، وقال الثوري عن ابن إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المشيط، الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه» (٣).

مع عنايته الشديدة بالإخلاص لله عز وجل وإخفاء عمله عن الناس، فعن يزيد بن عبدالله قال: «قال رجل لتميم الداري: ما صلاتك بالليل؟ فغضب غضباً شديداً، ثم قال: والله لركعة أصليها في جوف الليل في سرٍ أحب إلي من أصلي الليل كله، ثم أقصه على الناس».

وكان أبو رقية تميم الداري يتعاهد تلاميذه وأصحابه بالوعظ والتذكير والتوجيه والإرشاد، من مشكاة الوحيين الكتاب والسنة، سأله عمر بن الخطاب «ما تقول – أي في حديثك وقصصك على الناس – ؟ قال: أقرأ عليهم القرآن وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر، قال عمر: ذاك الربح».

وهكذا كان هديه ومنهجه في حياته، وغيره ممن أراد الله به خيراً ووفقه لما يحبه ويرضاه، فصلحت نفوسهم ورقت قلوبهم واستقامت أحوالهم، قال

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٥٦.

يحيى بن معاذ: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»، وفي الأثر: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها؟ قال: تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره» (رواه أبو نعيم والبيهقي) .

أبو طلحة زيد بن سهل

وأبو الدحداح ثابت بن الدحداح وفضالة بن عبيد

إن النفوس المؤمنة الصادقة في إيمانها، المصدقة كلام ربها، الواثقة بموعوده وجزائه الحسن تسارع في مراضيه وتسابق في طاعاته وقرباته مستجيبة لندائه ودعوته، وهو الغني عن عبادتهم وطاعاتهم، يقول جل وعلا: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[1]، وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالك أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**» .. إلى آخر الحديث (رواه مسلم).

لذا فقد جاءت آيات الذكر الحكيم حاثة على المسارعة مؤكدةً على المسابقة في مجالات الخير وميادين البر والإحسان، قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]. وقال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

﴿الْعَظِيمِ ﴾(١). وهذا هو حال الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبهم القدوة والأسوة، قال جل وعلا في وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(٢).

وكذا من بعدهم ممن استجابوا لنداء الله ورسوله، المتأثرين بدعوتهما لكل بر وإحسان تجنى ثماره في العاجل والآجل، هذا التأثر الذي يعقبه عمل صالح واتباع وانقياد، ولقد ضرب الصحابة - رضي الله عنهم - في ذلك المثل الأعلى، وإن من يقلب سيرهم العطرة وينظر فيها يرى من ذلك الأمثلة الكثيرة، منهم:

أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري - رضي الله عنه - شهد العقبة مع السبعين والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٣)، قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، اللهم إن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «**بخ ذاك مال رابح، ذاك مال رابح**»، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، قال: فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» (متفق عليه).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سيرة الصحابي الجليل أبي الدحداح ثابت بن الدحداح – رضي الله عنه – فعن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[1]، قال أبو الدحداح الأنصاري: وإن الله ليريد منا القرض؟ قال – عليه الصلاة والسلام: «**نعم يا أبا الدحداح**»، قال: أرني يدك يا سول الله، قال: فناوله رسول الله ﷺ يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، قال: وحائطه له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فنادى: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي من الحائط فقد أقرضته ربي عز وجل»، وفي رواية أخرى: «أنها لما سمعته يقول ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: «**كم من غدق رداحٍ في الجنة لأبي الدحداح**» (رواه الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح، وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي بلفظ: «كم من غدق معلق لأبي الدحداح في الجنة»).

هاتان صورتان من صور البذل والعطاء والجود والسخاء عن طيب نفس وسماحة خُلُقٍ، ورجاء صادق فيما عند الله عز وجل من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين القائل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[2]، والقائل سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

﴿يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[(١)]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على فضل النفقة والبذل في سبيل الله عز وجل.

إن القارئ لكتاب الله عز وجل حقاً هو الذي يقف عند آياته متدبراً متأملاً، ينهل من معينه ويستهدي بهداياته ويزن بها الأعمال والأقوال، ويتعرف بها على أسباب القبول وموانع الإجابة، وهذه المسألة لا يوفق لها ولا يرزقها إلا من أراد الله به خيراً، من ذلك ما جاء في سيرة فضالة بن عبيدٍ الأنصاري – رضي الله عنه: أحد القراء العاملين، عن شراحيل بن يزيد عن فضالة بن عبيد أنه كان يقول: «لأن أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»[(٢)].

فالعبرة بقبول الأعمال، فلا خير في كثير عمل وهو مردود على صاحبه، ولذا كان من دعاء إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – لما رفعا الكعبة وبنياها، وهذا من أفضل الأعمال، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٣)]، وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[(٤)]، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» (رواه أحمد)، وفي لفظ قال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٧،

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾[1] (رواه الترمذي وابن أبي حاتم).

وقال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً»، فعباد الله الراسخون في العلم الصادقون في إيمانهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بهذه العبادات، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦١.

أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها

أنزل الله عز وجل القرآن العظيم نوراً وهدى، وسبيلاً للسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، لمن استهدى به واستغنى به عن غيره، لمن وقف عند حدوده وامتثل أوامره وحذر من زواجره ونواهيه، يشترك في ذلك الرجال والنساء ممن أراد الله به خيراً ففتح به قلبه وأنار به بصيرته، فتأثر به في كل شأن من شؤون حياته، محكماً إياه في كل ما يأتي ويذر، في كل صغير وكبير، وجليل وحقير.

وإذا كنت قد عرضت فيما سبق تأثر الصحابة – رضوان الله عليهم – بهذا القرآن الكريم وكيف ظهرت آثار ذلك عليهم، فهماً ومعرفة بتفسيره ومعانيه، ورقة في قلوبهم وانكساراً في نفوسهم، وسيراً على نهجه وطريقه، فإن الصحابيات – رضوان الله عليهن – قد شاركن الرجال في ذلك، فكان لهن شأن عظيم مع القرآن الكريم.

من أولئك أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سموات، كانت أحب نسائه – عليه الصلاة والسلام – إليه، ولم يتزوج بكراً غيرها، ليس في النساء مطلقاً امرأةٌ أعلم منها، وهو القائل – عليه الصلاة والسلام: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (رواه البخاري ومسلم)، ولما سأله عمرو بن العاص – رضي الله عنه – فقال: يا رسول الله أي النساء أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**» (رواه البخاري وغيره)، والأحاديث في فضائلها وحب النبي ﷺ إياها كثيرة صحيحة.

روت عن النبي ﷺ علماً كثيراً، وحفظت من سنته ما خفي على أكثر الصحابة، حتى قال أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه: «ما أشكل علينا أصحاب النبي ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً».

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: «لقد صحبت عائشة – وكنت خالته – فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أُنزلت ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشعر ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب ولا بقضاء ولا بطب منها، فقلت لها: يا خالة الطبُ من أين علمته؟ فقال: كنت أمرض فينعت لي الشيء، ويمرضُ المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه»، وعن أبي الضحى قال: «قلنا لمسروق هل كانت عائشة تحسن الفرائض؟ فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض»، وكان مسروق روى عنها علماً كثيراً في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وكان إذا حدث عنها قال: «حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سموات».

لقد جمعت عائشة – رضي الله عنها – مع هذا العلم الكبير وحفظ سنة المصطفى ﷺ العبادة وكثرة الطاعة، تتلو كتاب ربها متدبرة معانيه، واقفة عند حدوده عاملةً بما فيه، مع ما أنعم الله عليها من رقة القلب وشدة التأثر ودمع العين، كانت تقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] فتبكي ويشتد بكاؤها، وتقول: مُنَّ علي وقني عذاب السموم، كانت تجل أوامر الله

---

(١) سورة الطور، الآيات: ٢٥-٢٧.

وتعظم شعائره والله تعالى يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. فكانت إذا قرأت قوله عز وجل: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[2]، تبكي حتى تبل دموعها خمارها لعلمها ويقينها الصادق أنها لا تطيق ذلك.

ومَنْ مِنَ النساء تقر في بيتها وتستكن، فلا تخرج منه إلا لحاجة وعذرٍ صحيح مقبول، وكيف حال بعض نساء هذا الزمان، اللائي صار ديدنهن ومتعتهن الخروج للأسواق والتسكع في الطرقات والذهاب والإياب ومزاحمة الرجال والتعرض للفتنة منهن وبهن، وإذا كان – عليه الصلاة والسلام يحث على بقاء المرأة في بيتها وقرارها فيه بالنسبة لخروجها للمسجد بقوله: «وبيوتهن خير لهن» (رواه مسلم)، فكيف بالتوسع والانفلات الذي وقع من بعض النساء هداهن الله سواء السبيل.

إن المرأة إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، فتمايلت في مشيتها وصرفت أعين الرجال إليها وفتنت بصوتها من حيث تشعر أو لا تشعر، وكم من الآثام والويلات التي تحصل بسببها، وإذا كان الله عز وجل يخاطب بهذه الآيات أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين أشرف نساء الأمة وأكملهن وأطهرهن وأبعدهن عن الشر والريبة، فكيف الحال بغيرهن، يقول تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾[1].

كانت عائشة – رضي الله عنها – مثلاً قيماً تقتدي به نساء هذه الأمة في الزهد وعدم التعلق بالدنيا وحطامها الفاني، وألا تكون المعيار والميزان للسعادة، فمن أعطيها وبسطت له فهو المحظوظ ومن حرمها فهو الشقي، وليس المراد من زهدها وعدم تعلقها البحث عن الفقر وإجهاد النفس والتشديد عليها، بل المراد ترويض النفس وأطرها على طاعة الله ومجاهدتها على ذلك، والصبر على ما أوتيت وما حرمت، وهي القائلة: «ما شبع آل محمد ﷺ حتى قبض» والقائلة: «كنا أزواج النبي ﷺ معه يمر علينا الهلالان والثلاثة – أي الشهران والثلاثة – ما أوقد في بيوته نار، قيل: فما كان طعامكم؟ قالت: الأسودان الماء والتمر»، كانت – رضي الله عنها – تكثر الصوم والبذل والصدقة مؤثرة بذلك على نفسها، فقد أهدي لها مرةً مالٌ كثير فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة، فجلت تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم، فلما أمست قالت يا جارية هلمي فطري، فجاءتها بخبز وزيت، فقيل لها: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا لحماً بدرهم نفطر عليه، فقالت: لا تعنفيني، لو كنت ذكرتني لفعلت.

كانت وقافة عند كتاب الله عز وجل مقدمةً حكمه على مشتهيات النفس وحظوظها، ولا أدل على ذلك من أنها لما هجرت ابن أختها عبدالله بن الزبير لأمر كان بينهما قالت: «لله علي أن لا أكلم ابن الزبير حتى أفارق

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

الدنيا»، فطالت هجرتها، فاستشفع ابن الزبير بكل أحد فأبت أن تكلمه، حتى كلمها المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود ودخلوا عليها، معهم ابن الزبير، فاعتنقها ابن الزبير - فبكى وبكت - رضي الله عنهما - بكاءً كثيراً، وناشدها الله والرحم أن تعفو وتصفح عنه، فلما أكثروا عليها ذلك كلمته وكفرت عن يمينها؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.

صفية بنت حيي وأسماء بنت أبي بكر وأم أيمن

ذكرت فيما سبق شمول هدايات القرآن الكريم للجنسين الذكر والأنثى، فليست النساء بمعزل عن تدبر آياته وفهم معانيه، والعلم بتفسيره والتأثر بها قولاً وعملاً، وقوفاً عند حدوده وعملاً بمحكمه وإيماناً بمتشابهه، واستجابة لندائه، كما قال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[١]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢]، وبذلك تتحقق الحياة الطيبة والسعادة الهانئة، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[٣].

ومن أولئك النساء الصحابيات وبخاصة أمهات المؤمنين - رضي الله عن الجميع - صفية بنت حيي بن أخطب، تزوجها النبي ﷺ بعد غزوة خيبر وجعل عتقها صداقها، كانت عابدةً زاهدة، ذات منزلة عند رسول الله ﷺ، عن أنس - رضي الله عنه - قال: بلغ صفية أن حفصة قالت لها: إنك بنت يهودي - كما تكون الغيرة بين النساء - فبكت صفية، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما شأنك**»؟ قالت: قالت لي حفصة إنك بنت يهودي، فقال لها النبي ﷺ: «**إنك لبنت نبي وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبم تفتخر عليك، ثم قال: اتق الله يا حفصة**».

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٢) سورة النور، الآية: ٥١.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٧.

كانت – رضي الله عنها – محبة لكتاب ربها، تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، خاشعة باكية، متأثرة بآياته منكرة على من يقرأ ولا يتأثر، من يتلوه ولا يرق له قلبه، ولا تدمع من أجله عينه، عن عبدالله بن عتبة أن نفراً اجتمعوا في حجرة صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ فذكروا الله ورتلوا القرآن وسجدوا، فنادتهم صفية: هذا السجود وتلاوة القرآن فأين البكاء؟

فالبكاء عند السجود حال عباد الله المصطفين الأخيار، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾[2]، كان عمر – رضي الله عنه – إذا تلى آية مريم وسجد قال: هذا الخرور فأين البكي؟

ومن أولئك الصحابيات أسماء بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنها – ذات النطاقين، من الذاكرات الصابرات الشاكرات، من أوائل النساء إسلاماً وتصديقاً بالله ورسوله وكتابه، فحظيت بمجامع الخير والبر ومراتب الإيمان والإحسان، وكان لها شأن في الهجرة النبوية المباركة، فقد أتت النبي ﷺ وأباها أبا بكر وهما في الغار يريدان السفر للمدينة دار الهجرة، معها الزاد والطعام والماء لهما، فلم تجد ما تربط به سفرة رسول الله ﷺ وقربته سوى

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.

نطاقها فقطعته قطعتين، إحداهما للسفرة والأخرى للقربة، فسميت بذلك ذات النطاقين.

وهي زوج الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، كانت مشهورة بالطاعة والعبادة، والجود والبذل والنفقة، قال عبدالله بن الزبير: «ما رأيت امرأةً أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف، أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلى الشيء حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء فكانت لا تدخر شيئاً لغد».

كانت شديدة التأثر بآي القرآن الكريم، فعن هشام بن عروة عن أبيه قال: «دخلت على أسماء وهي تصلي فسمعتها وهي تقرأ هذه الآية: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]. فاستعاذت، فقمت وهي تستعيذ، فلما طال علي أتيت السوق، ثم رجعت وهي في بكائها تستعيذ».

وقد سبق تأثر أختها عائشة – رضي الله عنهما – بهذه الآية، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – «وقوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾: أي كنا في دار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[2]، أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي: نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾»[3].

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الطور، الآية: ٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٤٣.

إن محبة كلام الله عز وجل وتعظيمه وإجلاله وتمني سماعه وعدم انقطاعه علامة خير ورشد بالعبد، كيف لا وهو الهادي والدليل للسعادة بجميع حذافيرها في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾[1]، ويقول جل وعلا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[2].

ومن أحب شيئاً أحب ذكره وترداده، جاء في سيرة أم أيمن بركة مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، أعتقها وزوجها زيد بن حارثة، جاء في سيرتها أنها كانت تكثر الصيام وطول القيام والذكر والبكاء من خشية الله، ففي صحيح مسلم عن أنس – رضي الله عنه – قال: قال أبو بكر لعمر – رضي الله عنهما – بعد وفاة رسول الله ﷺ: «انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك، أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟ فقالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

ومما أكرمها الله به أنها خرجت مهاجرة إلى رسول الله ﷺ من مكة وهي صائمة في يوم شديد الحر، فأصابها عطش شديد وليس معها ماء، حتى كادت أن تموت من العطش، وليس حولها من يسقيها، فلما غابت الشمس، قالت: إذا أنا بحفيف - أي بصوت - فوق رأسي، فرفعت رأسي فإذا أنا بدلو من السماء مدلى برشاء أبيض، قالت: فدنا مني حتى إذا كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت، قالت: فلقد كنت بعد ذلك في اليوم الحار أطوف في الشمس وما عطشت بعدها - رضي الله عنها وأرضاها.

تتلمذ التابعين على الصحابة – علقمة بن قيس

شرُف التابعون – رحمهم الله – بالتتلمذ على أيدي الصحابة – رضي الله عنهم – فنهلوا من علومهم، وتربوا على أيديهم، وتلقوا كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ عنهم، وكانوا لهم القدوة والأسوة، حيث طبقوا شرع الله، والتزموا نهجه، وساروا على صراطه المستقيم.

أفادوا منهم التأثر بالقرآن الكريم قولاً وعملاً، إصلاحاً للقلوب، وتقويماً للسلوك وضبطاً للجوارح، وأقبلوا على كتاب الله عز وجل يتلونه حق تلاوته على أيديهم، معتنين بتحسين الصوت به وترتيله، مع العناية البالغة بمعرفة معانيه وتفسيره، فكما اشتهر بعض الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء بعض ما خفي من معاني كتاب الله عز وجل، فقد اشتهر أيضاً بالتفسير أعلامٌ من التابعين، تكلموا في تفسيره ووضحوا لمعاصريهم خفي معانيه، معتمدين في فهمهم لكتاب الله عز وجل على ما جاء في القرآن نفسه، وعلى ما رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة أنفسهم في تفسيره، ثم على ما فتح الله عليهم من الاجتهاد والاستنباط والنظر في معانيه، معتمدين على معرفتهم بلغة العرب وطرق كلامهم وتنوع أساليبها.

وقد كان للفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام في بلدان كثيرة أثر في رحلة بعض الصحابة إلى تلك البلدان ينشرون العلم الشرعي القائم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – ويدعون الناس إليه،

يعلمون الجاهل ويرشدون الغافل ويذكرون الناسي، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم وينقلونه لمن بعدهم، فقامت في هذه الأمصار المختلفة حلقاتٌ علمية، أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، واشتهر بعضها كالتي في مكة والمدينة والعراق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن وعبدالله بن وهب»[(١)].

لقد ضمت كتب التفسير الكثير من أقوال التابعين في بيان آي الذكر الحكيم، وهي تدل بجلاءٍ على عظيم عنايتهم بكتاب الله عز وجل، ورسوخ قدمهم في معرفة معانيه وبيان تفسيره والكشف عن أسراره وحقائقه، فكانت أقوالهم محل تقدير وعنايةٍ في عصرهم، ثم من جاء بعدهم، وقد اختلف في الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – ولعل الراجح ما اختاره شيخ الإسلام حيث يقول: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجةً فكيف تكون حجةً في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٤٧.

على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»[(١)].

وكان التابعون – رحمهم الله – يتحرجون من الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، شأنهم في ذلك شأن الصحابة من قبل، مستفيدين هذا المنهج منهم، عن يزيد بن أبي يزيد قال: «كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آيةٍ من القرآن، سكت كأن لم يسمع»، وروى أبو عبيد عن الشعبي عن مسروق قال: «اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله»، وهذا لا يعني أن المشتغلين بالتفسير من التابعين لم تؤثر عنهم أقوال في تفسير القرآن، فإن المأثور عنهم في ذلك كثير يفوق ما أثر عن الصحابة، لكنهم لم يتكلموا في شيء من ذلك إلا عن علم وفهم.

لقد حفلت كتب التراجم والتاريخ بسير عطرة ونماذج مشرقة لأولئك التابعين – رحمهم الله تعالى – الذين تأثروا بكتاب ربهم واتبعوا سنة نبيهم – عليه الصلاة والسلام – وظهرت آثار ذلك عليهم قولاً وعملاً، حالاً وسلوكاً، معرفة وعلماً، مقتدين متعلمين ممن لازموهم من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين.

منهم علقمة بن قيس النخعي، فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها، عداده في المخضرمين، طلب العلم والقراءة ونزل الكوفة ولازم عبدالله بن مسعود،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٧٠.

حتى رأس في العلم والعمل، وأخذ عنه القرآن وجوّده عليه مع العلم بتفسيره، وقد بلغ في ذلك مبلغاً عظيماً، وكان شيخه ابن مسعود يعرف ذلك له ويجله لأجله، ونعم الشرف العناية بالقرآن، يقول علقمة: «كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إليَّ فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا فداك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن حسن الصوت زينة القرآن» (رواه ابن سعد وابن عساكر). وقد صح من حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه – عنه ﷺ قال: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» (رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه) .

وقد شهد له أيضاً أن ابن مسعود بحسن الصوت عند قراءته القرآن مع العلم بمعانيه حيث يقول: «ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه»، وهذه شهادة عالية قيمة ممن له الشهرة والمعرفة بالقرآن ومعانيه، وكان مترسماً خطا شيخه في اتباع السنة والحرص على اقتفاء الأثر والتمسك بالدليل، قال أبو معمر مرة لأصحابه: «قوموا بنا إلى أشبه الناس بعبد الله – يعني: ابن مسعود – هدياً وسمتاً ودلاً، فقاموا معه حتى جلسوا إلى علقمة». وقد حمل على عاتقه هذه الأمانة العظيمة، يعلم الناس كتاب ربهم ويبين لهم معانيه ويفتيهم بما يعلمه من مشكاة الوحيين الكتاب والسنة، عن قابوس بن أبي ظبيان قال: «قلت لأبي: لأي شيء كنت تأتي علقمة، وتدع أصحاب النبي ﷺ؟ قال: أدركت ناساً من أصحاب النبي ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه»، وكان الربيع بن خثيم يأتيه فيقول له: ما أزور أحداً غيرك، أو ما أزور أحداً ما أزورك».

كان – رحمه الله تعالى – مقبلاً على القرآن الكريم يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، فقد أُثر عنه أنه كان يختم القرآن في خمس ليال، قال مُرة الطيب: «كان علقمة من الديانين الذين يقرؤون القرآن»، وقال أيضاً: «كان علقمة بن قيس رباني هذه الأمة».

مسروق

كان لي حديثٌ فيما سبق عن إفادة التابعين رحمهم الله من الصحابة – رضوانه عليهم أجمعين – وتربيهم على أيديهم وأخذهم عنهم العلم والعمل جميعاً، ومنهجهم الذي سلكوه في ذلك، وقد بدأت الحديث في سيرهم العطرة لنأخذ منها العظة والعبرة، في كيفية عنايتهم بالقرآن الكريم وتأثرهم به واقعاً في حياتهم.

منهم أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني، قيل: إنه سُرق وهو صغير فسمي مسروقاً، نشأ – رحمه الله – مكباً على طلب العلم ومجالسة أصحاب النبي ﷺ وملازمتهم، يقول الشعبي: «ما علمت أن أحداً كان أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق». فروى عن الخلفاء الأربعة الراشدين، وعن ابن مسعود ولازمه ملازمة شديدة، فكان أعلم أصحابه، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وقد حدث – رحمه الله – «أنه جالس أصحاب النبي ﷺ فوجدهم كالإخاذ، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم».

يقول علي بن المديني: «ما أقدم على مسروق من أصحاب عبدالله أحداً»، وهذه الشهادة من ابن المديني قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم وسعته الذي استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة، وملازمته لابن مسعود على الأخص، الذي اشتهر بتفسير القرآن، مما جعل مسروقاً إماماً في

التفسير وعالماً بمعاني كتاب الله عز وجل، وقد حدث مسروقٌ بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير من أستاذه ابن مسعود، حيث يقول: «كان عبدالله - يعني ابن مسعود - يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار».

ولذا كان - رحمه الله - مرجعاً لأهل عصره في كثير من العلوم، وبخاصة العلم بتفسير كتاب الله عز وجل ومعرفة معانيه، كان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل.

وقال ابن عيينة: «بقي مسروق بعد علقمة لا يُفضَّل عليه أحد»، وقال العجلي: «تابعي ثقة، كان أحد أصحاب عبدالله الذين يقرؤون ويفتون».

إن العلم بتفسير كتاب الله عز وجل ومعرفة معانيه ثم العمل به والتأثر بآياته لا يكون إلا بتوفيق وتسديد من الله سبحانه، ثم ببذل الأسباب المعينة على ذلك، وهذا ما فقهه عباد الله المتقون الأخيار، كحال مسروق - رحمه الله تعالى - فقد جد واجتهد في طلب هذا العلم الشريف أعني علم التفسير، فلازم الكثير من الصحابة وبخاصة عبدالله بن مسعود، بل كان يخرج في طلب هذا العلم، ويتنقل في البلدان من أجل معرفة تفسير آيةٍ واحدة، مع في تلك الأسفار في ذاك الزمان من المشقة والجهد والخوف والمخاطر.

قال الشعبي: «خرج مسروق إلى البصرة إلى رجل يسأله عن آية فلم يجد عنده فيها علماً، فأخبر عن رجل من أهل الشام فقدم علينا ههنا، ثم خرج إلى الشام إلى ذلك الرجل في طلبها».

وقد توفر له بحمد الله علم كبير واسع وبخاصة تفسير القرآن، وكتب التفسير حافلة بالمروي عنه في ذلك، وكلها دليل على ما له من علم راسخ

وقدمٍ صدق ونظرٍ ثاقب في ذلك، وكانت أقواله وما روي عنه محل تقدير وإجلال عند أهل العلم.

من ذلك قوله: «من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين، وعلم الدنيا والآخرة، فليقرأ سورة الواقعة»، قال الذهبي: «هذا ما قاله مسروق على المبالغة، لعظم ما في هذه السورة من جُمَل أمور الدارين، ومعنى قوله فليقرأ الواقعة، أي: يقرأها بتدبر وتفكر وحضور، ولا يكن كمثل الحمار يحمل أسفاراً» [(١)].

ولما قيل له: «لو أنك قصرت عن بعض ما تصنع – أي من العبادة – فقال: والله لو أتاني آتٍ فأخبرني أن الله لا يعذبني لاجتهدت في العبادة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: حتى تعذرني نفسي إن دخلت جهنم لا ألومها، أما بلغك في قوله عز وجل: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [(٢)]، إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنم واعتقبتهم الزبانية، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وانقطعت عنهم الأماني، ورفعت عنهم الرحمة، وأقبل كل امرئ منهم يلوم نفسه».

كان – رحمه الله تعالى – يطيل العبادة ويكثر منها، وبالأخص تلاوة القرآن الكريم يحيي به ما يقومه من الليل، وما يتيسر له آناء النهار، مع تعليمه وتفسيره لغيره، لقي مرة سعيد بن جبير فقال له: «يا سعيد ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب، وما آسى على شيء إلا السجود لله تعالى».

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٦٨.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٢.

وكان يقول: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله تعالى، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله».

وأرد مرة أن يُعرف صاحباً له حقيقة الدنيا التي تنافس من أجلها الناس، فأحبوا لها وأبغضوا من أجلها، فارتقى به على كناسةٍ بالكوفة فقال: «ألا أريك الدنيا، هذه الدنيا أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم».

والمؤمن الصادق الحريص على نجاته وسلامته والفوز برضا ربه وجنته، يحاسب نفسه ويقررها على ما اقترفته ويأطرها على طاعة الله، ولا يزال كذلك في جهاد مع نفسه حتى يلقى ربه، يسأله حسن الختام على كلمة التوحيد، قال مسروق: «إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، يتذكر ذنوبه ويستغفر منها»

ولما احتضر – أي نزل به الموت – بكى، فقيل له: «ما هذا الجزع؟ قال: مالي لا أجزع، وإنما هي ساعة ولا أدري أين يسلك بي؟ بين يدي طريقان لا أدري إلى الجنة أم إلى النار».

فلا شك أن لحظة الموت لحظة عصيبة رهيبة، بها ينتقل العبد من الدنيا إلى الدار الآخرة، من الدور إلى القبور، إما في روضة من رياض الجنة وإما في حفرة من حفر النار، يقول الشاعر:

ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شيء

ولهذا كان – عليه الصلاة والسلام – يوصي أصحابه وأمته بتذكر الموت وعدم الغفلة عنه والاستعداد له ولما بعده، كقوله: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات الموت**» (رواه النسائي والترمذي)، وقوله لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» (رواه النسائي والترمذي).

الربيع بن خثيم

كان للصحابة – رضي الله عنهم – الفضل بعد الله عز وجل وتوفيقه على من بعدهم في التعليم والإرشاد والتوجيه والتربية، فأفاد منهم خلق كثير وبخاصة ممن شرفوا بالتتلمذ على أيديهم ولزوم مجالسهم ومخالطتهم، تعلموا منهم العلم وخشية الله عز وجل ومحبته والحرص على العمل بالسنة والتمسك بها، وظهرت آثار هذه التربية والتعليم عليهم في رقة قلوبهم وصلاح أعمالهم وتهذيب نفوسهم والسير على منهج النبي ﷺ، ومن أولئك الذين لازموا عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – بالكوفة، يقول الشعبي – رحمه الله: «ما رأيت قوماً قط أكثر علماً ولا أعظم حلماً ولا أكف عن الدنيا من أصحاب عبدالله، ولولا ما سبقهم به الصحابة ما قدمنا عليهم أحداً».

ويقول محمد بن سيرين – رحمه الله تعالى: «ما رأيت قوماً سود الرؤوس أفقه من أهل الكوفة، من قوم فيهم جُرَةٌ»، أي جراةٌ وشجاعة، يعني أصحاب عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه.

ومن أولئك أبو يزيد الربيع بن خثيم الكوفي، الإمام القدوة الورع العابد، أحد الأعلام ومن عقلاء الرجال، روى عن عبدالله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما، وروى عنه الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما.

من مناقبه العظيمة أن ابن مسعود – رضي الله عنه – كان إذا رآه قال له: «يا أبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين»، وما ذاك إلا لخشيته ربه وتعظيمه إياه وعمله بكتابه وسنة نبيه ﷺ

والله يقول: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[(١)]، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره قوله: «﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ، قال مجاهد المطمئنين، وقال الضحاك وقتادة المتواضعين، وقال السدي الوجلين، وقال عمرو بن إدريس المختبين: الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا، وقال الثوري المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن ما يفسر بما بعده، وهو قوله:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، أي خافت منه قلوبهم، ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي من المصائب، قال الحسن البصري: والله لنصبرن أو لنهلكن، ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي: وينفقون مما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله»[(٢)] .

كان الربيع بن خثيم ممن حقق هذه الصفات فكان جديراً وحقيقاً بأن يجعله ابن مسعود من المخبتين، وبرؤيته يتذكرهم وأحوالهم، كان – رحمه الله – رقيق القلب سريع التأثر بآي الذكر الحكيم، يطيل القيام ويكثر البكاء، قال عبدالرحمن بن عجلان «بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلي فمر بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٢١.

﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١ ﴾[(١)]. فمكث عندها، ما يجاوزها إلى غيرها ببكاء شديد»، وكان – رحمه الله – يقوم من الليل ما كتب له، فتناديه أمه: يا ربيع ألا تنام، فيقول: يا أمه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حقّ له ألا ينام، متذكراً قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ ﴾[(٢)]. أي: فجاءها عذابنا ليلاً أو نهاراً وهم نائمون.

والقرآن الكريم تلاوته وتدبره سبب رئيس في رقة القلوب وخشية الله عز وجل وتعظيمه، وإزالة ما بها من قسوة وغفلة، وبهذا تكون الوصية، قال – رحمه الله: «أقلوا الكلام إلا بتسع، تسبيح وتكبير وتهليل وتحميد وسؤالك الخير وتعوذك من الشر وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وقراءة القرآن».

أما الصفة الثانية للمخبتين: فالصبر على ما أصابهم من بلاء ومحنة، والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾[(٣)].

أما الصفة الثالثة: فحرصهم على إقام الصلاة في أوقاتها في جماعة في بيوت الله كما صلاها النبي ﷺ القائل: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» (رواه البخاري) ، وكان الربيع ممن اجتهد في تحقيق هذه الصفة، يدل على ذلك ما روي عنه أنه لما سقط شقه كان يهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحاب عبدالله يقولون: «يا أبا يزيد لقد رخص الله لك لو صليت في بيتك، فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي: حي على الفلاح، فمن سمع منكم ينادى حي على الفلاح فليجبه ولو زحفاً ولو حبواً».

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ١٠.

أما الأخيرة وهي الإنفاق فقد ضرب – رحمه الله – في ذلك أروع أمثلة الجود والسخاء مع قلة ذات يده، رجاء الثواب من الله في يوم الناسُ فيه بأمس الحاجة ولو إلى حسنة واحدة، كان – رحمه الله – لا يعطي السائل أقل من رغيف، ويقول: «إني لأستحي من ربي عز وجل أن أرى غداً في ميزاني نصف رغيف».

وذات مرة قال لأهله: «اصنعوا لنا خبيصاً فصنعوا له، فدعا رجلاً به خَبل فجعل يُلقمه ولعابه يسيل، فلما ذهب، قال أهله تكَلَّفنا وصنعنا، ما يدري هذا ما أكل، فقال الربيع: لكن الله يرى».

إن بلوغ هذه الصفات وغيرها في كتاب الله عز وجل يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة وأطر للنفس وإمساك بزمامها حتى تنقاد لصاحبها، والله عز وجل يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1]، وأعظم ذلك إخلاص العمل لله سبحانه ومن ذلك تلاوة القرآن الكريم، عن سفيان قال: «أخبرتني أمة الربيع بن خثيم، قالت: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه، وكان – رحمه الله – يبكي حتى تبل لحيته دموعه، فيقول: أدركنا أقواماً كنا في جنبهم لصوصاً».

كان – رحمه الله – معرضاً عن الناس ودنياهم، همه إصلاح حاله وعيوبه، قال بعضهم: «جالست الربيع بن خثيم سنين، فما سألني عن شيء مما فيه الناس، إلا أنه قال لي مرة: أمك حية؟ وكان إذا قيل له: كيف أصبحتم؟ قال: ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا».

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

ومن أقواله المستقاة من الوحيين الكتاب والسنة، قوله لأصحابه: «تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ثم لا تعود»، ولما قيل له: «ما نراك تعيب أحداً ولا تذمه؟ فقال: ما أنا عن نفسي براض فأتفرغ من ذنبي إلى حديث، إن الناس خافوا الله تعالى على ذنوب الناس وأمنوه على نفوسهم».

وقال - رحمه الله: «إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك، فإنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ »[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

الحسن البصري – رحمه الله

من أئمة التابعين في التفسير أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري مولى الأنصار، وأمه خيرة مولاة أبي سلمة، روى عن علي وابن عمر وأنس وخلق كثير من الصحابة والتابعين، كان ورعاً زاهداً، لا يسبق في وعظه ولا يدانى في مبلغ تأثيره على قلوب سامعيه.

وقد جمع إلى صلاحه وورعه وبراعته في الوعظ غزارة العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وأحكام الحلال والحرام، وقد شهد له بعلم الكتاب والسنة خلقٌ كثير، قال أنس بن مالك – رضي الله عنه: «سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا»، وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخ أهل البصرة»، وقال قتادة: «ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه»، وكان إذا ذكر عند جعفر الباقر قال: ذلك يشبه كلامه كلام الأنبياء».

ويجمع ابن سعد صفاته فيقول: «كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً»، وقال حماد بن سلمة عن حميد قال: «قرأت القرآن على الحسن ففسره على الإثبات، يعني: إثبات القدر، وكان يقول: «من كذب بالقدر فقد كفر».

كان – رحمه الله تعالى – ملازماً كتاب الله عز وجل يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، متأملاً متدبراً آياته متأثراً بها قولاً وعملاً، صلاحاً في الظاهر وخشية لله عز وجل في الباطن، وهو الميزان الحق الذي تُعرض عليه أحوال الناس وأعمالهم، – قال رحمه الله: «الزموا كتاب الله، وتتبعوا ما فيه من

الأمثال، وكونوا فيه من أهل البصر، ثم قال: رحم الله عبداً عرض نفسه وعمله على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله الزيادة، وإن خالف كتاب الله أعتب نفسه ورجع من قريب»، وقال أيضاً: «من أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه على القرآن».

وهذه وصيته لمن طلب التأثر بالقرآن وأحب أن يرى آثار ذلك عليه، يقول - رحمه الله: «والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك».

إن أهل القرآن العاملين به هم أهل الله وخاصته، ولهم نعوت وصفات يجب أن يتحلوا بها، كما أن هناك أموراً وخصالاً يجب أن يحذروها ويبتعدوا عنها، وفي سيرة الحسن البصري - رحمه الله - وهو ممن عاش مع القرآن وعمل على تعليمه وتفسيره - أقوال في ذلك مما نقل عنه مما يحتاجه أهل القرآن في زمنه ومن أتى بعده مما يعيدهم إلى منهج الصحابة رضي الله عنهم.

قال - رحمه الله تعالى: «إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»، وقال أيضاً: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلقٍ ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراءُ مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء».

ويذكر – رحمه الله تعالى – أقسام الناس مع القرآن وأحوالهم معه فيقول: «قراء هذا القرآن ثلاثة رجال، فرجلٌ قرأه فاتخذه بضاعة ونقله من بلد إلى بلد، ورجل قرأه فأقام حروفه وضيع حدوده، يقول: إني والله لا أسقط من القرآن حرفاً، ورجل قرأه فأسهر ليله وأظمأ نهاره ومنع شهوته، فجثوا في براثنهم وركدوا في محاريبهم، بهم ينفي الله عنا العدو، وبهم يُسقينا الله الغيث، وهذا الضرب من القراء أعز من الكبريت الأحمر».

إن أهم ما يوصي به حملة القرآن الإخلاص وإخفاء العمل والتأثر به وبخاصة البكاء عند تلاوته وسماعه، وهكذا كان سلفنا الصالح – رحمهم الله – يحكي حالهم الحسن البصري بقوله: «إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه العبرة – أي الدمعة – فيرددها، فإذا خشي أن تسبقه قام».

وقال أيضاً: «إن الله يعلم القلب التقي، والدعاء الخفي، إن كان الرجل قد جمع القرآن – أي حفظه وقرأه – وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور – جمع زائر – وما يشعر به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانيةً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾(١)، وقد أثنى الله على زكريا فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾(٢)، وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣.

وقد سبق القول بأن الحسن البصري من أئمة المفسرين وسادات التابعين فله نظر ثاقب وفهم صائب بتوفيق من الله عز وجل في القرآن الكريم، ومن أسباب ذلك عكوفه على كتاب الله عز وجل يتلوه ويُعلِّمه، ويعمر مجالسه ولقاءاته باستماعه وتفسيره، من ذلك: قوله في قول الله عز وجل: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[1]، «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكلمتي، يقول ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي، فلا تراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدماً فلا يعاتب نفسه».

وقال – رحمه الله: «الإيمان إيمان من خشي الله عز وجل بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وترك ما يسخط الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾»[2].

وقال أيضاً في قوله عز وجل: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾[3]. «إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن فأساء العمل»، وكان إذا قرأ قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾[4]، قال: «إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله عز وجل إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه»، وكان

(١) سورة القيامة، الآية: ٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

إذا تلا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾[1]، قال: «من قال ذا؟ قاله من خلقها وهو أعلم بها، إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب».

(١) سورة فاطر، الآية: ٥.

مطرف بن عبدالله

كان لأبناء الصحابة من التابعين – رحم الله الجميع – مواقف مشهورة وأقوال نيرة في تأثرهم بكتاب الله عز وجل، كما أن في سيرهم العطرة العبر والدروس لمن هو في زمانهم ومن أتى بعدهم، ولا شك أن تربيتهم على أيدي آبائهم وبين ناظريهم على محبة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ والفقه فيهما ثم العمل بهما له الأثر الكبير بعد توفيق الله وهدايته في رقة قلوبهم وتعظيمها لربها وخشيتها منه مع ما كان لهم من صلاح الظاهر واستقامة الجوارح على منهج الله سبحانه.

من أولئك مطرف بن عبدالله بن الشخير، روى عن أبيه وغيره جملة من أحاديث النبي ﷺ كقوله: «أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء» (رواه أحمد وابن خزيمة)، وعنه – رضي الله عنه – قال: «دفعت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ هذه السورة: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ثم قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، ومالَكَ من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأمضيت أو لبست فأبليت**». رواه مسلم وأحمد.

إنه لحق على المؤمن الصادق المحب لكتاب ربه أن يعرض أعماله وأقواله عليه وأن يحاسب نفسه وفق منهجه وأن ينظر في أحواله عن طريقه، يقول مطرف بن عبدالله: «إني لأستلقي من الليل على فراشي، فأتدبر القرآن وأعرض عملي على عمل أهل الجنة، فإذا أعمالهم شديدة، ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ

﴿مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾[(١)]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[(٢)]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾[(٣)]، فلا أراني فيهم، فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾[(٤)]، فأرى القوم مكذبين وأمر بهذه الآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[(٥)]، فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم».

هكذا كانوا – رحمهم الله – لهم خلوات ومجالس يحاسبون فيها أنفسهم ويقررون فيها أعمالهم لينظروا أي الطريقين يسلكون، وعلى أي شيء هم قادمون، يقول الحسن البصري: «إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة .. إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، وإن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله».

كان مطرف بن عبدالله ممن أوتي فهماً ونظراً في كتاب الله عز وجل، وحسن استدلال به ووقوفاً عند هداياته ودلالاته، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[(٦)]، كان – رحمه الله – يقول: عند هذه الآية:

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ١٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٤٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢١.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]، «هذه آية القراء».

وصدق – رحمهم الله – فإن هذه الآية – كما يقول أهل العلم – أرجى وأعظم آية لأهل القرآن العاملين به، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله: «يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة، ليلاً ونهاراً سراً وعلانيةً، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، وقوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[2]، أي: ليوفهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم: ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾، أي: لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾، للقليل من أعمالهم»[3].

فهنيئاً لكم حملة القرآن العاملين به هذا الجزاء العظيم والثواب الجزيل من رب رحيم، أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، ثم إن على المؤمن أن يجمع في حياته بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، يتذكر جود الله ورحمته فيحثه ذلك على المسارعة في مراضي الله والمسابقة في ميادين الخير ومجالات البر والإحسان صادقاً في رجائه محسناً الظن بربه لما أحسن العمل، ويتذكر عقوبة الله وشدته ونذره في الأولين والآخرين فيحجزه ذلك عن معاصيه وارتكاب مناهيه، وهذا ما فقهه السلف وذكروا به من حولهم، فقد كان مطرف إذا تلا

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٥٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[١]، قال: «لو يعلم الناس قدر مغفرة الله ورحمته وتجاوز الله لقرت أعينهم، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله ونكال الله وبأس الله ونقم الله ما رقى لهم دمع، ولا انتفعوا بطعام ولا شراب»، وقد قال تعالى بعد أن ذكر أحوال بعض أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

عروة بن الزبير

من أولئك النفر الذين تربوا على أيدي الصحابة القريبين منهم، عروة بن الزبير، أبوه الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين وخالته عائشة إحدى أمهات المؤمنين، وقد روى عنها من سنة رسول الله ﷺ الشيء الكثير ونقله للأمة حتى كان أشهر راوٍ عنها فأفاد منه الناس، وتلك كانت أمنيته، فقد اجتمع في الحجر مصعب بن الزبير وعروة بن الزبير وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر، فقالوا: تمنوا، فقال عبدالله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبدالله بن عمر - رضي الله تعالى عنهما: أما أنا فأتمنى المغفرة، فكلهم حصل ما تمنى ولعل ابن عمر قد غفر له.

ومن تأثره بالقرآن دعوة الناس إلى الأخذ بتوجيهاته، عن هشام بن عروة قال: قال أبي: «إذا رأى أحدكم شيئاً من زينة الدنيا وزهرتها فليأت أهله وليأمرهم بالصلاة وليصطبر عليها، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾»[1]، وأهل القرآن ومن ينتسبون إلى العلم هم بأمس الحاجة إلى هذا التوجيه العظيم، الذي خوطب به سيد الخلق وأفضلهم، خير من وطئت قدمه

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٣١، ١٣٢.

الأرض، سيد الأولين والآخرين، الذي ما كانت تهمه الدنيا وزهرتها ولم يكن يقيم لها ولزينتها وزناً، فما هي إلا فتنة وامتحان، ودار غرور وأحزان، المتعلقون بها على وجل، خوفاً من أن تزول عنهم أو أن ينتقلوا عنها بالموت.

وصدق الله القائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1]، وهو القائل سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾[2]، يقول الحسن البصري – رحمه الله: «لقد فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب – أي لذي عقل – بها فرحاً.

كان عروة بن الزبير خير قدوة لمن حوله، يعلم بفعله قبل قوله، ولذلك الأثر البالغ في أهل زمانه، كل هذا في ضوء توجيهات القرآن الكريم وفي ظلال هداياته ودلالاته.

من ذلك أنه إذا كان أيام الرطب يثلم حائطه، ثم يأذن للناس فيه فيدخلون ويأكلون ويحملون، وكان ينزل حوله ناس من أهل البدو، فيدخلون ويأكلون ويحملون، وكان إذا دخله ردد هذه الآية: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[3]، حتى يخرج من الحائط.

كان – رحمه الله – مكباً على تلاوة كتاب الله عز وجل، له ورده منه لا يتركه حضراً ولا سفراً، متأثراً به صبراً على الضراء شكراً لله في السراء، وتلك حال المؤمن، عن ابن شوذب قال: «كان عروة بن الزبير يقرأ ربع القرآن

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

كل يوم في المصحف ويقوم به ليله، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله، ثم عاود حزبه من الليلة المقبلة».

وعن هشام بن عروة قال: «خرج أبي إلى الوليد بن عبدالملك فوقع في رجله الأكلة، فقال له الوليد: يا أبا عبدالله أرى لك قطعها، قال: فقطع وإنه لصائم فما تضور وجهه، قال ودخل ابن له - أكبرُ ولده - اصطبل الدواب فرفسته دابة فقتلته، فما سمع من أبي في ذلك شيء حتى قدم المدينة، فقال: اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة فلك الحمد، وكان لي بنون أربعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وايم الله لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن أبليت طالما عافيت».

وعن عبدالله بن محمد بن عبيد قال: «لم يترك عروة بن الزبير ورده إلا في الليلة التي قطعت فيها رجله، قال وتمثل بأبيات معن بن أوس:

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

أبو العالية الرياحي

من أئمة التابعين في التفسير المعتنين بكتاب الله عز وجل تلاوة وحفظاً، تعلماً وتعليماً أبو العالية رُفيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين، روى عن علي وابن عباس وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - وقد لازمه كثيراً وروى عنه كثيراً في التفسير.

وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير، قال العجلي: «تابعي ثقة من كبار التابعين»، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة، كان يحفظ القرآن ويتقنه، روى قتادة عنه أنه قال: «قرأت القرآن على عمر ثلاث مرات»، ولذا قال فيه ابن أبي داود «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».

كان في بداية حياته لحبه كتاب الله عز وجل يختمه كل ليلة وفي ذلك مشقة وخلاف للسنة، حتى عُرِّف السنة فعمل بها، يقول - رحمه الله: «كنا عبيداً مملوكين، منَّا من يؤدي الضرائب، ومنا من يخدم أهله، فكنا نختم كل ليلة فشق علينا، حتى شكا بعضنا إلى بعض، فلقينا أصحاب رسول الله ﷺ فعلمونا أن نختم كل جمعة، فصلينا ونمنا ولم يشق علينا».

وكان يحث على تعلم القرآن والعناية بذلك مع بيان المنهج السليم والطريق الصحيح في التعامل معه والتأثر به، يقول - رحمه الله: «تعلموا القرآن فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء، فإنها توقع بينكم العداوة والبغضاء، وعليكم بالأمر الأول الذي كانوا عليه قبل أن يتفرقوا».
وكان يقول: «تعلموا القرآن خمس آيات فإنه أحفظ لكم».

وكان – رحمه الله – ممن يرى عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول: «لا تأخذ على ما علَّمت أجراً، فإنما أجر العلماء والحكماء والحلماء على الله عز وجل». ومسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن وغيره من أنواع القرب والطاعات مسألة خلافية بين أهل العلم، قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى: «وأما أخذه الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه، فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه عن جماعة من العلماء، منهم الزهري وأبو حنيفة، وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه، وهو قول الحسن البصري والشعبي وابن سيرين، وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها، إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة»ا.هـ.

إنه ينبغي لطالب العلم أن يتفقد حال شيوخه، فإن هذا العلم دين فلينظر أحدنا عمن يأخذ دينه، وأساس ذلك تعلم القرآن الكريم، يقول أبو العالية: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقده من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت هو لغير الصلاة أضيع».

ففي هذا العناية بالبحث عن الشيوخ الأتقياء العلماء، وبيان منزلة الصلاة في دين الإسلام فهي ركنه الثاني بعد الشهادتين، وهي آخر ما يفقد المرء من دينه، وفيه الرحلة في طلب العلم وتلك منقبة لأبي العالية وغيره ممن رحلوا في أخذ القراءة والسنة، متحملين المصاعب والمشاق والمخاوف والمخاطر.

وفي المقابل فإنه ينبغي للشيخ أن يلين القول لتلاميذه وأن يوطأ كنفه لهم وأن يرحب بهم ويعطف عليهم، فقد كان أبو العالية إذا دخل عليه أصحابه يرحب بهم ثم يقرأ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1].

ومن جملة أقواله التي تنم عن فهم وعلم بكتاب الله عز وجل قوله: «إن الله تعالى قضى على نفسه أن من آمن به هداه، وتصديق ذلك في كتاب الله، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[2]، ومن توكل عليه كفاه، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3]، ومن أقرضه جازاه، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[4]، ومن استجار به من عذابه أجاره، وتصديق ذلك في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾»[5].

وقال أيضاً: «إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين نعمتين، نعمةٍ يحمد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»، وقال أيضاً: «أنتم أكثر صلاة وصياماً ممن كان قبلكم، ولكن الكذب قد جرى على ألسنتكم».

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

محمد بن سيرين

كان للصحابة – رضي الله عنهم – الفضل بعد الله عز وجل على أهل زمانهم ومن بعدهم في تعليم القرآن الكريم وبيان معانيه وتربية من لازموهم وتتلمذوا على أيديهم على منهجه، والتأثر به قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، وبالأخص مواليهم ومن تحت أيديهم، فقد كان لهؤلاء الأرقاء حظ ونصيب وافر من هذا العلم وتلك التربية.

ومن أولئك أبو بكر محمد بن سيرين الأنصاري البصري، مولى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، تملكه أنس ثم كاتبه فوفاه محمد بن سيرين وعجَّل له مال الكتابة قبل حلوله، روى عن أنس وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم.

كان محل تقدير واحترام في أهل زمانه فكثر ثناؤهم عليه، قال عثمان البتي: «لم يكن بالبصرة أحد أعلم بالقضاء من ابن سيرين»، وقال سفيان: «لم يكن كوفي ولا بصري له مثل ورع ابن سيرين»، وقال محمد بن جرير الطبري: «كان ابن سيرين فقيهاً عالماً ورعاً أديباً، كثير الحديث صدوقاً، شهد له أهل العلم والفضل بذلك وهو حجة».

كان محمد بن سيرين كغيره من السلف له ورده من القرآن وحزبه من تلاوته، لا يتركه من الليل مع ما يكون من البكاء والتأثر عند تلاوته وقيام الليل به، قال عز وجل في وصف عباده المتقين الذين نالوا جنة ربهم وتبوؤا نعيمها: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ

مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾(١)، وفي صحيح مسلم يقول - عليه الصلاة والسلام: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**».

أما ما يصحب التأثر عند تلاوة القرآن أو سماعه من الصعق فمنكر عند ابن سيرين وغيره من السلف، وقد يكون كذباً مصطنعاً من فاعله، فقد سئل - رحمه الله - عمن يسمع القرآن فيصعق، فقال: «ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره، فإن سقطوا فهم كما يقولون».

فالذين يتصارخون عند سماع القرآن ويتكلفون ما ليس فيهم ويتصنعون الصعق والغشيان من حال أهل البدع، فماذا يجدي تصنع البكاء بدون تدبر ولا خشوع في القلب، عن عبدالله بن عروة بن الزبير قال: «قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، كما نعتهم الله، قال: قلت: فإن ناساً ههنا إذا سمع أحدهم القرآن خرَّ مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وعن عامر بن عبدالله قال: «جئت أمي فقلت: ما وجدت قوماً ما رأيت خيراً منهم قط، يذكرون الله تعالى فيرعدُ أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله، فقالت: لا تقعد معهم، ثم قالت: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشى من أبي بكر وعمر»؟

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ١٥-١٨.

وعن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – «أنه مر برجل من أهل العراق ساقط، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط، وقال: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ».

فالصعق والغشيان عند قراءة القرآن أو سماعه من أحوال أهل البدع عموماً تصنعاً وتكلفاً أمام الناس، ولم يكن معروفاً عند الصحابة، فعن قتادة أنه تلا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]، ثم قال: «هذا نعت أولياء الله تعالى، نعتهم الله فقال: تقشعر قلوبهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعتهم الله تعالى بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، وإنما هذا في أهل البدع، وإنما هو من الشيطان»، ولهذا كانوا يقولون: «القرآن أكرم من أن يزيل عقول الرجال».

قال بعض أهل العلم: وإن كان وقع شيء من ذلك لأحد من السلف فهو نادر، ولم يكن هو الغالب على حالهم، وإنما يقع لهم بدون تكلف ولا تصنع، وربما كان سببه إذا حدث لبعضهم ضعف في قلبه وعدم احتماله.

لقد كان الإمام التابعي محمد بن سيرين ممن أوتي فهماً صائباً وتوفيقاً مسدداً من الله عز وجل في معاني الذكر الحكيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد قرأ رجل عنده قوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

﴿ قَلِيلًا ۝٦٠ ﴾[١]، فقال: «لا نعلم شيئاً أرجى للمنافقين من هذه الآية، ما علمناه أغرى بهم حتى مات ﷺ».

وكان - رحمه الله - يرى أن أهل الأهواء أسرع الناس ردة، وأن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢]، نعوذ بالله من الهوى، فقد يتخذه صاحبه حين يتبعه ويسير في ركابه إلهاً يعبد من دون الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤ ﴾[٣].

إن العلم ما أورث خشية الله عز وجل والإقبال على طاعته ولزوم ذكره وحسن عبادته وامتثال أوامره مما جاء في كتابه الحكيم أو سنة رسوله الكريم - عليه الصلاة والسلام - وممن وفقهم الله لذلك محمد بن سيرين - رحمه الله - يقول أبو عوانه: «رأيت محمد بن سيرين في السوق فما رآه أحد إلا ذكر الله تعالى»، مما يُرى عليه من أثر الطاعة ونور العبادة، وقال خلف: «كان محمد بن سيرين قد أعطي هدياً وسمتاً وخشوعاً، فكان الناس إذا رأوه ذكروا الله».

وقال موسى بن المغيرة: «رأيت محمد بن سيرين يدخل السوق نصف النهار يكبر ويسبح ويذكر الله تعالى، فقال له رجل: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ قال: إنها ساعة غفلة».

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

وكان - رحمه الله - مضرب المثل ببره بأمه وإحسانه إليها غاية الإحسان، تقول حفصة بنت سيرين: «كان محمد إذا دخل على أمه لم يكلمها بلسانه كله تخشعاً لها»، وعن ابن عون قال: «دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه، فقال: ما شأن محمد؟ يشتكي شيئاً؟ - لما يرى من تواضعه وخفض كلامه بين يدي أمه - فقالوا: لا، ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه»، كلُ هذا امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

كان - رحمه الله تعالى - ممن لا يتساهلون بالفتيا للناس، بل يرى أن الأجدر بها من كان عالماً جامعاً مستكملاً أدوات الاجتهاد، ومما يخص كتاب الله عز وجل العلمُ بناسخه ومنسوخه، فقد روى قول حذيفة: «إنما يفتي الناس أحد ثلاثة، من يعلم ما نُسخ من القرآن قالوا: ومن يعلم ما نسخ من القرآن؟ قال: عمر، أو أمير لا يجد بداً أو أحمق متكلف، ثم قال ابن سيرين: ولست بواحد من هذين ولا أحب أن أكون الثالث».

فعلم الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من العلوم المهمة الجديرة بالدراسة والمعرفة، إذ لا يحل لأحد أن يفسر كلام الله عز وجل ويفتي به إلا بعد العلم بناسخه ومنسوخه، قال أهل العلم: «لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ»، وقال علي - رضي الله عنه -

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

لقاصٍ: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت»، لذا فقد أفرده بعض أهل العلمُ بالتصنيف منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو جعفر النحاس وابن الأنباري ومكي القيسي وغيرهم.

قال الأشعث: «كان محمد بن سيرين إذا سئل عن شيء من الفقه، الحلال والحرام تغير لونه وتبدل، حتى كأنه ليس بالذي كان، ودخل عليه رجل فقال: يا أبا بكر ما تقول في كذا؟ قال: ما أحفظ فيها شيئاً، فقيل له: فقل فيها برأيك، قال: أقول فيها برأيي ثم أرجع عن ذلك الرأي، لا والله».

هكذا كان - رحمه الله - لا تشرئب عنقه للفتيا ولا يتطاول إليها، بل يدفعها إلى غيره، لعلمه عظم القول على الله ورسوله ﷺ، وهكذا كان السلف لا يحرصون على الفتيا بل يتدافعونها بينهم حتى تقع عند من يعلم الحكم الشرعي فيها، فيفتي فيها بما عنده من علم الكتاب والسنة، لا أنهم كانوا يكتمون العلم أو يخفون ما لديهم، فقد كانوا أحرص الناس على التعليم والتوجيه والإرشاد.

إن المؤمن الكيس كما قال النبي ﷺ: «من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (رواه أحمد والترمذي)، فلا يزال المؤمن في محاسبة صادقة لنفسه مع مجاهدتها وأطرها على طاعة الله وكبح جماحها عن المعاصي والذنوب، وذلك مسلك الأخيار وطريق الأبرار، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

لما ركب محمد بن سرين الدين اغتم لذلك، وقال: «إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة»، قال أبو سليمان الداراني: «قلَّت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نؤتى»، وصدق – رحمه الله – فإن من عقوبة الذنب أن يألف العبد ذنبه فلا ينكره ولا يكرهه بل يحبه ويهواه ولا يستطيع الفكاك عنه.

روى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار».

ومن دقيق محاسبة محمد بن سرين نفسه أنه كان يحدث رجلاً فقال: «ما رأيت الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله، ما أراني إلا قد اغتبت الرجل»، وعن ابن عون قال: «كانوا إذا ذكروا عند محمد – يعني ابن سيرين – رجلاً بسيئة، ذكره بأحسن ما يعلم، وكان إذا حدث كأنه يتقي شيئاً أو كأنه يحذر شيئاً»، وقال مورق العجلي: «ما رأيت رجلاً أفقه في ورعه ولا أروع في فقهه من محمد بن سيرين»، وقال أبو بكر المزني: «من أراد أن ينظر إلى أورع من أدركنا فلينظر إلى محمد بن سيرين».

وكان – رحمه الله تعالى – يقول: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه».

وكانت وصيته - رحمه الله تعالى - من مشكاة الوحيين الكتاب والسنة حيث يقول: «أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، وأن يطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1]، وأوصاهم ألا يدعوا أن يكونوا إخوان الأنصار ومواليهم في الدين، فإن العفاف والصدق خير وأبقى».

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

أبو رجاء العطاردي

من أئمة السلف المكبين على تلاوة كتاب الله عز وجل أبو رجاء عمران بن ملحان العطاردي التميمي البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد فتح مكة ولم ير النبي ﷺ، أخذ القرآن وتلقاه عن أبي موسى الأشعري ثم عرضه على ابن عباس – رضي الله عنهما – وكان أسن من ابن عباس، فلم يمنعه ذلك من عرضه كتاب الله عز وجل عليه.

قال ابن الأعرابي: «كان أبو رجاء عابداً كثير الصلاة وتلاوة القرآن، كان يقول: ما آسى على شيء من الدنيا إلا أن أعفر في التراب وجهي كل يوم خمس مرات»، وروي عنه أنه كان يختم القرآن كل عشرة أيام، كما هو هدي بعض السلف.

وهذه إحدى وصاياه لمن يعظ الناس بالقرآن حيث يقول: «والله لقد أنبئت أن رجالاً منكم يقصون على الناس ويملونهم من كتاب الله عز وجل، فلا تفعلوا واتبعوا كتاب الله ما استطعتم ثم خلوا عنهم، فإن للناس حوائج وأهلين»، فهذا مما يجب على الواعظ والمتحدث أن ينتبه له ولا يغفل عنه، فقد يستحلي حديثه ويعجبه ويرى صمت الناس أمامه ولعله يكون عن ضجر وملل، فالكلام إذا كثر أنسى آخرُه أوله.

وقد بوّب البخاري في صحيحه في كتاب العلم باب ما كان النبي ﷺ يتخلوهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ثم روى عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة

علينا، وروى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»، ثم في الباب الذي يليه قال: «باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة»، وأورد فيه قصة حديث ابن مسعود السابق، عن أبي وائل قال: «كان عبدالله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا».

ثابت بن أسلم البناني

إن ممن يضرب بهم المثل في رواية السنة وكثرة العبادة والتأثر بكتاب الله عز وجل من السلف ثابت بن أسلم البناني أبا محمد البصري، روى عن نفر من الصحابة منهم عبدالله بن عمر وعبدالله بن مفضل المزني وعبدالله بن الزبير وأنس بن مالك وقد أكثر عنه - رضي الله عنهم أجمعين.

أثنى عليه بما سبق من عرفه ولازمه وسبر أحواله، يقول أنس بن مالك - رضي الله عنه: «إن للخير مفاتيح، وإن ثابتاً مفتاح من مفاتيح الخير»، وقال بكر بن عبدالله المزني: «من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه فلينظر إلى ثابت البناني، فما أدركنا الذي هو أعبد منه، إنه ليظل في اليوم المعمعاني - أي يوم الصيف الحار - صائماً، يراوح ما بين جبهته وقدمه» أي من طول القيام بالصلاة.

كان - رحمه الله - رقيق القلب سريع الدمع، وتلك علامة خير للعبد، قال مرةً له أنس: «ما أشبه عينيك بعيني رسول الله ﷺ فما زال يبكي»، وهكذا كان عند تلاوة آي القرآن الكريم يبكي ويُبكي من حوله، فقد قرأ مرة قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾[1]، فقال: «تأكله إلى فؤاده وهو حي، لقد تبلَّغ فيهم العذاب، ثم بكى وأبكى من حوله».

قال حماد بن سلمة: «قرأ ثابت: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

---

(١) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧.

﴿نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[(١)]، وهو يصلي صلاة الليل، ينتحب ويرددها»، وترديد الآية من باب التفكر والتدبر أمرُ مشروع لا حرج فيه، فقد روى النسائي وأحمد وغيرهما بسند صحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قام بآية يرددها حتى أصبح، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[(٢)].

كانت أوقات ثابت البناني معمورة بطاعة الله إما بتلاوة القرآن الكريم والإكثار من ذلك، وإما برواية سنة النبي ﷺ وتعليمها الناس وإما بالصلاة وطول القيام وغير ذلك، قال همام بن يحيى العوذي: «ما رأيت قط أصبر على طول القيام والسهر من ثابت البناني، صحبناه مرة إلى مكة، فكنا إن نزلنا ليلاً فهو قائم يصلي، وإلا فمتى شئت أن تراه أو تحس به مستيقظاً ونحن نسير إما باكياً وإما تالياً».

وكان - رحمه الله - يقول: «ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل»، وما كان له هذا إلا بتوفيق من الله وهداية وإعانةٍ ثم بمجاهدة نفسه على قيام الليل، والله عز وجل ق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[(٣)]. قال - رحمه الله: «كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة»، ويحكي حال زمانه الأخيار فيقول: «كنا نتبع الجنازة فما نرى إلا متقنعاً باكياً أو متقنعاً متفكراً»، وكان - رحمه الله - يقول: «ما أكثر أحدٌ ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله».

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

ولهذا كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بذلك والوصية للأمة من بعدهم، ففي صحيح البخاري أنه أخذ بمنكب ابن عمر وقال له: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، ومن كان كذلك فإنه لا يرمي في الدنيا حبالاً طوالاً ويؤمل العيش والبقاء فيها، فالله تعالى يقول: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴿١٨٥﴾ ﴾[1]، ولذلك كان ابن عمر – رضي الله عنهما – يقول: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك**»، ويقول الحسن البصري: «لقد فضح الموتُ الدنيا، فلم يدع الذي لب – أي لذي عقل – بها فرحاً».

والذي روي عن الإمام ثابت البناني في تفسير أي القرآن الكريم قليلٌ بالنسبة لما روي عن غيره، ومع ذلك فكانت له استنباطات دقيقة وإشارات نافعة إلى هدايات بعض الآيات، كقوله: «الصلاة خدمة الله في الأرض، لو علم الله شيئاً أفضل من الصلاة لما قال: ﴿ **فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ** ﴾»[2]، فهي ولا شك أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي الفيصل بين الإيمان والكفر، يقول – عليه الصلاة والسلام: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**» (رواه النسائي والترمذي وابن ماجه)، ويقول – عليه الصلاة والسلام: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**» (رواه مسلم).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

وقرأ مرة سورة فصلت حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، فقال: «**بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعد، قال: فيؤمِّن الله خوفه، ويقر الله عينه، فما عظيمةٌ تغشى الناسَ يوم القيامة إلا والمؤمن في قرة عين، لما هداه الله له، ولما كان يعمل له في الدنيا**».

وهذا أحد الأقوال في تفسير نزول الملائكة، وقال زيد بن أسلم: «يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث»، قال الحافظ ابن كثير: «وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً وهو الواقع».

ومما قيل في معنى الاستقامة ومفهومها، أن عمر – رضي الله عنه – تلا هذه الآية على المنبر ثم قال: «استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب»، وقال ابن عباس وقتادة: «الاستقامة أداء الفرائض»، وقال الحافظ ابن كثير: «أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم»[2].

ولا ريب أن الاستقامة على طاعة الله أمرها عظيم وشأنها كبير، فقد أمر الله بها صفوة خلقه وأكرمهم وأفضلهم، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾[3]،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/٩٨-٩٩.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٢.

وبها كان – عليه الصلاة والسلام – يوصي أصحابه، ففي صحيح مسلم من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي أن رجلاً قال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، فقال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»، وفي رواية الإمام أحمد قال: قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: «**هذا**».

وفي الصحيحين ومسند الإمام أحمد واللفظ له عن عائشة وأنس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله : «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»، قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت، فقال ﷺ: «**ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضر – أي نزل به الموت – جاءه البشير من الله تعالى، بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى، فأحب الله لقاءه، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه**».

قتادة بن دعامة

من أئمة التفسير الذين دونت أقوالهم في كتب التفسير بكثرة أبو الخطاب قتادة بن دِعامة السدوسي البصري الضرير، كان من أوعية العلم وممن يضرب به المثل في الحفظ، فقد كان آيةً فيه، قال بكر بن عبدالله المزني: «من أراد أن ينظر إلى أحفظ أهل زمانه فلينظر إلى قتادة، فما أدركنا الذي هو أحفظ منه»، وكان – رحمه الله – يقول: «ما سمعت أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي»، وقال أيضاً: «تكرير الحديث يذهب بنوره، وما قلت لأحد قط أعد علي»، ولذلك قال عنه محمد بن سيرين: «قتادة أحفظ الناس أو من أحفظ الناس».

ولا شك أن قوة الحفظ وثباته نعمة من الله عز وجل يختص بها من أخلص النية له وجد واجتهد وحذر من الذنوب والمعاصي، فإنها تضعف الحفظ وقد تزيله وتذهبه، يقول الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ومن ذلك حفظه للقرآن وإتقانه، فذات مرة قال لسعيد بن المسيب خذ المصحف فأمسك علي، قال: فقرأ سورة البقرة فما أسقط منها واواً ولا ألفاً ولا حرفاً، ثم قال: يا أبا النضر أحكمتُ؟ قال: نعم، فقال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة، وإنما قدمتُ عليه مرة واحدة».

وهذا الحفظ القوي والإتقان التام يستدعي مراجعة للقرآن ولما حفظه من سنة النبي ﷺ، أما تلاوته للقرآن فتلك عبادة عظيمة وبخاصة في الأوقات

الشريفة والأزمنة الفاضلة، كما هو هدي النبي ﷺ فإنه كان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أيقظ أهله وأحيا ليله وجد وشد المئزر، فقد كان قتادة – رحمه الله تعالى – يختم القرآن في كل سبع ليال مرة، فإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث ليال مرة.

ويتبع هذا الحفظ والإتقان والتلاوة المستمرة العلم بما فيه من أحكام والمعرفة بمعانيه وتفسيره، وقد ساعده على ذلك قوة الحافظة وسعة الاطلاع على أشعار العرب وأيامها وأنسابها، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير، ورويت عنه في ذلك أقوال كثيرة، يقول عن نفسه: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً»، وعنه قال: «ما سمعت شيئاً إلا حفظته»، وما زال – رحمه الله – يتعلم ويطلب العلم حتى مات، يقول مطر الوراق: «ما زال قتادة متعلماً حتى مات»، ومن جهة أخرى فقد كان حريصاً على تعليم الناس ما تعلم من تلاوة القرآن وتفسيره والعلم بمعانيه، يقول أبو عوانة: «شهدت قتادة يدرس القرآن في رمضان»، اغتناماً للخيرية التي ذكرها النبي ﷺ فيما صح عنه، حيث يقول: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، فكيف إذا كان هذا التعليم في شهر رمضان شهر القرآن، ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ**﴾[1].

قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله: «كان قتادة عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ وأطنب في ذكره، وقال: قلّما تجد من يتقدمه»، وقال أيضاً: «كان قتادة أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئاً إلا حفظه، قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

إن القرآن الكريم مأدبة الله في أرضه كما يقول بعض السلف، فالمؤمن يجد فيه الهدى والنور والرحمة، والكافر أو الفاجر المعرض عن هداياته ودلالاته محروم من الخير تائه في طرق الشيطان ومسالكه، يقول قتادة – رحمه الله: «لم يجالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضاء الله عز وجل، الذي قضى: ﴿ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾[1].

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ ﴾[2]، «البلد الطيب: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه فأخذ به فانتفع به، كمثل هذه الأرض أصابها الغيث فأنبتت وأمرعت، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا ﴾، عسراً، وهذا مثل الكافر، قد سمع القرآن فلم يعقله ولم يأخذ به ولم ينتفع به، كمثل هذه الأرض الخبيثة أصابها الغيث فلم تنبت شيئاً ولم تمرع شيئاً».

وأمثال هذا الفهم لآي القرآن الكريم كثيرة، منها: قول تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾[3]، قال قتادة: «لا يقبل قول إلا بعمل، فمن أحسن العمل قبل الله قوله».

وقال – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾[4]، «هذا عبد نوى الدنيا، لها أنفق ولها شخص ولها نصب ولها عمل، لها همه ونيته وطلبته، وقوله تعالى:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾[١]، هذا عبد نوى الآخرة ولها شخص ولها أنفق ولها عمل ولها نصب، وكانت الآخرة همه وطلبته ونيته، وقد علم الله تعالى أنه سيزل زالون من الناس فتقدم في ذلك وأوعد فيه، لكي تكون الحجة لله على خلقه».

وقال - رحمه الله تعالى - في قوله عز وجل: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٢]، «حنت قلوبهم إلى ذكر الله واستأنست به، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[٣]. قال: كان كثير الصلاة في الرجا فنجا، وكان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر، وإذا ما صرع وَجَد متكأ».

وعنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[٤]، قال: «كفى بالرهبة علماً، اجتنبوا نقض الميثاق، فإن الله قدَّم فيه وأوعد، وذكره في آي من القرآن تقدمة ونصيحة وحجة، إياكم والتكلف والتنطع والغلو والإعجاب بالأنفس، تواضعوا لله لعل الله يرفعكم».

ومن أقوال الإمام التابعي قتادة - رحمه الله تعالى - التي تنم عن فقه وبصيرة وعلم، ومعرفة بأحوال الصحابة وهديهم وسمتهم - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - قوله - رحمه الله: «كان المؤمن لا يعرف إلا في ثلاثة مواطن، بيتٍ يستره أو مسجد يعمره، أو حاجة من الدنيا ليس بها بأس»، ومراده -

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

رحمه الله - النهي عن كثرة الخلطة وفضول المعاشرة، وكذا التحذير من التعلق بالدنيا واللهث وراءها والسعي في جمع حطامها الفاني.

وقال أيضاً: «باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح الناس أفضلُ من عبادة حول كامل»، وقال أيضاً: «من أطاع الله في الدنيا خلصت له كرامة الله في الآخرة»، وقال أيضاً: «من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل».

محمد بن واسع – مالك بن دينار

إن خير ما تعاون عليه الصالحون الأبرار العناية بكتاب الله عز وجل حفظاً وتلاوة، تعلماً وتعليماً، تأثراً به وسيراً على نهجه، ودعوة الناس إليه وبيان هداياته ودلالاته لهم، والتواصي على ذلك والتناصح من أجل تحقيقه وامتثاله.

من أولئك النفر الإمامان التابعيان الجليلان محمد بن واسع ومالك بن دينار، ولعلي أقف مع كل واحد منهما وقفات موجزة لبيان ذلك.

أما أبو بكر محمد بن واسع بن جابر الأزدي البصري فهو أحد الأئمة الأعلام في الزهد والعبادة والصلاح، روى عن أنس بن مالك وعبيد بن عمير ومطرف بن الشخير وغيرهم، وهو قليل الرواية للحديث.

كان – رحمه الله تعالى – على درجة عظيمة من الحرص على الإخلاص وقيام الليل وتلاوة القرآن، حتى كان يقال عنه إنه زين القراء، قال أبو الطيب موسى بن بشار: «صحبت محمد بن واسع من مكة إلى البصرة، فكان يصلي الليل في المحمل جالساً يومئ برأسه إيماء، وكان يأمر الحادي يكون خلفه ويرفع صوته حتى لا يفطن له».

وحكى – رحمه الله تعالى – حال السلف في إخلاصهم وإخفاء أعمالهم وخشيتهم من الله عز وجل وأثر ذلك من البكاء فيقول: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه».

وكان مع هذا الصلاح وكثرة العبادة إذا قيل له كيف أصبحت؟ قال: «قريباً أجلي، بعيداً أملي، سيئاً عملي»، وكان يقول: «إذا قيل له كيف أصبحت»؟ «ما ظنك برجل يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة»، كل هذا إزراء بنفسه وعدم إعجاب بعمله.

ومن قوله في عظيم نعمة الله عز وجل على أهل القرآن قوله: «القرآن بستان العارفين، فأينما حلوا منه حلوا في نزهة»، وكان – رحمه الله قريباً منهم ومن غيرهم يزورونه ويجالسونه، يتعلمون منه الهدي والسنة، ويتزودون منه بزاد التقوى وخشية الله سبحانه، لما عرفوا له من قدر ومنزلة، قال أحدهم: «كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى محمد بن واسع وجالسته فأذهب الله ما بي»، ولما قيل للحسن البصري «من أصاحب؟ قال: صاحب من إذا رأيته ذكرك الله».

وخرج مرة للجهاد ورد كيد الأعداء مع قتيبة بن مسلم في جيشه وكان صاحب خراسان، فبعث إلى المسجد ينظر من فيه، فقيل له: ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه، فقال قتيبة: «إصبعه تلك أحب إلي من ثلاثين ألف عنان»، يريد: أن دعوة محمد بن واسع لهم بالنصر على الأعداء لما له من القرب والصلاح أحب إليه من ثلاثين ألف فارس.

وروي أن قاصاً قال له: مالي أرى القلوب لا تخشع والعيون لا تدمع والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد بن واسع: يا فلان ما أرى القوم أُتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب».

ومن أقواله النافعة الجامعة: «إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله أقبل الله بقلوب

المؤمنين إليه»، وقاله مرة رجل «يا محمد بن واسع أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال: كيف لي بذلك؟ قال: ازهد في الدنيا»، وكان يقول – رحمه الله: «لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني من نتن ريحي» رحمه الله رحمة واسعة ونسأل الله المن علينا بستره في الدنيا والآخرة.

أما صاحبه فمالك بن دينار من العلماء الأبرار الزهاد العباد، معدود في ثقات التابعين، كان – رحمه الله تعالى – معتنياً بكتاب الله عز وجل تعلماً وتعليماً، يكتب المصاحف وينسخها لعلمه ومعرفته بذلك ولم يكن يأخذ على ذلك أجراً، فإن أعطيه تركه لمن يأخذه.

كان يكثر من تلاوة القرآن ولا يفتر عنه ويوصي الناس بذلك، فهو النعيم والأنس والأجر العظيم، يقول – رحمه الله تعالى: «خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟ قال: معرفة الله تعالى وذكره»، وقال أيضاً: «ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله عز وجل».

ويحكي حال الصديقين من عباد الله فيقول: «إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة، ثم قال: خذوا، فيقرأ ويقول: اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه»، ولا بد أن يكون لأهل القرآن وحملته نظر في مدى تأثرهم بالقرآن وسيرهم على نهجه وتمسكهم به.

يقول مالك بن دينار – رحمه الله: «يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحش، فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن

موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب السورة؟ أين أصحاب السورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟» وكان - رحمه الله - القدوة والأسوة لهم، فقد قرأ مرةً قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[1]، ثم قال: «أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه».

يقول الحارث بن سعيد: «كنا عند مالك بن دينار، وعندنا قارئ يقرأ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾[2]، فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكون، حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[3]. قال: فجعل مالك يبكي ويكثر البكاء».

وكان يقول - رحمه الله: «عجباً لمن يعلم أن الموت مصيره والقبر مورده كيف تقرُ بالدنيا عينه؟ وكيف يطيب فيها عيشه؟ ثم يبكي»، هكذا كانوا - رحمهم الله - في رقة قلوبهم وسرعة تأثرهم وبكائهم، قال بعض أهل العلم: «خمس من الشقاء: قسوة القلب وجمود العين وركوب بحر التمني وحب الدنيا وطول الأمل».

ومن عجيب ما ذكر عنه في سيرته أنه دخل عليه لص فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك لم تجد شيئاً من الدنيا، أفترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه».

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ١.

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

ومن أقواله: «كان الأبرار يتواصون بثلاث، بسجن اللسان وكثرة الاستغفار والعزلة»، ولما رأى متكبراً يمشي في السوق والناس ينظرون إليه، قال هذا المتكبر لمالك: «أما تعرفني؟ فقال: أعرفك أحسن المعرفة، قال: وما تعرف مني؟ قال: أما أولك فنطفة مذرة، وأما آخرك فجيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة».

وقال أيضاً: «نظرت في أصل كل إثم فلم أجده إلا حب المال، فمن ألقى عنه حب المال فقد استراح»، وقال: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة عن الصفا»، وقال أيضاً: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب».

هرم بن حيان

لا يزال الحديث موصولاً في عرض نماذج مشرقة وسير عطرة من حياة السلف – رحمهم الله تعالى – في تأثرهم بالقرآن قولاً وعملاً وعنايتهم به تلاوة وحفظاً، تعلماً وتعليماً، يقول الإمام أبو حنيفة – رحمه الله تعالى: «سيرُ الرجال أحب إلينا من كثير من أبواب الفقه»، إذ الوقوف على سيرهم النيرة ومواقفهم المشرقة ومطالعة أخبارهم ومآثرهم معين ولا شك على الاقتداء بهم والاهتداء بمنارهم، حيث السمو والنقاء والمثل والقيم والفضائل، والخوف والخشية والحرص على اتباع السنة.

ومن أولئك الإمام التابعي الجليل هرمُ بن حيان العبدي البصري، أحد العباد الزهاد، قال مطر الوراق «بات هرم بن حيان العبدي عند حُممة صاحب رسول الله ﷺ فبات حممة ليلته يبكي حتى أصبح، فلما أصبح قال له هرم: يا حممة ما أبكاك؟ قال: ذكرت ليلةً صبيحتها تبعثر القبور فتخرج من فيها فأبكاني ذلك، قال: وكانا يصطحبان أحياناً بالنهار فيأتيان سوق الريحان فيسألان الله تعالى الجنة ويدعوان، ثم يأتيان الحدادين فيتعوذان من النار، ثم يفترقان إلى منازلهما».

وهكذا المسلم يربط ما يشاهده في الدنيا بالآخرة، قال بعض أهل العلم: «إن رأى زحام الناس وكثرتهم تذكر الحشر وازدحام الناس فيه كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾[1]، وإذا خلع ثيابه ولبس إحرامه

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

للحج أو العمرة تذكر انتقاله من الدنيا بكفنه تاركاً ما وراءه من مال ولباس وسكن وغير ذلك».

كان هرم بن حيان يتأمل آيات القرآن الكريم فينادي ويدعو من أعرضوا عن هداياته وانشغلوا بغيره عنه، كان يقول: «عجبت من الجنة كيف ينام طالبها، وعجبت من النار كيف ينام هاربها، ثم قرأ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾[(1)]، وكان يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾[(2)]، ويقول: «أخرجوا من قلوبكم حب الدنيا، وأدخلوا قلوبكم حب الآخرة».

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله تعالى – عند تفسيره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾[(3)]، «وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً وجلاً، أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وألا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد – ولو بلغت به الحال ما بلغت – فليس على يقين من السلامة».

لذا وجبت الوصية بالقرآن تلاوة وتعليماً، تدبراً وتأثراً، وذلك لمن أخبر

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٧.

(٢) سورة التكاثر، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ٩٧-٩٩

عنه تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، جاء في سيرة هرم بن حيان أنه لما حضره الموت قيل له: «أوص، قال: ما أدري ما أوصي، ولكن بيعوا درعي فاقضوا عني ديني فإن لم يف فبيعوا غلامي، وأوصيكم بخواتيم النحل، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2]، وفي رواية أخرى وأوصيكم بخواتيم سورة البقرة».

وكان يقول: «ما آثر الدنيا على الآخرة حكيم، ولا عصى الله كريم»، وقال مرة: «إياكم والعالم الفاسق فبلغ عمر، فكتب إليه – وأشفق منها – ما العالم الفاسق؟ فكتب: ما أردت إلا الخير، يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق ويشبه على الناس فيضلوا».

وهنا تكمن الخطورة حين يخالف العالم قوله، ولا يعمل بما أفاء الله عليه وفتح له من أبواب الفقه والعلم، فيضل بسببه فئام من الناس، ممن يرى فيه القدوة والأسوة، ففي الحديث الصحيح يقول – عليه الصلاة والسلام: «**لن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن شبابه فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به**»، قال أبو الدرداء – رضي الله عنه – «إنما أخاف أن يقال في يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فأقول: بلى علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله عز وجل

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

آمرةٌ أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة هل ائتمرت، والزاجرة هل ازدجرت، فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع».

وقال عمر – رضي الله عنه – لكعب الأحبار: «ما يُذهب العلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه ووعوه؟ فقال: يذهبه الطمع وتطلب الحاجات إلى الناس»، وقال أبي بن كعب: «تعلموا العلم واعملوا به، ولا تتعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يُتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه»، وقال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا».

صفوان بن محرز

من الصورة المشرقة من حياة السلف في تأثرهم بالقرآن قولاً وعملاً ما جاء في سيرة الإمام التابعي الجليل صفوان بن مُحرزٍ المازني التميمي، من أئمة السلف وسابقيهم في العلم والزهد والورع وكثرة العبادة، يقول الحسن البصري – رحمه الله: «لقد رأيت أقواماً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق ألا تقبل منهم من سيئاتكم، ولقد صحبت أقواماً كان أحدهم يأكل على الأرض وينام على الأرض، منهم صفوان بن محرز المازني».

كان – رحمه الله تعالى – مكباً على تلاوة القرآن لا يفتر عنه إلا لحاجة، يجلس بعد الفجر فيقرأ حتى يترجل النهار، ثم يقرأ دبر كل صلاة ما تيسر له ثم يحيي به ما تيسر له من قيام الليل، وذلك دليل محبته لكلام الله عز وجل وأنسه بتلاوته، يقول عثمان – رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله عز وجل»، كل هذا برقة قلب ودمع عين وتأثر به في القول والعمل والوعظ والتذكير، يقول عبدالله بن رباح: «كان صفوان بن محرز إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]، يبكي حتى أقول اندق قصيص زوره»، أي: عظام صدره.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

وقال غيلان بن جرير: «كانوا يجتمعون – هو وإخوانه – فيتحدثون فلا يرون تلك الرقة، قال: فيقولون: يا صفوان حدث أصحابك، قال فيقول: الحمد لله، قال: فيرق القوم وتسيل الدموع من أعينهم، وكأنها أفواه المزادة».

وهكذا الموعظة إذا خرجت من قلب صادق عاملٍ بما يعلم تقر في القلوب وتؤتي أكلها طيبة بإذن ربها بخلاف ما يخرج من اللسان فإنه يجاوز الآذان.

سليمان التيمي

من أئمة السلف الصالح في العلم ورواية السنة وكثرة العبادة أبو المعتمر سليمان بن طَرْخان التيمي البصري، روى عن أنس بن مالك وأبي عثمان الهندي وبكر بن عبدالله المزني والحسن البصري وغيرهم، وروى عنه أبو إسحاق السبيعي أحد شيوخه وابنه معتمر وشعبة وسفيان وغيرهم، قال شعبة: «ما رأيت أحداً أصدق من سليمان التيمي – رحمه الله – كان إذا حدث عن النبي ﷺ تغير لونه»، تعظيماً للرواية عنه ﷺ، وقال ابن سعد: «من العباد المجتهدين، كثير الحديث ثقة».

وكان – رحمه الله تعالى – مع هذا المبلغ من العلم ورواية السنة وتعليمها الناس كثير العبادة لا يفوته وقت في غير طاعة وقربة، أوفي مباح تكون فيه نية صالحة فيكون عبادة، وهكذا الأكياس الأخيار الموفقون من عباد الله، يقول حماد بن سلمة: «ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه مطيعاً، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئاً أو عائداً مريضاً، أو مشيعاً جنازة أو قاعداً في المسجد».

وهكذا المؤمن لا يزيده طول عمره إلا خيراً، يتزود من الصالحات ويسارع في ما يرضي الله عز وجل ويسابق في ميادين الخير، يحاسب نفسه على فوات القليل قبل الكثير من وقته، عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى**

يسأل عن خمس – وفي رواية عن أربع – **عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**» (رواه الترمذي بسند حسن) .

كان سليمان التيمي على درجة عظيمة في الخوف من الله عز وجل، عرف ذلك عنه من جالسه وتتلمذ على يديه، ورأوا ذلك منه حين يتلو كتاب الله عز وجل فيقف عند آياته متدبراً متأملاً، قال علي بن المديني: «ذكرنا التيمي عند يحيى بن سعيد فقال: ما جلسنا عند رجل أخوف من الله تعالى منه»، وقال معمر مؤذن التيمي: «جلس إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة وسمعته يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾[(١)]. فلما أتى هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[(٢)]، جعل يرددها حتى خف أهل المسجد فانصرفوا»، وترديد الآية للاعتبار والتفكر ثابت في السنة، فقد روى النسائي وأحمد بسند صحيح رجاله ثقات عن أبي ذر – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قام بآية يرددها حتى أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١١٨﴾[(٣)].

وعن الفضيل بن عياض قال: «قيل لسليمان التيمي أنت وأنت ومن مثلك؟ قال: لا تقولوا هكذا، لا أدري ما يبدو لي من ربي عز وجل، سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾»[(٤)]، فالمؤمن

---

(١) سورة الملك، الآية: ١.

(٢) سورة الملك، الآية: ٢٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

العاقل لا يزال يُزري بنفسه ولا يزكيها ويرفع من قدرها أمام ربه، ولا يدلي بعمله ويُعجب به، بل يحمد الله عز وجل أن وفقه للعمل الصالح ويسأله القبول والعفو عما يكون فيه من خلل أو تقصير، يدعو بدعاء النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل بعد أن رفعا الكعبة وبنياها وهذا من أشرف الأعمال وأجل القرب، قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [1].

وقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان في باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر قول إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي، إلا خشيت أن أكون مكذباً»، وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل».

فالشيطان يدخل على المؤمن من بابين لا يبالي بأيهما ظفر، إما أن يوقعه في المعصية والذنب، وإما أن يفسد عليه عمله الصالح بالرياء والإعجاب به والامتنان به على الله، والمؤمن العاقل لا يجزم بقبول عمله بل يسأل الله ذلك ويخشى مما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ، ومع هذا فإن المؤمن مطالب بأن يجمع بين الأمرين الخوف من الله سبحانه والرجاء فيما عنده، ويغلب جانب الرجاء محسناً الظن بربه عند احتضاره ونزول الموت به، عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**» (رواه مسلم) ، ولذا لما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه المعتمر: «يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا أحسن الظن به».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

ومما أثر عنه قوله: «الحسنة نور في القلب وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب وضعف في العمل»، وقال أيضاً: «إن الرجل ليذنب فيصبح عليه مذلته»، وصدق - رحمه الله تعالى - فإن للمعاصي ذلاً وهواناً في وجوه أصحابها لا يرى ذلك إلا البصراء من عباد الله، يقول الحسن البصري: «إنهم - أي أصحاب الأهواء والمعاصي - وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية في وجوههم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

قال ابن القيم - رحمه الله: «ومنها - أي من آثار الذنوب والمعاصي - أن المعصية تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[1]، أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته، وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك».

وأعظم من ذلك أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه كما يقول ابن القيم: «قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[2]، وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه»[3].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٣) الجواب الكافي، ٨١.

ومن أقوال سليمان التيمي – رحمه الله: «لو أخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»، وهو مروي عن الشافعي أيضاً فالعمدة الكتاب والسنة وما عليه أهل العلم، أما تتبع زلات العلماء وأخطائهم والعمل بها فخطأ مردود على صاحبه، ولا يعذر بذلك، فكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا نبينا وقدوتنا – عليه الصلاة والسلام.

طلق بن حبيب

لا يزال الحديث موصولاً عن حياة السلف الصالح مع القرآن الكريم وتأثرهم به، منهم طلق بن حبيب العنزي البصري، من الزهاد العباد، العلماء العاملين، روى عن عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم، كان - رحمه الله - معروفاً بحسن الصوت وطيبه، قال طاووس: «ما رأيت أحداً أحسن صوتاً منه، وكان ممن يخشى الله تعالى» وهو القائل: «أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله عز وجل».

فليس المراد بالتلاوة تحسين الصوت بها وترتيل الآيات فقط، بل لا بد أن يصحب ذلك تأثر وخشوع وخشية من الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، عن عبدالأعلى التيمي قال: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه فليس بخليق أن يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تبارك وتعالى نعت العلماء، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾»[2].

ومما اشتهر عن طلق بن حبيب تفسيره المراد بالتقوى، حيث قال:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٧.

«التقوى: العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك المعاصي على نور من الله مخافة عقاب الله عز وجل».

قال الذهبي: «أبدع وأوجز، فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍ من العلم والاتباع، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله، لا ليقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفاً من الله لا ليمدح بتركها، فمن داوم على هذه الوصية فقد فاز»(١).

ومما قيل في معنى التقوى: قول عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه: «التقوى: أن يطاع الله عز وجل فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»، وقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: «التقوى: الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة من الدنيا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل»، وقول الحسن البصري: «التقوى: ألا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك».

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٦٠١.

يزيد بن أبان الرقاشي

من أئمة التابعين يزيد بن أبان الرقاشي روى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - كثيراً، كان رحمه الله كثير العبادة طويل القيام بالليل، يرتل آيات القرآن متأثراً متعظاً بما فيها، قال ثابت البناني: «ما رأيت أحداً أصبر على طول القيام والسهر من يزيد بن أبان»، مع كثرة البكاء وسرعة دمع العين، وتلك علامة خير ورشد بالعبد، أن يكون رقيق القلب حيي الضمير سريع الدمع، كان يقول: «يا معشر من القبر بيته والموت موعده ألا تبكون»، ثم يبكي ويبكي من حوله، وكان يقول: «يا إخوتاه ابكو فإن لم تجدوا بكاءً فارحموا كل بكاء».

وكان يتمثل قول الشاعر:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى يدني من الأجل

وكان يوصي بقوله: «خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها وإن لم يعمل بها، فإن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [1]، ألا تحمد من تعطيه فانياً فيعطيك باقياً، درهم يفنى بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف، أما لله عندك مكافأة، مطعمك ومسقيك وكافيك، حفظك في ليلك وأجابك في ضرائك، كأنك نسيت وجع الأذن أو ليلة وجع العين، أو خوفاً في بر أو خوفاً في بحر، دعوته فاستجاب لك» .. إلخ كلامه - رحمه الله تعالى.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

ومما يروى في إخفاء السلف أعمالهم عن الناس وعدم التحدث بها ما يرويه أبو التياح يزيد بن حميد الضبعي عن أهل زمانه فيقول: «أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم ادَّهن ولبس صالح ثيابه، ولقد كان الرجل يقرأ عشرين سنة ما يعلم به جيرانه»، وكان - رحمه الله - يقول: «والله إنه لينبغي للرجل المسلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جداً واجتهاداً ثم بكى».

فأول ما يحرص عليه قارئ القرآن ومتعلمه ومن رام التأثر به إخلاص ذلك لله عز وجل، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾[1]، وعلامة ذلك ما جاء في كلام ذي النون حيث يقول: «ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة».

وقال الفضيل بن عياض: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما».

فيجب على العبد حين يقبل على قراءة القرآن وغيره من العبادات أن يخلص قصده ونيته لله في تلاوته وتعلمه وطلب تدبره وتفهمه، لا أن يكون قصده التعالي على الخلق أو الشهرة أو التكاثر بالأعمال أو مماراة السفهاء وغير ذلك، والمرائي بذلك هو من أول من تسعر به نار جهنم يوم القيامة، فقد روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

يقول: «**إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**».. الحديث.

فينبغي لحامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويخلص العمل لله، فإن وقع في خلاف ذلك فليبادر بالتوبة والإنابة وليقلع عما هو فيه من حب الشهرة وصرف أنظار الناس إليه وطلب التمدح والثناء منهم، فالذي يلزم حامل القرآن من العناية بهذا الأمر أكثر من غيره، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره. فمن سلك طريق تعلم القرآن وحفظه ومن رام التأثر به وطلبه أعانه الله على ذلك ووفقه له مع الإخلاص لله فيه، فالله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(١).

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

أبو الجوزاء أوس بن عبدالله الربعي

من التابعين العلماء الأئمة الذين تتلمذوا على ابن عباس أبو الجوزاء أوس بن عبدالله الربعي البصري، حدث عن عائشة وعبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهم.

يقول – رحمه الله عن نفسه: «جاورت ابن عباس اثنتي عشرة سنة في داره، وما من القرآن آية إلا وقد سألته عنها، وكان رسولي يختلف إلى أم المؤمنين – يعني عائشة – غدوة وغشية».

وقد أفاد من هذه الصحبة والملازمة لابن عباس طيلة هذه المدة العلم الغزير الواسع بتفسير كلام عز وجل ومعرفة أحكامه ومعانيه، والتأثر بذلك قولاً وعملاً.

فقد كان – رحمه الله تعالى – من الزهاد العباد الذين يكثرون من الصيام وطول القيام وتلاوة القرآن، وذكر الله، ولا يمل من هذه العبادات أو ينفر منها ويبغضها إلا من ضعف الإيمان في قلبه واستولى عليه الشيطان وتمكن منه، يقول – رحمه الله: «والذي نفسي بيده إن الشيطان ليلزم بالقلب، حتى ما يستطيع صاحبه ذكر الله، ألا ترونهم في المجالس يأتي على أحدهم عامة يومه لا يذكر الله إلا حالفاً، والذي نفس أبي الجوزاء بيده ماله في القلب طرد إلا قول لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[1]».

وكان يقول: «نقل الحجارة أهون على المنافق من قراءة القرآن».

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.

فالموفقون من عباد الله يحبون تلاوة كتاب الله عز وجل ويأنسون بذكره سبحانه، ويرون في ذلك نعيم قلوبهم وراحة نفوسهم وطمأنينتها كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾[1]، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به.

وقد قسَّم النبي ﷺ أحوال الناس مع القرآن تلاوة وعملاً إلى أربعة أقسام فيما رواه أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر**» (متفق عليه).

إن الخير كل الخير ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والقدوة في ذلك إمام المتقين وسيد الأولين والآخرين – عليه الصلاة والسلام – ومن ذلك هديهم في الخشوع التأثر حال تلاوة القرآن، وقد أبان الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[1]، أما ما حدث بعدهم من الصعق والغشي والسقوط فأمرٌ حادث مبتدع ما كان معروفاً عنهم ولا من هديهم، يقول عمرو بن مالك: «بينما نحن يوماً عند أبي الجوزاء يحدثنا إذ خرَّ رجل فاضطرب، فوثب أبو الجوزاء فسعى قبله، فقيل: يا أبا الجوزاء إنه رجل به الموت، فقال: إنما كنت أراه من هؤلاء القفازين، ولو كان منهم لأمرت به وأخرجته من المسجد، إنما ذكرهم الله فقال: «تفيض أعينهم»، و«تقشعر جلودهم».

وصدق – رحمه الله – فإن التأثر بكلام الله وحديث رسول الله ﷺ تظهر آثاره بكاء ورقة في القلب ووجلاً في الجوارح، قال القرطبي – رحمه الله تعالى: «اعلم وقانا الله وإياك بدع المبتدعين ونزغات الزائغين أن سماع رسول الله ﷺ وأصحابه إنما كان القرآن، فإياه يتدارسون وفيه يتفاوضون ومعانيه يتفهمون، يستعذبونه في صلواتهم ويأنسون به في خلواتهم، ويتمسكون به في محاولاتهم، ويلجأون إليه كما أمروا. وإذا قرأوه تدبروا واعتبروا، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه واقتبسوا أحكامه، يتخلقون بأخلاقه ويعملون على وفاقه، علماً منهم بأنه طريق النجاة ونيل الدرجات، وتلاوته أفضل العبادات وأجلُ القربات، فإنه حبل الله المتين والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم».

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

كان أبو الجوزاء – رحمه الله تعالى – لعلمه بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ شديداً على أهل الأهواء والبدع بعيداً عنهم وعن مجالسهم، يحذر الناس منهم ومن مخالطتهم والحديث معهم، حفاظاً على سلامة دينهم ومعتقدهم من شرورهم وأباطيلهم، ومن ذلك قوله: «لأن أجالس القردة والخنازير أحب إلي من أن أجالس رجالاً من أهل الأهواء»، وقال أيضاً: «والذي نفسي بيده؛ لأن تمتلئ داري قردة وخنازير أحب إلي من أن يجاورني أحد من أهل الأهواء، ولقد دخلوا في هذه الآية: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾»[(١)].

والمراد بهم الذين يقدمون أهواءهم وما تمليه عليهم عقولهم وآراؤهم على آيات القرآن ونصوص السنة، أو يفسرونها ويخوضون فيها بآرائهم وأوهامهم الباطلة، فيردون كلام الله عز وجل وكلام رسوله – عليه الصلاة والسلام – أو يتأولونه ويميلون به عن معناه الصحيح إلى معانٍ باطلة.

وقد كثرت أقوال أئمة السنة في التحذير منهم ومن مجالستهم ومخالطتهم أو قراءة كتبهم والنظر فيها، قال عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله: «قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصرنا نافذٍ كفوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من خالف هديهم ورغب عن سنتهم، وقد وصفوا منه ما يشفي وتكلموا منه بما يكفي، فما فوقهم محسر وما دونهم مقصر، وقد قصر عنهم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

قوم فجفوا، وتجاوزهم آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم».

وقال الإمام الأوزاعي – رحمه الله تعالى: «عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول».

أبو الشعثاء جابر بن زيد

من تلاميذ عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – الذين لازموه وتأثروا به في القول والعمل أبو الشعثاء جابر بن زيد اليحمدي مولاهم البصري الخوفي، نسبة إلى خوف ناحية من عمان، يعد من كبار تلاميذ ابن عباس وفي طبقة الحسن البصري ومحمد بن سيرين – رحم الله الجميع – كان عالم أهل البصرة في زمانه، يصدرون عن رأيه ويأخذون بفتواه، بفضل من الله عز وجل عليه أولاً وآخراً ثم بفضل تتلمذه على عبدالله بن عباس أعلم الأمة بتفسير كلام الله عز وجل، قال ابن الأعرابي: «كانت لأبي الشعثاء حلقة بجامع البصرة، يفتي فيها قبل الحسن، وكان من المجتهدين في العبادة»، وقال إياس بن معاوية: «أدركت أهل البصرة، ومفتيهم جابر بن زيد».

وقد شهد له شيخه ومعلمه ابن عباس بسعة العلم والمعرفة بمعاني كلام الله عز وجل وتفسيره، وتلك شهادة بليغة وتزكية عزيزة من حبر الأمة وترجمان القرآن، روي عنه أنه قال: «لو نزل أهل البصرة بجابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله عز وجل»، وفي رواية: «لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لوسعهم علماً عما في كتاب الله عز وجل»، ولما سئل – رضي الله عنه – عن شيء قال: «تسألوني وفيكم جابر بن زيد».

ولا شك أن في قول ابن عباس وصنيعه مع تلميذه جابر بن زيد درساً تربوياً للمعلمين حين يجعلون الثقة في نفوس تلاميذهم للتعليم والتدريس وإفادة الناس، يكون ذلك إذا كانوا مؤهلين عالمين، وتحت رعايتهم ومدارستهم وتتبع أحوالهم.

ومن وصايا ابن عمر – رضي الله عنهما – لجابر بن زيد وقد لقيه في الطواف قوله: «يا جابر إنك من فقهاء أهل البصرة، وإنك ستستفتى، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت».

وهكذا الوصية لأهل العلم والفضل، وبخاصة ممن كان يفتي الناس ويعلمهم، أن يجعل المعول له الكتاب والسنة، فمن طلب غير ذلك فقد ضل وأضل غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

ومما سئل عنه أبو الشعثاء جابر بن زيد كتابة المصاحف، فيما يرويه مالك بن دينار قال: «دخل علي جابر بن زيد وأنا أكتب، فقلت له: كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشعثاء؟ قال: نعم الصنعة صنعتك، ما أحسن هذا، تنقل كتاب الله عز وجل من ورقة إلى ورقة، وآية إلى آية، وكلمة إلى كلمة، هذا الحلال لا بأس به».

قال الإمام النووي: «اتفق العلماء على استحباب كتابة المصاحف وتحسين كتابتها وتبيينها وإيضاحها، وتحقيق الخط دون مشقة، قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله فإنه صيانة من اللحن فيه والتصحيف»[2].

لكن كره السلف أن تكتب المصاحف في الشيء الصغير روى عبدالرزاق عن علي – رضي الله عنه – أنه كان يكره أن تتخذ المصاحف صغاراً، وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن عمر – رضي الله عنه – أنه

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) التبيان، ١٤٩.

وجد مع رجل مصحفاً قد كتبه بقلم دقيق، فكره ذلك وضربه، وقال: عظموا كتاب الله، وكان – رضي الله عنه – إذا رأى مصحفاً عظيماً سُرَّ به، كل هذا لئلا تختلط الكلمات بعضها ببعض أو يسقط شيء منها أو لا يتمكن من قراءتها.

كان أبو الشعثاء جابر بن زيد دقيق المحاسبة مع نفسه حتى في الأمور التي يتساهل فيها الكثير من الناس ويعدونها سهلة لعدم نظرهم إلى خطورتها وعظم جرمها، أما الأخيار من عباد الله فهم الذين لا ينظرون إلى صغر الخطيئة ولكن ينظرون إلى عظمة من عصوه، يقول أنس بن مالك – رضي الله عنه – لأهل زمانه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، إن كنا لنعدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

روي أنه كان يتحدث مع بعض أهله فمر بحائط قوم فانتزع منه قصبة فجعل يطرد بها الكلاب عن نفسه، فلما أتى البيت وضعها في المسجد، فقال لأهله: «احتفظوا بهذه القصبة، فإني مررت بحائط قومٍ فانتزعتها منه، قالوا: سبحان الله يا أبا الشعثاء، ما بُلغ بقصبة؟ فقال: لو كان كل من مر بهذا الحائط أخذ قصبة لم يبق منه شيء، فلما أصبح ردها».

وكان – رحمه الله تعالى – إذا وقع في يده درهم مزيف كسره ورمى به، لئلا يغربه مسلماً، وهذا من نبل خلقه وحبه لإخوانه المسلمين ما يحبه لنفسه، وتلك علامة الكمل من أهل الإيمان، وكان – رحمه الله تعالى – من حبه للخير ومسارعته في مراضي الله تعالى لا يجعل الدينار والدرهم عائقاً له دون فعل الخير والازدياد من نوافل القربات، يقول صالح الدهان: «كان جابر بن زيد

لا يماكس في ثلاث، في السفر إلى مكة – أي الأجرة بغية السفر إلى مكة – وفي الرقبة يشتريها للعتق، وفي الأضحية، وقال: كان جابر بن زيد لا يماكس في كل شيء يتقرب به إلى الله عز وجل».

وكان حريصاً على تربية أسرته وتوجيه أهله ونصحهم وإرشادهم عملاً بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾[1]، تقول بعض نساء أهله لماذا ذكر عندها جابر: «كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعاً إلي وإلى أمي، فما أعلم شيئاً كان يقربني إلى الله إلا أمرني به، ولا شيئاً يباعدني عن الله عز وجل إلا نهاني عنه، وإن كان ليأمرني أن أضع الخمار، ووضعت يدها على الجبهة».

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

أبو الحلال العتكي – أبو نضرة المنذر بن مالك – ميمون بن سياه – شميط بن عجلان – محمد بن المنكدر

إن من نعم الله على عبده أن يحبب إليه كتابه القرآن العظيم يتلوه ويحفظه، ويعتني بمعرفة معانيه وقراءة تفسيره والعمل به، وبهذا فرحه وسروره، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[(١)]، وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**لا حسد** – أي لا غبطة – **إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» (متفق عليه) .

وروى البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، فسمعه جارٌ له فقال: ليتني أوتيت ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل**».

قال الحافظ ابن كثير: «ومضمون هذين الحديثين أن صاحب القرآن في غبطة، وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، أي تمني مثل ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمني زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

أم لا، وهذا مذمومٌ شرعاً مهلك، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام، والحسد الشرعي الممدوح هو تمني حال مثل ذاك الذي هو على حال سارة، ولهذا قال – عليه الصلاة والسلام: «**لا حسد إلا في اثنتين**»، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١) (٢).

وبما جاء عن السلف الصالح – رحمهم الله تعالى – في فرحهم بتلاوة القرآن الكريم وحفظه واغتباطهم بالقيام به آخر الليل، مع ما يظهر عليهم من رقة القلب وكثرة البكاء، ما ورد في سيرة أبي الحلال ربيعة بن زرارة العتكي أحد أئمة السلف وعبادهم، كان يقوم الليل بالصلاة والمناجاة وتلاوة القرآن مع إطالة السجود، ولما كبرت سنه وضع له مقام مرتفع يسجد عليه وكان يقول في سجوده: «اللهم لا تسلبني القرآن».

يقول أبو نضرة المنذر بن مالك البصري وهو من أئمة زمانه في الزهد والعبادة: «كنا نتحدث أنه ليس شيء أشد قسوة من صاحب كتاب إذا قسا»، ومن صور رقة قلوبهم أنه لما مرض زاره الحسن البصري يعوده، فقال أبو نضرة «ادن مني يا أبا سعيد – يعني الحسن البصري – فدنا منه فوضع يده

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٢) فضائل القرآن: ٨١-٨٢.

على عنقه وقبَّل خده، فقال الحسن: يا أبا نضرة إنك والله لولا هول المطلع لسر رجالاً من إخوانك أن يكونوا فارقوا ما ههنا.

فقالوا: يا أبا سعيد اقرأ سورة وادع بدعوات، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ والمعوذتين وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: اللهم مس أخانا الضر وأنت أرحم الراحمين، قال: فبكى وبكى الحسن، فبكى أهل البيت رحمة لأخيهم، قال: فما رأيت الحسن بكى بكاءً أشد منه، وقال أبو نضرة: يا أبا سعيد كن أنت الذي تصلي علي».

ومن أئمة القراءة في زمن التابعين ميمون بن سياه بن مهران البصري أبو بحر، يقول سلام بن مسكين: «ميمون بن سياه سيد القراء»، وكان - رحمه الله - يقول: «إذا أراد الله بعبده خيراً حبب إليه ذكره»، وأعظم الذكر وأفضله القرآن الكريم.

وإذا كان الفضل بهذا القدر العظيم فإن مسؤولية حامل القرآن والحساب معه ليس كغيره من آحاد الناس، كما قال النبي ﷺ: «**والقرآن حجة لك أو عليك**» (رواه مسلم)، يقول شميط بن عجلان: «يعمد أحدهم فيقرأ القرآن ويطلب العلم، حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضمها إلى صدره وحملها على رأسه، فنظر إليه ثلاثة ضعفاء، امرأة ضعيفة وأعرابي جاهل وأعجمي، فقالوا: هذا أعلم بالله منا، لو لم ير في الدنيا ذخيرة ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها، فمثله كمثل الذي قال الله عز وجل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥﴾»[1].

(١) سورة النحل، الآية: ٢٥.

وكان – رحمه الله – يقول: «يا ابن آدم إنك ما دمت ساكتاً فأنت سالم، فإذا تكلمت فخذ حذرك»، وقال أيضاً: «من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها».

ومن أئمة السلف – رحمهم الله تعالى – في العلم والعبادة، والتأثر بآي القرآن الكريم الإمام أبو عبدالله محمد بن المنكدر، كان – رحمه الله – على درجة عظيمة من رقة القلب ودمع العين، جاء في سيرته أنه قام ذات ليلة يصلي ويقرأ القرآن فبكى وكثر بكاؤه، حتى فزع أهله وسألوه ما الذي أبكاه، فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فأخبروه بأمره فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك؟ قد رُعت أهلك أفمن علة أم ما بك؟ قال: فقال: إنه مرت بي آية في كتاب الله عز وجل، قال وما هي؟ قال: قول الله عز وجل:﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[1]. قال: فبكى أبو حازم أيضاً معه واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرج عنه فزدته، قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما.

يقول: مالك بن أنس: «كان محمد بن المنكدر سيد القراء، ولا يكاد أحدٌ يسأله عن حديث إلا كان يبكي».

وما كان ذلك له إلا بتوفيق من الله عز وجل وهداية ثم بمجاهدة نفسه وترويضها على طاعة الله، يقول – رحمه الله تعالى: «كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت».

ومن أقواله – رحمه الله: «إن الله تعالى يحفظ العبد المؤمن في ولده وولد

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

ولده، ويحفظه في دويرته وفي دويرات حوله، فما يزالون في حفظ وعافية ما كان بين ظهرانيهم»، ولما سئل عن أي الأعمال أحب إليك؟ قال: «إدخال السرور على المؤمن»، قيل: فما بقي مما يستلذ؟ قال: الإفضال على الإخوان»، وهذه صفات عزيزة قلَّ من الناس من يتحلى بها ويجعلها من خلائقه، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

زين العابدين علي بن الحسين

من آل بيت النبي ﷺ ومن أئمة السلف - رحم الله الجميع - زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدني يكنى أبا الحسن، سمي زين العابدين لكثرة عبادته وطولها، حيث الصيام وطول القيام وتلاوة القرآن والبذل والإحسان.

كان - رحمه الله - على جانب عظيم من الخوف من الله سبحانه واستحضار عظمته والاستعداد للوقوف بين يديه بقلب منيب وجل، ونفس مطمئنة خاشعة، كان - رحمه الله - إذا فرغ من وضوئه للصلاة وصار بين وضوئه وصلاته أخذته رعدة، فقيل له في ذلك، فقال: «ويحكم أتدرون إلى من أقوم؟ ومن أريد أن أناجي»؟

ومما اشتهر به - رحمه الله تعالى - في مدينة رسول الله ﷺ البذل والصدقة الخفية وكان لا يُعلم ذلك منه في حياته، وإنما علم به بعد موته، يقول أبو حمزة الثمالي: «كان علي بن الحسين يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين في الظلمة، ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب»، وعن محمد بن إسحاق قال: «كان ناس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل»، وعن عمرو بن ثابت قال: «لما مات علي بن الحسين وجدوا بظهره أثراً مما كان ينقل الجُرُب بالليل إلى منازل الأرامل»، وقال شيبة بن نعامة: «لما مات علي وجدوه يعول مائة أهل بيت»، ولذلك قال بعضهم: «ما فقدنا صدقة السر حتى توفي علي بن الحسين».

فما أعظم هذا العمل المبارك على هذا الوجه الخفي، يقول تعالى: ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٢٧١) ﴾[١]، فإخفاء الصدقة وتتبع حاجات المساكين والأرامل في خفية من أعين الناس وبذل المعروف والإحسان إليهم بلا منة ولا أذى من أفضل الأعمال وأجل القرب، ومن جزاء صاحبه أنه في ظل عرش الرحمن يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، عدَّ النبي ﷺ منهم: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاه حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**» (متفق عليه).

فإخفاء الصدقة أعون على الإخلاص والبعد عن الرياء وحب السمعة، إلا أن تكون مصلحة لابدائها كبيان حال هؤلاء الفقراء والمساكين أو لحث الناس على البذل والصدقة فهذا صحيح.

وهذه الصدقة نماء للمال وتزكية له، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل**».

ثم إن من يجاهد نفسه ويربيها على البذل والجود والسخاء يجد راحة وسعادة في نفسه ورضاً بما يصنع، ولهذا كان رسولنا وقدوتنا – عليه الصلاة والسلام – أجود بالخير من الريح المرسلة، ما سئل شيئاً فقال لا، يقول أنس – رضي الله عنه: «**ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» (رواه مسلم).

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – معدداً أسباب انشراح الصدر: «ومنها الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم هماً وغماً، وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد، كلما هم المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة لزمته كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه» (رواه البخاري ومسلم). فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه»[(١)].

ومن الخلق الذي تميز به زين العابدين علي بن الحسين التواضع ولين الجانب مع أنه من أشراف قريش وآل البيت وهذا من خلق أهل القرآن وحملته، لأمر الله تعالى به في قوله: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾[(٢)]، وأعظمه ما يكون بين الطالب وشيخه، ولذلك قال بعض السلف: «من لم يصبر على ذل التعليم ساعة عاش بقية عمره في عماية الجهالة».

---

(١) زاد المعاد: ٢/ ٢٥-٢٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

جاء في ترجمة زين العابدين علي بن الحسين – رحمه الله تعالى – أنه كان يدخل المسجد فيشق الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير: «غفر الله لك، أنت سيد الناس، تأتي تتخطى حتى تجلس مع هذا العبد، فقال علي بن الحسين: العلم يُبتغى ويؤتى ويطلب من حيث كان».

وكان يجالس أسلم مولى عمر، فقيل له: «تدع قريشاً وتجالس عبد بني عدي، فقال: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع»، وفي رواية: «لما قيل له إنك تجالس أقواماً دُوْناً، قال: آتي من أنتفع بمجالسته في ديني».

ومع هذا التواضع ولين الجانب فقد كان محل تقدير واحترام وذا منزلة عالية في أهل زمانه، يقول الزهري: «كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة»، وقال: «لم أدرك من أهل البيت أفضل من علي بن الحسين»، ويقول مالك بن أنس: «لم يكن في أهل البيت مثله».

ولا أدل على احترام الناس وتوقيرهم له ما جاء في قصته المشهورة مع الفرزدق الشاعر، فقد كان له جلالة وهيبة بين الناس، اتفق أنه كان في الحج مع هشام بن عبدالملك قبل أن يكون خليفة للناس فإذا أراد استلام الحجر زوحم عليه، وإذا دنا علي بن الحسين تفرق عنه الناس إجلالاً له، فسأل هشام من هذا؟ فما أعرفه، فأنشأ الفرزدق يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يغضي حياءً ويُغضى من مهابته ... فلا يُكلمً إلا حين يبتسم
ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم

إلى آخر القصيدة - رحم الله - زين العابدين - ورضي الله عن آل بيت النبي ﷺ الطاهرين وعن بقية الصحابة أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عبدالله بن عون – عامر بن عبدالله
صفوان بن سليم – سعد بن إبراهيم الزهري

إن هدي السلف الصالح – رحمهم الله تعالى – في العلم والعبادة والقول والعمل أكمل الهدي وأقومه، حيث ساروا على نهج النبي ﷺ واتبعوا سنته واقتفوا أثره، يقول الإمام الأوزاعي: «كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة واتباع السنة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله».

وقال عبدالله بن عون: «ثلاث أرضاها لنفسي ولإخواني: أن ينظر هذا الرجل المسلم القرآن فيعلمه ويقرأه ويتدبره وينظر فيه، والثانية: أن ينظر ذاك الأثر والسنة فيسأل عنه ويتبعه جهده، والثالثة: أن يدع الناس إلا من خير»، وقال سهل بن عبدالله التستري: «أصولنا ستة أشياء التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق».

ومن هدي السلف الصالح هديهم في التأثر بالقرآن الكريم من البكاء والخوف والخشية من الله عز وجل بخلاف ما عليه غيرهم من الصعق والغشي – وقد أشرت إلى هذا فيما سبق – ومما يدل عليه مما جاء في سيرهم العطرة ما رواه عامر بن عبدالله بن الزبير قال: «جئت أبي فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقواماً ما رأيت خيراً منهم، يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى فقعدت معهم، فقال: لا تقعد معهم بعدها،

فرأى كأنه لم يأخذ ذلك في، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله تعالى من أبي بكر وعمر، فرأيت أن ذلك كذلك فتركتهم».

هكذا كانت عنايتهم – رحمهم الله تعالى – في تعليم سنة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه – رضي الله عنهم – والتحذير من أهل البدع والأهواء وما عندهم وإن أعجب بهم من يراهم ومالت نفسه إلى أحوالهم.

كان أبو قلابة يقول: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم»، وعن سلام بن أبي مطيع أن رجلاً من أصحاب الأهواء قال لأيوب السختياني: «يا أبا بكر أسألك عن كلمة، فولى أيوب وجعل يشير بإصبعه ولا نصف كلمة»، وعن ابن عباس قال: «لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب».

قال الآجري – رحمه الله: «وبعد هذا نأمر بحفظ السنن عن رسول الله ﷺ وسنن أصحابه – رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان، وقول أئمة المسلمين، مثل مالك بن أنس والأوزاعي وسفيان الثوري وابن المبارك وأمثالهم، والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلام ومن كان على طريقة هؤلاء من العلماء – رحمهم الله – وننبذ من سواهم، ولا نناظر ولا نخاصم ولا نجادل، وإذا لقي صاحب بدعة في طريق أخذ في غيره، وإن حضر مجلساً هو فيه قام عنه، هكذا أدبنا من مضى من سلفنا» (١).

---

(١) الشريعة: ٦٧.

ومن أئمة السلف في العلم والعمل، والتأثر والخشية من الله سبحانه وطول العبادة صفوان بن سليم – رحمه الله تعالى – كان كثير العبادة طويل القيام بالليل لا يتركه حضراً ولا سفراً، ذكر ذلك عنه من لازمه، وكان أيضاً حريصاً على المسارعة في الخير والمسابقة في ميادين الصالحات يبحث عن الأفضل ويتحرى الأكمل، ومن دقيق ذلك أنه لما حج ومعه سبعة دنانير اشترى بها بدنة وقال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]، مع عنايته بالصدقة والجود والسخاء على المحتاجين والمعوزين، جاء في سيرته أن رجلاً من أهل الشهام قدم المدينة فقال: «دلوني على صفوان بن سليم فإني رأيته دخل الجنة، قيل له: بأي شيء؟ قال: بقميص كساه إنساناً، فسأل بعضهم صفوان عن قصة القميص، فقال: خرجت من المسجد في ليلة باردة، وإذا برجل عارٍ فنزعت قميصي فكسوته».

ومما جاء في سير السلف الصالح في محبتهم للقرآن والإكثار من تلاوته ما روي في سيرة سعد بن إبراهيم الزهري، يقول ابنه إبراهيم: «كان أبي يحتبي فما يحل حبوته حتى يقرأ القرآن»، وفي رواية عنه قال: «كان حزب أبي سعد من البقرة إلى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾»[2]، أي سورة الأحزاب.

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

هكذا كان حال بعض السلف يختمون القرآن في يومين وبعضهم في ثلاثة وبعضهم في أسبوع، ويغتنمون مواسم الخير والأزمان الفاضلة والأماكن الشريفة، يقول إبراهيم بن سعد: «كان أبي سعد بن إبراهيم إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين وخمس وعشرين وسبع وعشرين وتسع وعشرين – أي من رمضان – لم يفطر حتى يختم القرآن، وكان يفطر فيما بين المغرب والعشاء الآخرة، وكان كثيراً إذا أفطر يرسلني إلى مساكين يأكلون معه».

قال النووي – بعد أن ذكر أحوال الصحابة والتابعين في ختمهم القرآن: «والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة، وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة، ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[(١)] [(٢)].

إنه لحق على حملة القرآن أن يحمدوا الله عز وجل لما وفقهم له من حفظ كتابه والعناية بتفسيره وإتباع هذا كله العمل به، فهم أهله وخاصته، عن أنس

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن: ٤٦.

بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله من الناس أهلون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» (رواه أحمد وابن ماجه)، وهذا ما فقهه السلف الصالح – رحمهم الله – يقول إبراهيم بن سعد: «دخل ناس من القراء على سعد بن إبراهيم يعودونه، منهم ابن هرمز وصالح مولى التوءمة، قال: فاغرورقت عين ابن هرمز – يعني من البكاء – فقال له سعد ما يبكيك؟ قال: والله لكأني بقائلة غداً تقول واسعداه، أي أنه سيموت، قال: لئن قالت ذلك، ما أخذتني في الله لومة لائم منذ أربعين سنة، ثم قال: أليس يعلم ربي عز وجل أنكم أحب خلقه إلي» يعني القراء.

محمد بن كعب القرظي

من أئمة السلف الصالح المشهورين بالعبادة وتفسير القرآن والعلم بمعانيه أبو حمزة محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني، روى عن علي وابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهم - وقد كثر ثناء الأئمة عليه، يقول ابن سعد: «كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً»، وقال العجلي: «ثقة مدني تابعي، رجل صالح عالم بالقرآن»، وقال الذهبي: «كان من أئمة التفسير ومن أوعية العلم».

وفي فضله وعلو منزلته وقوة إيمانه بربه وتعلقه به يقول عون بن عبدالله: «ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي - أي: بتفسيره من محمد بن كعب القرظي - وقيل: كان له أملاك بالمدينة، وحصَّل مالاً مرة، فقيل له ادخر لولدك، قال: لا، ولكن أدخره لنفسي عند ربي، وقيل: إنه كان مجاب الدعوة كبير القدر».

ومن مظاهر عنايته بالقرآن الكريم الحرص على تدبر آياته والتأمل فيها، ليقف على هداياتها ودلالاتها، يقول - رحمه الله تعالى: «لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، والقارعة؛ لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلي من أن أهدر القرآن هدراً، أو قال: أنثره نثراً».

وكان يقول عن نفسه: «إن عجائب القرآن تورد علي أموراً حتى إنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي»، وصدق - رحمه الله - فإن الناظر في القرآن المتدبر لآياته لا يمل من ذلك ولا يمكن أن يحيط بكل معانيه وما تضمنه

من أنواع الإعجاز وما فيه من الهدايات والدلالات، وصدق الله القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[(١)]، وهو كما قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: «لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

إن الأمثلة على دقيق استدلال محمد بن كعب القرظي - رحمه الله تعالى - بالآيات كثيرة مما يدل على علمه بتفسيرها ومعرفة معانيها وما يفتح الله عليه من دقائقها ولطائفها، ومن ذلك: أنه قال: «لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا - عليه السلام - قال الله تعالى: ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾[(٢)]، ولو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص للذين يقاتلون في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾»[(٣)].

وقال - رحمه الله: «الكبائر ثلاث، أن تأمن مكر الله، وأن تقنط من رحمة الله وأن تيأس من روح الله، وتلى هذه الآيات: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[(٥)]. وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾»[(٦)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

وقد روي نحو هذا عن النبي ﷺ، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: «**الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله**» (رواه البزار وابن أبي حاتم).

قال أهل العلم: قوله: «واليأس من روح الله» أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءةُ ظن بالله، وجهلٌ به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته، قوله: «والأمن من مكر الله»، أي: من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك، وذلك جهل بالله وبقدرته وثقة بالنفس وعُجْبٌ بها»[1].

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[2]، «يستمع القرآن وقلبه معه، لا يكون في مكان آخر»، يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – عند هذه الآية: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به، سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله – عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

(١) فتح المجيد، ٣٦٩.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ ، إشارة إلى ما تقدم من أول السورة - أي سورة ق - إلى هنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ هذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ (١). أي: حي القلب، وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر» (٢).

ومن أقواله التي تنم عن علم وبصيرة، «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خلال، فقهاً في الدين، وزهادةً في الدنيا وبصراً بعيوبه»، وقال أيضاً معرفاً حقيقة الدنيا مبيناً حالها مع أهلها المتعلقين بها: «الدنيا دار فناء ومنزلة بلغة، رغبت عنها السعداء، وأسرعت من أيدي الأشقياء، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها، وأسعد الناس بها أزهد الناس فيها، هي المغرية لمن أطاعها، المهلكة لمن اتبعها الخائنة لمن انقاد لها، علمها جهل وغناؤها فقر، وزيادتها نقصان وأيامها دول».

وصدق - رحمه الله - فالله سبحانه قد أبان حقيقة الدنيا في غير ما آية

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

(٢) الفوائد، ٣.

من كتابه، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾[1]، ويقول تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾[2].

فالمتعلقون بالدنيا على وجل، إما في بلايا نازلة أو مصائب نائلة، وكيف يفرح بها من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، وما عمر الإنسان في الدنيا إلا أيام، كلما مضى منه يوم ذهب بعضه، فبعد من الدنيا وقرب من الموت والدار الآخرة.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٩.

عبيد بن عمير

من أشهر المدارس التي اشتهرت بالتفسير بعلمها ورجالها مدرسة التفسير بمكة، على يدي معلمها وشيخها حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – وقد تخرج من هذه المدرسة أئمة أعلام في القراءة والتفسير والعلم بمعاني كلام الله عز وجل ومعرفة أحكامه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم» (١) .

ومن هؤلاء الأئمة أبو عاصم عبيد بن عمير بن قتادة الليثي المكي، روى القراءة عن عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب وابن عباس – رضي الله عنهم – وروى عنه مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار، اشتهر – رحمه الله – بقراءة القرآن وتعليم الناس ذلك، فتخرج به خلق كثير، يقول مجاهد: «كنا نفخر بفقيهنا ونفخر بقارئنا، فأما فقيهنا فابن عباس، وأما قارئنا فعبيد بن عمير» وفي رواية: «نفخر على الناس بأربعة بفقيهنا وبقارئنا وبقاضينا وبمؤذننا، ففقيهنا ابن عباس، وقارئنا عبدالله بن السائب، وقاضينا عبيد بن عمير، ومؤذننا أبو محذورة».

ومن توجيهات ابن عباس – رضي الله عنهما – له، ما رواه مجاهد أن

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٤٧.

ابن عباس دخل المسجد وعبيد بن عمير يقص، فقال لقائده: اذهب بي نحوه، فجاء حتى قام على رأسه، فقال: أبا عاصم، ذكر بالله وذكر لله، ثم تلا: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ [(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ [(٣)].

ومن وصية عبيد بن عمير لأهل القرآن وما ينبغي أن يكونوا عليه من الطاعة واستغلال الأوقات الفاضلة فيما يقربهم إلى الله عز وجل وأن يتميزوا عن الآخرين بعلمهم وسمتهم وتمسكهم بالسنة قوله – رحمه الله تعالى: «كان يقال لأهل القرآن إذا جاء الشتاء إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه وبخلتم بالمال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه فأكثروا من ذكر الله عز وجل»، فالشتاء غنيمة باردة للمؤمن، طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه.

وكان يقول: «إن الله عز وجل أحل وحرم، فما أحل فاستحلوه، وما حرم فاجتنبوه، وترك بين ذلك أشياء لم يحلها ولم يحرمها، فذلك عفو من الله تعالى عفاه، ثم يتلو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾» [(٤)].

وقد جاء هذا في السنة فيما رواه الدار قطني عن أبي ثعلبة الخشني – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت**

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها»، وروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد عن أبيه – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألته**».

مجاهد بن جبر

من أئمة مدرسة مكة في التفسير والعلم بمعانيه وتعليم الناس إياه والتأثر به قولاً وعملاً الإمام المقرئ المفسر أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، مولى السائب بن أبي السائب ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب، وكانت وفاته بمكة وهو ساجد سنة أربع ومائة على الأشهر رحمه الله تعالى.

روى عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبدالله وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وغيرهم من أئمة الصحابة وأعلامهم - رضي الله عنهم أجمعين - كانت عنايته بكتاب الله عز وجل عظيمة، حيث تعلم قراءته وتفسيره وجد واجتهد، روي عنه أنه قال: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة»، وفي رواية عنه قال: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت وكيف كانت».

وعن ابن أبي مليكة قال: «رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله».

ولا تعارض بين هذه الروايات، فإن الإخبار بالقليل لا ينافي الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط ودقة التجويد وحسن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلباً لتفسيره ومعرفة ما دق من معانيه وما أشكل عليه (١).

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ١٠٤.

وقد كثر ثناء الأئمة عليه والإشادة بعلمه وإمامته في التفسير والقراءة، قال قتادة: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد»، وقال ابن سعد: «كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث»، وروى ابن جرير الطبري في تفسيره عن سفيان الثوري قال: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»، قال الذهبي في الميزان في آخر ترجمة مجاهد: «أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به»(١)، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

وقد اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري الذي نراه في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ينقل الكثير من التفسير عن مجاهد، وهذه أكبر شهادة من البخاري على ثقته وعدالته واعترافه بمبلغ علمه بكتاب الله عز وجل ومعرفة معانيه.

ولعل السبب في شهرته وإمامته توفيق الله له ثم تتلمذه على الكثير من الصحابة مع عنايته واجتهاده بهذا الشأن، روي عن ابن لمجاهد قال: «قال رجل لأبي: أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: إني إذاً لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ - ورضي الله عنهم أجمعين».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»، ثم روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**» (رواه الترمذي)، ثم قال: «ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به .. قال أبو بكر الصديق: أي

(١) ميزان الاعتدال: ٣/ ٤٤٠.

أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم، وقال عبد الله بن عمر: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبدالله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع».

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد» (١).

وكان الإمام مجاهد - رحمه الله تعالى - محل تقدير واحترام عند شيوخه ومعاصريه ومن بعدهم، يقول - رحمه الله: «صحبت ابن عمر - في سفر - وإني أريد أن أخدمه، فكان هو يخدمني»، وقد روى عنه البخاري في صحيحه في كتاب العلم قوله: «لا يطلب العلم مستح ولا مستكبر»، وكان يقول: «استفرغ علمي التفسير»، وفي بعض الروايات: «استفرغ علمي القرآن».

وقد نفع الله به، حيث تتلمذ على يديه أئمة قراء علماء، منهم ابن كثير الداري وأبو عمرو بن العلاء وابن محيصن، قال ابن جريج: «لأن أكون سمعت من مجاهد، فأقول: سمعت مجاهداً أحب إلي من أهلي ومالي»، وما ذاك إلا لشرف التتلمذ على يديه وعظيم الانتفاع به.

وكان مع هذه الشهرة والإمامة في أهل زمانه متواضعاً خفي العمل كثير العبادة، لا يطلب الشهرة ولا التمدح بين الناس، كان يقول: «لا تنوهوا بي

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٧٠.

في الخلق»، وقال الأعمش: «كان مجاهد كأنه حمَّال، فإذا نطق خرج من فيه اللؤلؤ»، ولذلك قال سلمة بن كهيل «ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله - وذلك فيما يرى هو - إلا هؤلاء الثلاثة، عطاء ومجاهد وطاووس».

والمروي عن مجاهد في التفسير كثير، حفلت به كتب التفسير ودونه أهل العلم في مؤلفاتهم ولو لم تكن في التفسير خاصة، يعتمد في ذلك على ما رواه عن الصحابة وبخاصة ابن عباس - رضي الله عنهما - وما يفتح الله عليه لما له من نظر ثاقب وعلم بلغة العرب ودقة في الفهم والاستنباط، ولعلي أسوق هنا بعض الأمثلة.

فمنها: قوله في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (١)، «القنوت: الركوع والخشوع وغض البصر وخفضُ الجناح من رهبة الله تعالى، وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن عز وجل أن يشذ نظره، أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسياً، ما دام في الصلاة».

وقال: «القلب بمنزلة الكف، فإذا أذنب الرجل ذنباً انقبض إصبع، حتى تنقبض أصابعه كلها أصبعاً أصبعاً، قال: ثم يطبع عليه، فكانوا يرون ذلك الران، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾» (٢).

وقال - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (٣)، «أما الظاهرة فالإسلام والرزق، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب»،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

وفي قوله تعالى: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[(١)]. قال: «النصوح أن تتوب من الذنب ثم لا تعود».

وعن عبدة بن أبي لبابة قال: قال مجاهد: «ما التقى مسلمان فتصافحا إلا غفر لهما ذنوبهما قبل أن يتفرقا، أو تحاتت عنهما ذنوبهما، قلت: إن ذلك يسير، قال: لا تقل ذلك إن الله عز وجل يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[(٢)]، قال: فكان مجاهد أفقه مني»، وكان - رحمه الله - يقول: «إن العبد إذا أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه».

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

عطاء بن أبي رباح

من أئمة التفسير والفتوى والعلم بمكة عطاء بن أبي رباح أبو محمد المكي القرشي مولاهم، روى العلم عمن لقيه من الصحابة وبخاصة ابن عباس وابن عمر اوبن عمرو بن العاص – رضي الله عنهم – وحدث عن نفسه أنه أدرك مائتين من الصحابة، كان ثقة فقيهاً إماماً في التفسير كثير الحديث، انتهت إليه فتوى أهل مكة، وقد شهد له بذلك شيخه ومعلمه ابن عباس – رضي الله عنهما – فقد كان يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: «تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء».

كان يغلب عليه سعة العلم وبخاصة في المناسك والأحكام، ولهذا قال قتادة: «كان أعلم التابعين أربعة، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام»، ومع هذا فقد روي عن عطاء في التفسير الشيء الكثير ولكنه قليل إذا قورن بما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، ولعل إقلاله من التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي، فقد قال عبدالعزيز بن رفيع: «سئل عطاء عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي».

وكان – رحمه الله تعالى – ملازماً لبيت الله المسجد الحرام مغتنماً ما جاء من فضل الصلاة فيه، إذ هي تعدل مائة ألف صلاة فيما سواه، مع تلاوة القرآن وتعليم الناس، يقول ابن جريج: «كان المسجد فراش عطاء بن أبي

رباح عشرين سنة»، وقال أيضاً: «كان عطاء بعدما كبر وضعف، يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة، وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك».

وكان متخلقاً بخلق أهل القرآن من التواضع وخفض الجناح والإزراء بالنفس مع قلة الكلام إلا فيما ينفع ويفيد، كان يقول: «إني لأسمع الحديث من المتكلم سماعي له أول مرة - أي: من حسن الإصغاء والإنصات - ولقد سمعته قبل أن يولد»، وقال إسماعيل بن أمية: «كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم يخيل إلينا أنه يؤيد».

وكان يوصي بالقرآن وتلاوته وتعلم معانيه مع غيره من الأعمال الصالحة واستغلال الوقت بذلك وصرفه فيه، فالعبد محاسب عليه؛ لأنه مستودع الأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر، قال محمد بن سوقة قال لنا عطاء بن أبي رباح: «يا ابن أخي إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن يقرأ، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو تنطق في حاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ ﴾[1]، وقوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[2]، أما يستحي أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التي ملأها صدر نهاره، أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه».

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة ق، الآيتان: ١٧، ١٨.

عكرمة مولى ابن عباس

من تلاميذ ابن عباس – رضي الله عنهما – الذين أفادوا منه قراءة القرآن والعلم بمعانيه ومعرفة تفسيره والتأثر به قولاً وعملاً، مولاه أبو عبدالله عكرمة العلامة المفسر المدني البربري الأصل.

شرف بالتتلمذ على يدي شيخه عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – حبر الأمة وترجمان القرآن، حيث لازمه مدة حياته، كما حدث عن غيره كعائشة وأبي هريرة وابن عمر وعبدالله بن عمرو وأبي سعيد الخدري – رضي الله عنهم – حدث رحمه الله عن نفسه فقال: «أدركت مائتين من أصحاب النبي ﷺ في هذا المسجد يعني مسجد رسول الله ﷺ»، وقال أيضاً: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل – أي القيد – ويعلمني القرآن والسنن» مما يدل على حرص ابن عباس وعنايته بتعليمه القرآن والسنة، وكان يقول: «طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس في الدار».

وقد بلغ – رحمه الله – في العلم بكتاب الله عز وجل مبلغاً عظيماً، فكثر ثناء الأئمة عليه، وانكب الناس عليه وبخاصة أهل العلم في زمانه، يسألونه عما أشكل عليهم من كتاب الله ويستفتونه في سنة النبي ﷺ وسيرته، قال حبيب بن أبي ثابت: «اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً، عطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، فأقبل سعيد بن جبير ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما، جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا».

ولما قدم عكرمة على طاووس حمله على نجيب ثمنه ستون ديناراً، فكأنه عوتب في ذلك فقال مبرزاً مكانة عكرمة والحاجة الماسة إلى علمه، «ألا نشتري علم هذا العالم بستين ديناراً»؟

ومن فضل عكرمة وعلوه في هذا العلم ورسوخ قدمه فيه أن حرص طلاب العلم على الرحلة إليه، للإفادة مما لديه من العلم بكتاب الله عز وجل، يقول أيوب السختياني: «كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق، فأتيت - يعني سوق البصرة - فإذا رجل على حمار، فقيل لي: هذا عكرمة، قال: واجتمع الناس إليه، فقمت إليه فما قدرت على شيء أسأله عنه، ذهبت المسائل عني فقمت إلى جنب حماره، قال: فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظ».

ومما قيل في الثناء عليه والإشادة بعلمه ومكانته وبخاصة في علم التفسير، قول الشعبي: «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله تعالى من عكرمة»، وقال قتادة: «أعلمهم بالتفسير عكرمة»، وقال جابر بن زيد: «هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا أعلم الناس»، وقال يحيى بن أيوب المصري: «سألني ابن جريج: هل كتبتم عن عكرمة؟ فقلت: لا، قال: فاتكم ثلثا العلم».

هذا بعض ما قيل في عكرمة مما يشهد لمكانته في العلم عامة وفي التفسير خاصة، ولا غرو فإن ملازمته لمولاه ابن عباس، ومبالغة مولاه في تعليمه القرآن والسنن، جعلته ينهل من معينه الفياض ويأخذ عنه علمه الغزير، ويرث عنه العلم بتفسير كتاب الله عز وجل ومعرفة أحكامه ومعانيه، ولا أدل على علو مرتبته عند شيخه ابن عباس وثقته بعلمه من الحادثة التي ذكرها بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]، وذلك في قصة أصحاب السبت، فقد روى الطبري في تفسيره عن ابن عباس أنه قال: «ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، قال عكرمة فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقال: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، فلم أزل به، حتى عرفته أنهم قد نجوا، وكساني حله».

فهذا الأثر يدل على مبلغ ثقة ابن عباس بمولاه وتلميذه، وعلى مقدار إعجابه بعلمه وتقديره لفهمه، يقول ابن أبي حاتم: «سئل أبي عن عكرمة وسعيد بن جبير أيهما أعلم بالتفسير؟ فقال: أصحاب ابن عباس عيال على عكرمة». أما القول في علمه بالحديث وحفظه إياه، فكلام أئمة الجرح والتعديل فيه كثير، وفي بعضه اختلاف، وخلاصة القول فيه قول الحافظ ابن حجر في التقريب «ثقة ثبت عالم بالتفسير».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.

ميمون بن مهران

من أئمة السلف في العلم والزهد وكثرة العبادة، والعناية بكتاب الله عز وجل أبو أيوب ميمون بن مهران الجزري الرقي، حدث عن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

كان - رحمه الله تعالى - مكباً على القرآن الكريم يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، متأثراً به، رقة في القلب وسرعة في دمع العين، يقول أبو المليح: «قرأ يوماً ميمون قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1]، فرقّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعتب أشد منه قط»، ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾[4]، ففي هذه الآيات إخبار منه جل وعلا بما يؤول إليه حال الكفار، حيث يميزون عن المؤمنين يوم القيامة وفي عرصاتها ثم إلى ما سيؤولون إليه.

وكان ميمون بن مهران حريصاً على الوصية لأهل القرآن على وجه

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ٢٢-٢٦.

(٤) سورة الروم، الآية: ١٤.

الخصوص لما حباهم الله وأكرمهم به من حفظ كتابه وتلاوته والعلم بمعانيه ومعرفة أحكامه، فكان يقول: «لو أن أهل القرآن صلحوا لصلح الناس»، وقال أيضاً: «إن هذا القرآن قد خلق في صدور كثير من الناس، والتمسوا ما سواه من الأحاديث، وإن فيمن يبتغ هذا العلم مَنْ يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا، ومنهم من يريد أن يشار إليه، ومنهم من يريد أن يماري به، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عز وجل به».

وقد كانت لهذه الوصايا القبول والنفع عند الناس بعامة وحملة القرآن وأهله بخاصة، لما حباه الله به من حسن الخلق والقرب من الناس والتواضع لهم، وعدم الترفع عليهم وحب التمدح والثناء بينهم أو طلب الشهرة عندهم، جاءه مرةً رجل فقال له - من باب الحب والتقدير والاحترام - «لا يزال الناس بخير ما كنت فيهم، فقال: لا يزال الناس بخير ما اتقوا الله».

وصدق - رحمه الله - فالتقوى أساس كل خير وقوام كل صلاح وبر، فالمتقون هم السعداء في الدنيا والآخرة، المتفيؤون ظلالها المتنعمون بآثارها وثمارها.

شقيق بن سلمة

من أئمة السلف في العلم بكتاب الله عز وجل ومعرفة أحكامه وقراءته والتأثر به أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، مخضرم أدرك النبي ﷺ وما رآه، لما قيل له: «هل أدركت النبي ﷺ؟ قال: نعم، وأنا غلام أمرد، ولم أره»، وقال أيضاً: «إني أذكر وأنا ابن عشر في الجاهلية أرعى غنماً - أو قال - إبلاً لأهلي حين بعث النبي ﷺ».

ثم إنه - رحمه الله - أكب على كتاب الله عز وجل يقرؤه ويتعلم معانيه وأحكامه، فلزم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بالكوفة فقرأ عليه القرآن في شهرين، كما روى أيضاً عن عمر وعثمان وعلي وعمار وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى وغيرهم من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقد أفاد - رحمه الله - من ملازمته لهؤلاء الصحابة وبخاصة ابن مسعود - رضي الله عنهم - العلم الكثير بكتاب الله، وصدق التأثر به حسب منهجهم وطريقتهم في ذلك، وهو خير الهدي وأقومه، روى عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، ويذكر إعجابه بشيخه ابن عباس وما أفاء الله عليه من سعة العلم بمعاني كلام الله عز وجل وتفسيره فيقول: «استخلف علي عبدالله بن عباس على الموسم - أي في الحج - فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا».

ومن صور تأثره - رحمه الله - بكتاب الله عز وجل بكاؤه عند تلاوته وحرصه الشديد على إخفاء ذلك عن الناس، تحقيقاً للإخلاص وبعداً عن الرياء والسمعة، روى أبو بكر شعبة بن عياش عن شيخه عاصم بن بهدلة - أحد القراء السبعة - قال: «كان أبو وائل إذا صلى في بيته ينشج نشيجاً - أي بكاء - لو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله».

وقال عاصم: «سمعت شقيق بن سلمة يقول - وهو ساجد - رب اغفر لي، رب اعف عني، إن تعف عني فطولاً من فضلك، وإن تعذبني تعذبني غير ظالم لي ولا مسبوق، قال: ثم يبكي حتى أسمع نحيبه من وراء المسجد»، وبهذه الرقة والخشية لله عز وجل كان يثني عليه شيخه ومعلمه عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - فكان إذا رأى الربيع بن خثيم قال: «وبشر المخبتين» وإذا رأى أبا وائل قال: «التائب». والثناء عليه موصول من أهل زمانه وبخاصة أهل العلم منهم، قال الأعمش: «قال لي إبراهيم النخعي: عليك بشقيق، فإني أدركت الناس وهم متوافرون، وإنهم ليعدونه من خيارهم»، وذكر مرةً عنده أبو وائل، فقال إبراهيم: «إني لأحسبه ممن يدفع عنَّا به»، أي: يدفع عنهم به البلاء، وقال ابن معين: «أبو وائل ثقة، لا يُسأل عن مثله»، وقال ابن سعد: «كان ثقة كثير الحديث»، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

جاء في أقوال السلف من يحكي حال قراء زمانه، ويعيب عليهم تهافتهم على الدنيا وجمع حطامها الفاني، وتقديم ذلك على الدار الآخرة، أو أنهم يبتغون بعملهم الصالح الرياء والسمعة والتمدح عند الناس وطلب الشهرة

بنيهم، وأنهم اقتصروا على العناية بقراءة القرآن وترتيل الصوت به والحرص على جمع القراءات وإتقان التجويد دون العناية بمعرفة معانيه والعلم بأحكامه، والتأثر بذلك قولاً وعملاً، حالاً وسلوكاً.

يقول عاصم بن بهدلة: «قال لي أبو وائل شقيق بن سلمة: أتدري ما أشبه قراء أهل زماننا؟ قلت: ومن يشبههم؟ قال: أشبههم برجل أسمن غنماً، فلما أراد ذبحها وجدها غُثاً لا تنقي، أو رجل عمد إلى دارهم فلوس فألقاها في زئبق ثم أخرجها فكسرها فإذا هي نحاس»، وقال أيضاً: «مثل قراء أهل هذا الزمان كمثل غنم ضوائن ذات صوف، فغبط شاة منها فإذا هي لا تنقي، ثم غبط أخرى فإذا هي كذلك، فقال: أفٍ لك سائر اليوم». وكان يقول: «إن أحسن ما زين به المصحف تلاوته بالحق».

فإذا كان هذا حال بعضهم في ذاك الرعيل الأول والقرون المفضلة فكيف الحال بنا في هذا الزمن المتأخر، الذي انصرف فيه بعض الناس عن كتاب الله عز وجل، لا يتعلمون قراءته ولا يحفظون آياته، ولا يعتنون بمعرفة أحكامه والعلم بمعانيه، ومن وُفِّق لذلك وهدي إليه فهو محفوف بشهوات الدنيا والاغترار بزينتها والتهالك على جمعها وحب الظهور وكسب الشهرة بين الناس بسبب ما أفاء الله عليه ومنحه إياه من حفظ كتابه وحسن الصوت بتلاوته وترتيله، والعلم بمعانيه ومعرفة أحكامه.

خيثمة بن عبدالرحمن

من أئمة السلف في الكوفة، القراء العلماء خيثمة بن عبدالرحمن بن أبي سبرة المذحجي الجعفي الكوفي، لأبيه ولجده صحبة، تتلمذ على يدي طائفة من الصحابة كأبيه وعبدالله بن عمرو وعدي بن حاتم وابن عباس وابن عمر وغيرهم - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - قال عن نفسه: «أدركت ثلاثة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ما رأيت أحداً منهم غَيَّر شيبه»، وفي رواية: «غير شيئاً».

كان - رحمه الله تعالى - مكباً على تلاوة القرآن ولا يعرف عنه متى يختمه، لإخفائه عمله حرصاً على الإخلاص فيه، وتنقيته من شوائب الرياء والسمعة، حتى من أقرب الناس إليه وهي زوجه.

قال محمد بن خالد الضبي: «لم يكن يدرى كيف يقرأ خيثمة القرآن حتى مرض، فجاءته امرأته فجلست بين يديه فبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ الموت لا بد منه، فقالت له امرأته: الرجال بعدك علي حرام، فقال لها خيثمة: ما كل هذا أردت منك، إنما كنت أخاف رجلاً واحداً وهو أخي محمد بن عبدالرحمن، وهو رجل فاسق يتناول الشراب، فكرهت أن يشرب في بيتي الشراب، بعد إذ القرآن يتلى فيه في كل ثلاث: فكان - رحمه الله - يختم القرآن في كل ثلاث ليال».

وكان أيضاً محباً لأهل القرآن وحملته يجلهم ويقدرهم ويكرمهم غاية ما يستطيع، قال مسعر: «كان لخيثمة سلة فيها خبيص تحت السرير، إذا جاء

القراء وأصحابه أخرجها لهم»، وكان يقول: «كلوا فوالله ما أشتهيه، وما أصنعه إلا لكم»، «وكان يصر الدراهم وكان موسراً، فإذا رأى الرجل من أصحابه منخرق القميص أو الرداء أو به خَلّة، تحينه فإذا خرج من الباب خرج هو من باب آخر حتى يلقاه فيعطيه، فيقول: اشتر قميصاً، اشتر رداء، اشتر حاجة كذا».

كل هذا تمسكاً بسنة النبي ﷺ، أخذاً مما رواه أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**» (رواه أبو داود بسند حسن).

الحارث بن سويد

نفع الله عز وجل المسلمين عامة بعلم عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – وطلابه على وجه الخصوص، وذلك مما قرأه على النبي ﷺ من كتاب الله عز وجل وما تعلمه على يديه من معانيه والمعرفة بتفسيره وأحكامه، فقد كان من السابقين الأوائل إلى الإسلام، قال – رضي الله عنه: «لقد رأيتني سادس ستة، ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا»، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ وأوذي في الله من أجل ذلك.

لازم النبي ﷺ ملازمة شديدة واشتغل بخدمته، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – من أهل بيت رسول الله ﷺ، ففي البخاري ومسلم عنه – رضي الله عنه – قال: «قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له».

كان – رضي الله عنه – من حفاظ الصحابة لكتاب الله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع القرآن منه لعلو مكانته وحسن صوته وإتقانه، قال – رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي سورة النساء**»، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[1] (رواه البخاري ومسلم).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

وأثنى على قراءته وقدمه على غيره، وتلك شهادة عظيمة وتزكية بليغة، حيث قال: «من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» (رواه أحمد وابن خزيمة والطبراني)، وقد نفع الله به طلابه وتلاميذه ومن أتى بعدهم، في القراءة والتفسير والحرص على طلب ذلك والتفاني في تحصيله وإتقانه، حيث أبان لهم المنهج السوي في هذا قولاً وعملاً، روى ابن جرير الطبري عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، وعن مسروق قال: «قال عبدالله - يعني ابن مسعود - والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله مني تناوله المطي لأتيته».

وقد عرضت فيما سبق نماذج مشرقة وصوراً مباركة من سير بعض تلاميذه وطلابه، في العناية بكتاب الله عز وجل تلاوة وعلماً، والتأثر به قولاً وعملاً، حالاً وسلوكاً وأخلاقاً، حتى كثر الثناء عليهم والإشادة بذكرهم ممن لقيهم أو لازمهم أو رأى أثرهم فيمن بعدهم، يقول سعيد بن جبير: «كان أصحاب عبدالله سُرج هذه القرية»، يعني: الكوفة.

وقال الشعبي: «ما رأيت قوماً أعظم أحلاماً ولا أكثر فقهاً ولا أكره لهذه الدنيا من قوم صحبوا عبدالله بن مسعود، ولولا الصحابة ما فضلت عليهم أحداً»، وقال إبراهيم النخعي: «كان أصحاب عبدالله الذين يفتون ويقرؤون القرآن، علقمة بن قيس ومسروق وعبيدةُ السلماني وعمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس».

ومنهم: أبو عائشة الحارث بن سويد التيمي الكوفي، من أصحاب ابن مسعود وحدث أيضاً عن عمر وعلي - رضي الله عنهم - كان الإمام أحمد إذا ذكره عظَّم شأنه ورفع من قدره، وقد أخرج حديثه أصحاب الكتب الستة،

قال إبراهيم التيمي: «صحب عبدالله بن مسعود من التيم سبعون رجلاً، وكان الحارث بن سويد من أعلاهم نفساً»، وقال أيضاً – مبيناً تدبره وتأثره بآي الذكر الحكيم: «لقد أدركت سبعين شيخاً من أصحاب عبدالله – يعني: ابن مسعود – أصغرهم الحارث بن سويد، فسمعته يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾[1]. حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾[2]، فقال: إن هذا الإحصاء شديد». وكان يعمل بما دلت عليه الآية، فكان إذا شتمه الرجل يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾، كل ذلك يحصى».

وصدق – رحمه الله تعالى – فإن المؤمن الصادق يحاسب نفسه على الصغير قبل الكبير، وكل ذلك محصى عليه ومجازى به، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عنه – عليه الصلاة والسلام – في الخيل، جاء في آخره فسئل رسول الله عن الحمر، فقال: «**ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾»، وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾، فقال: «حسبي، لا أبالي ألا أسمع غيرها».

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ١.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان، ٧، ٨.

عمرو بن عتبة

ومن أئمة السلف عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي، جمع - رحمه الله - بين طول العبادة وعظيم التأثر بكتاب الله عز وجل، وبين الجهاد في سبيل الله عز وجل وحب الشهادة في سبيله، حتى نالها بإذن الله عز وجل، وما كان له ذلك إلا بتوفيق من الله سبحانه ثم بدعائه والإلحاح عليه في ذلك مع مجاهدة نفسه وأطرها على طاعة الله وصرفها عن التعلق بالدنيا وتقديمها على الدار الآخرة.

يقول - رحمه الله: «سألت الله ثلاثاً، فأعطاني اثنتين وأنا أنتظر الثالثة، سألته أن يزهدني في الدنيا فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها».

وتذكر أخته قيامه بالليل وتدبره لآي القرآن الكريم فتقول: «قام ذات ليلة فاستفتح سورة (حم) فلما أتى على هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[1]، ما جاوزها حتى أصبح».

فالآية في بيان صورة من صور يوم القيامة، يقول الحافظ ابن كثير «يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]، وقال عز وجل:

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾[١]، وقال جل وعلا: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ ﴾[٢]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ ﴾، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ۝٣٨ ﴾[٣]، وقال ابن جريج: «كاظمين»، أي: باكين، وقوله سبحانه: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾، أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير»[٤].

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٣) سورة نبأ، الآية: ٣٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٥.

مرة بن شراحيل - زر بن حبيش

كان لي حديث فيما سبق عن أصحاب عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - وطلابه، وعظيم انتفاعهم بقراءته وعلمه وترسم المنهج الصواب في التأثر بالقرآن الكريم قولاً وعملاً، وثناء الأئمة عليهم والإشادة بذكرهم، وأن منهم من غلب عليه الاشتغال بالعبادة والطاعة عن كثرة الرواية، من هؤلاء: مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي، يقال له: مرة الطيب ومرة الخير، لكثرة عبادته وخيره وعلمه وطيب معشره وحسن خلقه.

روى عن الشيخين أبي بكر وعمر وعن عبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري وغيرهم من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - وهو أحد المخضرمين، متفق على إمامته وثقته، وأخرج حديثه أصحاب الكتب الستة.

كان - رحمه الله - مكباً على تلاوة القرآن لا يفتر عنه، وكان يتقرب بتلاوته إلى الله عز وجل شكراً على نعمه عليه، ومن ذلك أنه عصمه من الفتن والولوج في الشبهات، وكان يقول: «ليتق امرؤ ألا يكون من رسول الله ﷺ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾»(١).

فالآية فيها تحذير بليغ من الفرقة والاختلاف، والانحراف عن منهج النبي ﷺ والانصراف عن الكتاب والسنة إلى مسالك ضالة وطرق مبتدعة، والاعتياض بها عن الوحيين، وقد روي عن الصحابة والتابعين في المراد

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

بهؤلاء أقوال كثيرة، قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق جملة من هذه الأقوال: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ ، أي: فرقاً، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾»(١)(٢).

ومن الأئمة القراء الذين تتلمذوا على عبدالله بن مسعود وغيره أبو مريم زر بن حبيش الأسدي الكوفي، مقرئ الكوفة مع أبي عبدالرحمن السلمي، أخذ القراءة عن ابن مسعود وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – ورحل في طلب القراءة وتفسير كتاب الله عز وجل، يأخذ ذلك عمن لقيه من صحابة رسول الله ﷺ يقول عن نفسه: «خرجت في وفد من أهل الكوفة، وايم الله إن حرضني على الوفادة إلا لقيُّ أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدمت المدينة أتيت أبي بن كعب وعبدالرحمن بن عوف، فكانا جليسي وصاحبي، فقال أُبي: يا زر ما تريد أن تدع آية من القرآن إلا سألتني عنها».

وفي رواية قال: «أتيت صفوان بن عسال فقال: ما جاء بك؟ فقلت: جئت أبتغي العلم، قال: ما من رجل خرج من بيته ابتغاء العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاء بما يعمل».

ولا غرو أن هذا القول من صفوان – رضي الله عنه – فيه ترغيب لهذا الطالب الحريص على تعلم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله – عليه الصلاة

(١) سورة الحج، الآية: ١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٩٦.

والسلام – وتشجيع له وأخذ بيديه للمواصلة في الطلب والرحلة من أجل العلم، مما هو الواجب على المعلمين والأساتذة تجاه طلابهم والمتعلمين على أيديهم، وقوله هذا مستقى مما ثبت عنه ﷺ حيث قال: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء – رضي الله عنه).

وبتوفيق من الله عز وجل ثم بهذا الطلب والحرص والجهد بلغ زر بن حبيش مرتبة عالية في قراءة القرآن والعلم بمعانيه مع التأثر والانتفاع به، حيث تصدر للإقراء وانتفع به خلق كثير منهم: يحيى بن وثاب وعاصم بن بهدله – أحد القراء السبعة – وأبو إسحاق والأعمش وغيرهم.

يقول عاصم: «ما رأيت رجلاً أقرأ من زر بن حبيش»، وقال أيضاً: «أدركت أقواماً كانوا يتخذون هذا الليل جملاً، منهم زر بن حبيش»، مراده: اتخاذ هؤلاء الليل غنيمة بقيامه وتلاوة كتاب الله فيه مع الدعاء والاستغفار، وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**».

أبو عبدالرحمن السلمي

من الأئمة في القراءة والعلم بتفسير كلام الله عز وجل أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي الكوفي من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ ولم يره.

قرأ القرآن وجوده ومهر فيه حيث عرضه على عثمان وعلي وابن مسعود – رضي الله عنهم – ثم أقرأ الناس كتاب الله عز وجل، وهو الراوي عن عثمان بن عفان قوله – عليه الصلاة والسلام: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، فجلس يقرئ الناس في المسجد أربعين سنة، وكان يقول: «فذلك الذي أقعدني هذا المقعد»، وعن سعد بن عبيدة قال: «أقرأ أبو عبدالرحمن – يعني السلمي – في خلافة عثمان وإلى أن توفي في زمن الحجاج».

وكانت طريقته في الإقراء والتعليم حسب المنهج الذي تعلمه وأخذه عمن لقيه من الصحابة وهو الأسلم والأقوم، يقول – رحمه الله: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم»، وفي رواية أخرى قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً».

فليست التلاوة والتعليم بمعزل عن العمل بالقرآن، بل المسلم مطالب

بالجميع، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[1]، ولا شك أن من فضل الأعمال تلاوة القرآن، وهو من الأعمال اليسيرة المضاعف أجرها، فالحرف بعشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ثم العناية بمعرفة تفسيره والعلم بأحكامه من أشرف العلوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم، ولا أفضل من كلام الله عز وجل والعناية به، ثم بعد ذلك العمل به والتحاكم إليه والاهتداء به، والسير على طريقه مع ما ثبت عن نبينا وقدوتنا - عليه الصلاة والسلام.

كان أبو عبدالرحمن السلمي - رحمه الله - ممن يرى إعظاماً لكتاب الله عز وجل وإجلالاً له عدم جواز أخذ الأجرة على تعليمه، فقد دخل مرة داره وإذا بها جلال وجزر، فسأل عنها فقالوا: «بعث بها عمرو بن حريث لأنك علمت ابنه القرآن، فقال: ردوا هذا، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً»، وقال عطاء بن السائب: «كان رجل يقرأ على أبي عبدالرحمن، فأهدى له قوساً، فردها وقال: ألا كان هذا قبل القراءة».

وهذه المسألة خلافية بين العلماء قديماً، قال الإمام النووي: «وأما أخذ الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه، فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه عن جماعة من العلماء، منهم الزهري وأبو حنيفة، وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه، وهو قول الحسن البصري والشعبي وابن سيرين، وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.

واحتج من منعها بحديث عبادة بن الصامت أنه علم رجلاً من أهل الصفة القرآن، فأهدى له قوساً، فقال له النبي ﷺ: «**إن سرك أن تطوّق بها طوقاً من نار فاقبلها**»، وهو حديث مشهور رواه أبو داود وغيره، وبآثار كثيرة عن السلف، وأجاب المجوزون عن حديث عبادة بجوابين:

أحدهما: أن في إسناده مقالاً.

والثاني: أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئاً، ثم أهدى إليه على سبيل العوض، فلم يجز له الأخذ بخلاف من يُعقد معه إجارة قبل التعليم»[1].اهـ.

ومما يدل على الجواز ما في الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيهم لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راق، فإن في الماء رجلاً لديغاً أو سليماً، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجراً، حتى قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**»، وفي رواية: «**قد أصبتم، اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً**»، وضحك النبي ﷺ.

ومما يدل على الجواز أيضاً حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - المخرج في الصحيحين في قصة الواهبة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم تكن له

---

(١) التبيان: ٤٥-٤٦.

بها حاجة، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «**هل عندك من شيء تصدقها إياه**»؟ قال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال النبي ﷺ: «**إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً**»، فقال: ما أجد شيئاً، فقال: «**التمس ولو خاتماً من حديد**»، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «**هل معك من القرآن شيء**»؟ قال: نعم، سورة كذا وسورة كذا، لسور يسميها، فقال له النبي ﷺ: «**قد زوجتكها بما معك من القرآن**»، أي: ليعلمها، كما جاء في بعض الروايات.

ومع هذا فإنه يجب على معلم القرآن إخلاص النية في عمله هذا، فإنه من أشرف الأعمال وأفضل القرب، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبدالرحمن بن شبل – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا**»، قال الحافظ ابن حجر: «وسنده قوي» [1]، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**» (رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم بسند صحيح).

ومما روي عن السلف في التحذير من هذا الأمر قول زادان الكندي أبي عمرو: «من قرأ القرآن ليتأكل به الناس جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم»، وقال الحسن البصري – رحمه الله تعالى: «قراء هذا القرآن ثلاثة

---

(١) فتح الباري: ٩/ ١٠١.

رجال، رجل قرأه فاتخذه بضاعة، ونقله من بلد إلى بلد، ورجل قرأه فأقام حروفه وضيع حدوده، يقول: إني والله لا أسقط من القرآن حرفاً، ورجل قرأه فأسهر ليله وأظمأ نهاره ومنع شهوته، فجثوا في برانسهم، وركدوا في محاريبهم، بهم ينفي الله عنا العدو، وبهم يسقينا الله الغيث، وهذا الضرب من القراء أعز من الكبريت الأحمر».

وقال أيضاً: «من أفرط في حب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بغضاً، ولم يزدد من الدنيا إلا بعداً»، وعن الحسن بن صالح قال: «إنك لا تفقه حتى لا تبالي في يدي من كانت الدنيا».

قال بعض أهل العلم: «من علامات علماء الآخرة: ألا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقيقة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين، مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان، مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب، مهما قربت من أحدهما بعُدت من الآخر، وأنهما كقدحين، أحدهما مملوء والآخر فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر.

فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك، فكيف

يكون من العلماء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة، وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع، فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم، فكيف يعد من زمرة العلماء، ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان، قد أهلكته شهوته، وغلبت عليه شقوته، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته» [(١)].

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٧٤.

إبراهيم بن يزيد التيمي

من أئمة السلف الصالح في العلم وحفظ السنة وكثرة العبادة، تأثراً بآي الذكر الحكيم وعملاً بسنة النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - أبو أسماء إبراهيم بن يزيد التيمي، حديثه مخرج في الكتب الستة، وهو من عباد الكوفة، روى عن أبيه وعمر وأبي ذر وغيرهم من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - قال عنه الذهبي: «كان شاباً صالحاً قانتاً عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً» (١) ، توفي - رحمه الله تعالى - ولم يبلغ أربعين سنة.

كان - رحمه الله تعالى - مشهوراً بالعبادة، ومنها تلاوة القرآن الكريم والتدبر والتأمل في آياته، والوقوف عند هداياته ودلالاته، والتأثر بها قولاً وعملاً، فقد كان من دعائه: «اللهم اعصمني بكتابك وسنة نبيك من اختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى بغير هدى منك، ومن سبل الضلالة ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ واللبس والخصومات».

ومن أقواله واستدلاله وتفسيره لآي القرآن الكريم أنه كان يقول عند قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ (٢)، «سبحان من قطع من النيران ثياباً»، وعنه في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ (٣). قال: «حتى من موضع كل شعرة»، وقال أيضاً: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٦٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

أن يكون من أهل النار، لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[١]. وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[٢]».

وكان يوصي أهل زمانه ويذكر حالهم مع من سبقهم فيقول: «إن من كان قبلكم يفرون من الدنيا وهي مقبلة عليهم، ولهم من القدم ما لهم، وأنتم تتبعونها وهي مدبرة عنكم، ولكم من الإحداث مالكم، فقيسوا أمركم وأمر القوم».

ومع هذه العبادة وكثرتها وتنوعها وحرصه على نشر السنة ووعظ الناس ونصحهم إلا أنه كان شديد المحاسبة لنفسه، مزرياً بها لا يمدحها ولا يعجب بعمله ولا يدلي به على الله، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان في باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، قول إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً»، وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل» ويذكر عن الحسن «ما خافه - أي النفاق - إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق» .. إلخ.

قال الحافظ ابن حجر قوله: «وقال إبراهيم التيمي: هو من فقهاء التابعين وعبادهم، وقوله: «مكذباً» يروى بفتح الذال يعني خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي، فيقول: لو كنت صادقاً ما فعلت خلاف ما

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الطور، الآية: ٢٦.

تقول، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يعظ الناس، ويُروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر، ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل، وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1]، فخشي أن يكون مكذباً، أي: مشابهاً للمكذبين»[2].

ومن أقواله - رحمه الله تعالى: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه»، وقال أيضاً: «أعظم الذنب عند الله أن يحدث العبد بما ستر الله تعالى عليه»، وصدق - رحمه الله - فقد كان السلف يعزي بعضهم بعضاً في فوات تكبيرة الإحرام، فكيف الحال بمن تفوتهم ركعات من صلواتهم وهم لا يكترثون بذلك ولا يلقون له بالاً، بل كيف الحال بمن لا يشهدون الصلوات جماعة في المسجد مع إخوانهم المسلمين، «وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق»، أسأل الله الهداية للجميع.

أما قوله الآخر فمستقى مما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل أمتي معافىً إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»** (متفق عليه).

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

(٢) فتح الباري: ١/ ١١٠.

إبراهيم النخعي

من أئمة السلف أبو عمران إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، أحد الحفاظ والفقهاء الأعلام والقراء المفسرين، حديثه مخرجٌ في الكتب الستة، ولم يصح له سماع عن أحد من الصحابة، مع أنه من التابعين؛ لأنه ليس من كبارهم، لكنه تتلمذ على تلاميذ ابن مسعود وأصحابه، فلذا كان بصيراً بعلمه واسع الرواية عنه، فقد روى عن خاله الأسود بن يزيد ومسروق وعلقمة بن قيس وعبيدة السلماني وغيرهم من كبار التابعين رحم الله الجميع.

كثر ثناء الأئمة عليه بالصلاح وإقراء القرآن وكثرة العبادة ورواية السنة، وتعليم العلم مع الفقه والورع، قال شعيب بن الحبحاب: «كنت فيمن دفن إبراهيم النخعي ليلاً، سابع سبعة أو تاسع تسعة، فقال الشعبي: أدفنتم صاحبكم؟ قلت: نعم، قال: أما إنه ما ترك أحداً أعلم منه أو أفقه منه، قلت: ولا الحسن ولا ابن سيرين؟ قال: نعم، ولا من أهل البصرة ولا من أهل الكوفة ولا من أهل الحجاز، ولا من أهل الشام»، وفي رواية: قال: «وسأخبركم عن ذلك إنه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته، فمن كان مثله».

وقال الإمام أحمد: «كان إبراهيم ذكياً حافظاً صاحب سنة»، وكان سعيد بن جبير إذا سئل قال: «تستفتوني وفيكم إبراهيم النخعي».

ومع هذا الثناء من أهل زمانه عليه وتقديرهم واحترامهم علمه، إلا أنه كان يحذر الشهرة وصرف الأنظار إليه والتعالي على الخلق بما فتح الله عليه،

يقول الأعمش: «كان إبراهيم يتوقى الشهرة، فكان لا يجلس إلى الأسطوانة، وكان إذا سئل عن مسألة لم يزد عن جواب مسألته، فأقول له في الشيء يُسأل عنه: أليس فيه كذا وكذا؟ فيقول: إنه لم يسألني عن هذا، وكان إبراهيم صيرفي الحديث، فكنت إذا سمعت الحديث من بعض أصحابنا عرضته عليه».

وكان – رحمه الله تعالى – يتحرج من الفتوى ولا يتصدر لها ولا يتطلبها، فإذا سئل عما يعلمه أفتى وعلَّم، يقول إسماعيل بن أبي خالد: «كان الشعبي وأبو الضحى وإبراهيم وأصحابنا يجتمعون في المسجد فيتذاكرون الحديث، فإذا جاءتهم فتيا ليس عندهم منها شيء رموا بأبصارهم إلى إبراهيم النخعي»، وعن أبي الحصين قال: «أتيت إبراهيم أسأله عن شيء، فقال: ما وجدت أحداً فيما بيني وبينك تسأله غيري»، وفي رواية قال: «ما وجدت أحداً من أهل بيتك تسأله غيري»، وكان – رحمه الله تعالى – يقول: «من جلس مجلساً ليجلس إليه، فلا تجلسوا إليه».

وكان – رحمه الله – حريصاً على إخفاء العمل، إخلاصاً لله تعالى فيه وبعداً عن الرياء والسمعة بين الناس، يقول الأعمش: «كنت عند إبراهيم وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن عليه رجل فغطى المصحف، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ فيه كل ساعة».

فكان يكره الشهرة وحب الظهور وصرف الأنظار إليه، بل كان يتوقى هذا كله ومن ذلك تحرجه عن الفتوى فلا تشرئب لها عنقه ولا يتصدر المجالس فإذا سئل عما يعلم أفتى وعلَّم، أداء لما تحمله من أمانة العلم، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**» (رواه

أحمد والطبراني)، ومن ذلك تحرجه في التفسير والقول في القرآن الكريم، وينقل هذا المنهج عن شيوخه وأئمته، وهم خيار السلف والمقدمون فيهم، فهم تلاميذ ابن مسعود وأصحابه، قال - رحمه الله تعالى: «كان أصحابنا يكرهون تفسير القرآن ويهابونه».

وقد أبان شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير هذا الأمر بعد أن نقل أقوالاً عن السلف في تحرجهم عن الكلام في التفسير فقال: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[1]. ولما جاء في الحديث المروي من طرق «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[2].

وقد أخذ إبراهيم النخعي القراءة عرضاً عن علقمة بن قيس والأسود بن يزيد، ثم قرأ عليه الأعمش وطلحة بن مصرف، ومن دقائق أدبه مع القرآن واحترامه له قوله: «كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف، قال: وكان يقال: عظموا كتاب الله».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٧٤.

ويحكي - رحمه الله - حال العلماء القراء العباد في زمانه في التأثر والبكاء ورقة القلوب، فيقول: «كانت تكون فيهم الجنازة فيظلون الأيام محزونين، يعرف ذلك فيهم»، وفي رواية قال: «كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت عرف فينا أياماً، لأنا قد عرفنا أنه قد نزل به أمر مصيره إلى الجنة أو إلى النار، وإنكم في جنائزكم تتحدثون بأمر دنياكم».

فكيف الحال لو رأى بعض أهل زماننا هذا، الذين يذكر عندهم الموت ويحملون الجنائز ويوارونها في المقابر، ومع ذلك فلا قلب يجل ولا عين تدمع، لا أوبة صادقة ولا توبة نصوح إلى الله تعالى، بل إن بعضهم في المقبرة وبين الناس منهمك الحديث عن دنياه ومشاغله ومناسباته وولائمه، وكأن ما أمامه شربة ماء أو شيء معتاد، يقول الحسن البصري: «لقد فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحاً»، وكان أهل العلم يسمون القبر: «الواعظ الصامت»، كان عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إذا زار المقابر بكى وأبكى من حوله، فإذا قيل له في ذلك قال: «إن القبر لأول منزلة ينزلها العبد من منازل الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار»، وجاء في سيرة سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - أنه كان يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ ، يرددها ويبكي.

نعم لقد ألهى الكثير من الناس التكاثر بالدنيا والإعجاب بزينتها والتهالك على جمعها والحب والبغض والتفاني من أجلها عن تذكر اليوم الآخر استعداداً له، بدءاً من الموت ثم القبر وما بعده؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، ولذا فقد حث - عليه الصلاة والسلام - أمته على تذكر الموت تذكراً

يوجب الاستعداد له بالتوبة النصوح الصادقة وأداء الفرائض واجتناب المحرمات والازدياد من نوافل الخير والإحسان، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات فإنه ما ذكر في قليل إلا كثره، ولا كثير إلا قلله**» (رواه البيهقي وابن حبان)، قال بعض السلف: «من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف والتكاسل في العبادة»، وقال بعضهم: «تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي، ويُذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها».

وقد كان الإمام التابعي إبراهيم النخعي على جانب عظيم من رقة القلب والإزراء بالنفس وعدم تزكيتها، روي أنه بكى في مرضه، فقالوا له: «يا أبا عمران ما يبيك؟ قال: وكيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولاً من ربي يبشرني إما بهذه وإما بهذه»، وعن عمران الخياط قال: «دخلنا على إبراهيم النخعي نعوده وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك يا أبا عمران؟ قال: أنتظر ملك الموت، لا أدري، يبشرني بالجنة أم النار».

ومع هذا فإن المؤمن مطلوب منه ساعة الاحتضار أن يُحسن الظن بربه ويعظم رجاءه فيه، لما دل عليه الحديث الذي رواه جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**» (رواه مسلم).

ومن أقواله المروية عنه فيما يحكيه عن حال السابقين الأخيار قوله: «كانوا يجلسون فيتذاكرون، فأطولهم سكوتاً أفضلهم في أنفسهم»، وقال أيضاً:

«كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه، نظروا إلى صلاته وإلى هديه وإلى سمته»، وقال أيضاً: «كانوا يستحبون أن يزيدوا في العمل، ولا ينقصوا منه، وإلا فشيء ديمه»، وقال أيضاً: «كانوا يكرهون أن يظهروا صالح ما يسرون، يقول الرجل إني لأستحي أن أفعل كذا وكذا وأصنع كذا وكذا .. وكانوا يعطون ويسكتون، ولا يقولون شيئاً»، أي: لا يطلبون أجراً ولا ثناء ولا عوضاً من الخلق.

كان للسلف أحوال في زمان ختم القرآن، فقد ذكر الأعمش سليمان بن مهران رحمه الله تعالى أن أصحابه وشيوخه كإبراهيم النخعي يعجبهم أن يختم أول النهار أو أول الليل، والأمر في هذا واسع لكن استحب بعض العلماء أن يختار الأوقات الفاضلة والأماكن الشريفة والأحوال المرضية ليختم فيها، كالهزيع الأخير من الليل أو بين الأذان والإقامة، أو أن يكون صائماً، لعله أن يستجاب دعاؤه، فقد روى ابن أبي داود بإسناده أن طلحة بن مصرف وحبيب بن أبي ثابت والمسيب بن رافع – رحمهم الله تعالى – كانوا يصبحون في اليوم الذي يختمون فيه القرآن صياماً، فقد ثبت في فضل الدعاء وفي قرب إجابته حال الصيام قوله – عليه الصلاة والسلام: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم**»، وذكر منهم «**الصائم حتى يفطر**» (رواه البيهقي).

عون بن عبدالله بن عتبة

من أئمة السلف الصالح وعبادهم أبو عبدالله عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، نزل المدينة زمناً، وفيه يقول الأصمعي: «كان من آدب أهل المدينة وأفقههم»، ثم إنه لزم عمر بن عبدالعزيز فكانت له مكانة عنده، لما كان عليه - رحمه الله تعالى - من الوعظ والنصح بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، روي عنه أنه قال: «قال أصحاب النبي ﷺ له عليه الصلاة والسلام لو حدثتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[1]. ثم نعته فقال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ثم قالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا فوق الحديث ودون القصص، قال: وكيع يعنون القرآن، فأنزل الله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾[2]. قال: فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص».

فكان حديثه ووعظه - رحمه الله - مأخوذاً من الوحيين الكتاب والسنة مستقى منهما، فلا يترك أحدهما ويلتزم الآخر في العلم والعمل والدعوة إليهما، فإن خالف ذلك فقد ضل وأضل، قال - رحمه الله: «كان يقال: مثل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ١-٣.

الذي يطلب علم الأحاديث ويترك القرآن، مثل رجل أخذ باب زريبة فيها غنم، فمرت به ظباء فاتبعها يطلبها فلم يدركها، فرجع فوجد غنمه قد خرجت، فلا هذه أدرك ولا هذه أدرك»، وكان إذا حدّث بكى وأبكى من معه.

وقد نقل عنه في هذا أقوال كثيرة ومواعظ بليغة، منها قوله: «ما أقبح السيئات بعد السيئات، وما أحسن الحسنات بعد السيئات، وأحسن من ذلك الحسنات بعد الحسنات»، وقال أيضاً: «اهتمام العبد بذنبه داع إلى تركه، وندمه عليه مفتاح للتوبة، ولا يزال العبد يهتم بالذنب يصيبه حتى يكون أنفع له من بعض حسناته»، وقال أيضاً: «إن لكل رجل سيداً من عمله، وإن سيد عملي الذكر».

ومن إجلاله - رحمه الله تعالى - وإكرامه لأهل القرآن وحملته ما جاء في سيرته أن جارية له أدبها فأحسن تأديبها وأقرأها القرآن، فكانت تقرأ القرآن بصوت حزين، فقال لها يوماً: «لقد أعطيت فيك ألف دينار، اذهبي فلا يملكك أحد، فأنت حرة لوجه الله»، وصنيعه الصالح هذا من سنة النبي ﷺ وهديه، فقد روى أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**» (رواه أبو داود بإسناد حسن).

سعيد بن جبير

من أئمة السلف وعلمائهم وعبادهم المشهورين أبو محمد سعيد بن جبير الأسدي مولاهم الكوفي، الإمام الحافظ المقرئ المفسر، روى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ولازمه فأكثر، وقرأ عليه القرآن فجود، كان يقول: «كنت أسمع الحديث من ابن عباس، فلو أذن لي لقبلت رأسه»، كما روى أيضاً عن ابن عمر – رضي الله عنهما – وكان يثني على علمه، سأله رجل ذات مرة عن فريضة فقال: «ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب مني، وهو يفرض فيها ما أفرض».

وقد اشتهر – رحمه الله تعالى – بالعناية بكتاب الله عز وجل، يقرئ الناس ويعلمهم تلاوته، ويبين لهم معانيه ويفسره لهم، فقد قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء والأعمش وطلحة بن مصرف وغيرهم، وكتب التفسير حافلة بالمروي عنه في تفسير القرآن الكريم.

ومن صور عنايته بالقرآن واهتمامه بذلك حرصه على تلاوته وعدم ترك حزبه إلا لعارض، يقول عن نفسه: «ما مضت علي ليلتان منذ قتل الحسين إلا أقرأ فيهما القرآن، إلا مريضاً أو مسافراً»، وروي عنه أنه كان في بعض الأحيان يختم القرآن في ليلتين، وهذا محمول على أنه رغب استغلال زمان شريف أو مكان فاضل، وإلا فالسنة أن يختم القرآن في كل ثلاث ولا يزيد.

وكانت تلاوته للقرآن تلاوة تدبر ونظر وتأمل، يقف عند آياته ويرددها

متأثراً بها متعظاً عاملاً بهداياته ودلالاته، بقلب وجل خائف وعين باكية وربما أبكى من حوله، يقول القاسم بن أبي أيوب: «سمعت سعيد بن جبير يردد هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾»[1]، وقال سعيد بن عبيد: «كان سعيد بن جبير إذا أتى على هذه الآية: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[2]، رجع فيها ورددها مرتين أو ثلاثاً»، ولما قيل لورقاء بن إياس: «كان سعيد بن جبير يصنع كما يصنع هؤلاء الأئمة اليوم، يطربون أو يرددون»؟ قال: معاذ الله، إلا أنه كان إذا مر على مثل هذه الآية: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ مدها شيئاً».

ولم يكن تأثره وبكاؤه عند تلاوة القرآن وتدبر آياته بمعزل عن العمل به والوقوف عند حدوده والإئتمار بأمره والعمل بفرائضه والحذر من زواجره ونواهيه، بل كان قدوة لغيره في زمانه ومن بعدهم في التمسك به والرجوع إليه وتحكيمه في كل صغير وكبير من شؤون الحياة، قال – رحمه الله تعالى: «إن الخشية أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر التسبيح وقراءة القرآن».

وقد كثر ثناء الأئمة وأهل العلم على سعيد بن جبير – رحمه الله تعالى –

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٧١، ٧٢.

وفي مقدمتهم شيوخه، كابن عباس رضي الله عنهما الذي كان يثق بعلمه ويطمئن إلى تفسيره، كان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: «أليس فيكم ابن أم الدهماء»؟ يعني سعيد بن جبير، وروى عمرو بن ميمون عن أبيه قال: «لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه».

وكان علمه – كما بينت سابقاً – شاملاً لمعارف كثيرة أهمها وأشهرها إقراء القرآن وتفسيره وبيان معانيه وأحكامه، قال خصيف: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير».

ولا شك أن ملازمته لبعض الصحابة كعبدالله بن عباس رضي الله عنها وكبار التابعين والرواية عنهم مع جمعه القراءات الثابتة عن الصحابة كقراءة عبدالله بن مسعود وقراءة زيد بن ثابت وغيرهم – رضي الله عنهم – أثرت علمه وأعطته القدرة على التوسع في معرفة معاني القرآن والعلم بأحكامه، مع أنه كان يتورع من القول في التفسير برأيه وما ليس له به علم، سأله رجل أن يكتب له تفسير القرآن، فغضب وقال: «لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك». وهو الراوي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله – عليه الصلاة والسلام: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**» (رواه الترمذي والنسائي).

أبو إسحاق السبيعي

من أئمة السلف المقرئين الحفاظ أبو إسحاق عمرو بن عبدالله السبيعي الكوفي، شيخ الكوفة وعالمها ومحدثها، من أجلاء التابعين المشهورين بكثرة قراءة القرآن وإقرائه وحفظه للسنة وروايتها، فقد أخرج حديثه أصحاب الكتب الستة.

روى الحديث عن بعض الصحابة كمعاوية وعدي بن حاتم وابن عباس والبراء بن عازب وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - وكان يجلهم ويترضى عنهم ويعرف لهم قدرهم ويمسك عما كان بينهم، يقول أبو بكر شعبة بن عياش: «ما سمعت أبا إسحاق يعيب أحداً قط، وإذا ذكر رجلاً من الصحابة فكأنه أفضلهم عنده»، وقرأ القرآن على الأسود بن يزيد وأبي عبدالرحمن السلمي، فبلغ مبلغاً عظيماً في ذلك فأثني عليه به، يقول الأعمش: «كان أصحاب ابن مسعود إذا رأوا أبا إسحاق قالوا: هذا عمرو القارئ الذي لا يلتفت»، وممن قرأ عليه حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة وأبو إسحاق أكبر شيوخه، وممن قرأ عليه أيضاً الأعمش وخلائق آخرون.

كان - رحمه الله تعالى - مكباً على كتاب الله عز وجل يقرؤه ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار، له حزبه منه لا يتركه بل يحافظ عليه ما استطاع، فكان في حال صحته ونشاطه يختم القرآن في كل ثلاث ليال، ولما كبر وضعف جسمه كان يقرأ في الليلة الواحدة سورة البقرة وسورة آل عمران، وبهذا كان يوصي أهله وأصحابه، يقول أبو الأحوص: «قال لنا أبو إسحاق: يا معشر

الشباب اغتنموا - يعني قوتكم وشبابكم - قلما مرت بي ليلة إلا وأنا أقرأ ألف آية، وإني لأقرأ البقرة في ركعة، وإني لأصوم الأشهر الحرم وثلاثة أيام من كل شهر والاثنين والخميس».

وإخباره هذا ليس من باب السمعة وطلب الثناء والتمدح بين الناس، إنما أراد تنشيط السامعين وإثارة هممهم ومبادرتهم للأعمال الصالحة، واستغلال نشاطهم وقوتهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**اغتنم خمساً قبل خمس، حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**» (رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بسند صحيح).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً أو هرماً مُفْنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**» رواه الترمذي وقال حديث حسن.

كان أبو إسحاق السبيعي متخلقاً بخلق أهل القرآن، مهتدياً بهدي من سبق، متسماً بسيماهم قولاً وعملاً، قال مغيرة بن مقسم: «كنت إذا رأيت أبا إسحاق ذكرتُ به الضرب الأول»، وقال جرير بن عبدالحميد: «كان يقال: من جالس أبا إسحاق فقد جالس علياً وعبدالله - يعني ابن مسعود - رضي الله تعالى عنهما».

عبدالرحمن بن أبي ليلى

من أئمة السلف في العبادة والعلم، وتلاوة القرآن والتأثر به أبو عيسى عبدالرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، على عقيدة أهل السنة في حب الصحابة والترضي عنهم وإجلالهم وهذا مما يدين الله به، كما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ، لما أريد منه أن يشتم عثمان بن عفان، قال: «إنه يمنعني من ذلك آيات في كتاب الله ثلاث، قال الله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾[1]، وكان عثمان منهم، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2]، وكان عثمان منهم، وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[3] وكان منهم».

وعبدالرحمن بن أبي ليلى أدرك عدداً من الصحابة، يقول عن نفسه: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ - ورضي الله تعالى عنهم - إذا سئل أحدهم عن شيء ودَّ أن أخاه كفاه»، وممن قرأ عليه القرآن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه، وحدث عن عمر وأبي ذر وابن مسعود وأبي بن

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٠.

كعب وغيرهم، حتى بلغ مبلغاً عظيماً في العلم، وبخاصة تفسير القرآن الكريم ومعرفة أحكامه، قال محمد بن سيرين: «جلست إلى عبدالرحمن بن أبي ليلى، وأصحابه يعظمونه كأنه أمير»، وقال ثابت البناني: «كنا إذا قعدنا إلى عبدالرحمن بن أبي ليلى، قال لرجل: اقرأ القرآن فإنه يدلني على ما تريدون، نزلت هذه الآية في كذا وهذه الآية في كذا».

وكان – رحمه الله تعالى – يقرئ القرآن في بيته ويكرم قراءه، يقول مجاهد: «كان لعبدالرحمن بن أبي ليلى بيت فيه مصاحف، يجتمع إليه فيه القراء، قلما تفرقوا إلا عن طعام»، وهذا من باب التشجيع وتأليف القلوب وإكرام النفوس والإقبال بها على القرآن، لا سيما مع شدة حاجة بعضهم إلى الطعام، لما كانوا فيه من عوز وفقر وحاجة.

وكان – رحمه الله تعالى – لا يترك حزبه من قراءة القرآن، يقول ثابت البناني: «كان ابن أبي ليلى إذا صلى الصبح نشر المصحف، وقرأ حتى تطلع الشمس»، ويصلي بعد ذلك ركعتين اغتناماً للأجر وحرصاً على فضل هذا العمل، فقد روى الترمذي عنه ﷺ بسند حسن «أن من صلى الصبح – أي الفجر – في جماعة ثم جلس في مصلاه الذي صلى فيه يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كتب له أجر حجة وعمرة تامة تامة».

عامر بن عبد قيس

من أئمة السلف وعبادهم الذين اشتغلوا بإقراء الناس وتعليمهم كتاب الله عز وجل ومعانيه وأحكامه أبو عبدالله عامر بن عبد قيس التميمي البصري، مع طول العبادة، قال العجلي: «كان ثقة من عباد التابعين، رآه كعب الأحبار فقال: هذا راهب هذه الأمة»، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «كان عامر بن عبدالله الذي يُعرف بابن عبد قيس يقرئ الناس، كان يقول من أقرئ؟ فيأتيه ناس فيقرئهم القرآن، ثم يقوم فيصلي إلى الظهر ثم يصلي إلى العصر، ثم يقرئ الناس إلى المغرب ثم يصلي ما بين العشائين ثم ينصرف إلى منزله فيأكل وينام نومة خفيفة، ثم يقوم إلى صلاته ثم يتسحر رغيفاً ويخرج لصلاة الصبح».

هكذا كان وقته، غالبه في إقراء الناس أو في صلاة، أو في مباح يكون بالنية الصالحة طاعة وقربة، ولما احتضر بكى، فقيل: «ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل». فما كان بكاء الصالحين عند موتهم إلا لانقطاعهم بالموت عن تلك الأعمال الصالحة، يقول ﷺ: **«ما من ميت يموت إلا ندم، إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون استعتب»** (رواه الترمذي)، أي تاب وأناب إلى الله عز وجل.

محمد بن سوقه

من أئمة السلف الإمام التابعي أبو بكر محمد بن سوقة الغنوي الكوفي، تتلمذ على يد بعض الصحابة وكبار التابعين كأنس بن مالك وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي، كما تتلمذ على يديه سفيان الثوري وسفيان بن عيينه وعلي بن عاصم ويعلى بن عبيد وغيرهم.

وقد أفاد طلابه ومن بعدهم منهج السابقين في عنايتهم بالقرآن الكريم وتأثرهم به، تلاوة لآياته وسيراً على نهجه وتمسكاً به، وبهذا يحاسب العبد نفسه، يقول يعلى بن عبيد: «دخلنا على محمد بن سوقة فقال: أحدثكم بحديث لعل الله أن ينفعكم به، فإن الله قد نفعني به، دخلنا على عطاء فقال لنا: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا ثلاثاً، كتاب الله أن يتلوه، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو أن ينطق بحاجته التي لا بد له منها، أتنكرون: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1]. ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[2]، أما يستحي أحدكم لو نشرت عليه صحيفته في آخر نهاره التي أملى فيها صدر نهاره أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه».

وكان - رحمه الله تعالى - قدوة صالحة فيما يدعو ويرشد إليه، لذا فقد كثر ثناء أهل زمانه عليه، قال جعفر الأحمر: «كان أصحابنا البكاؤون أربعة،

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة ق، الآيتان: ١٧، ١٨.

مطرف بن طريف ومحمد بن سوقه وعبدالملك بن أبجر، وأبو سنان ضرار بن مرة»، ولا غرو أن رقة القلب وبكاء العين من خشية الله علامة خير ورشد للعبد، فقد كان ﷺ أتقى الناس وأخشاهم لله وأسرعهم دمعة، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح).

وعن عبدالله بن الشخير – رضي الله عنه – قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء» (رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح).

ومما جاء في الثناء على محمد بن سوقة – رحمه الله تعالى – في عبادته وازدياده من الخير ما روي عن سفيان الثوري قال: «خمسة من أهل الكوفة يزدادون في كل يوم خيراً، فذكر: ابن أبجر وأبا حيان التيمي ومحمد بن سوقة، وعمرو بن قيس وأبا سنان ضرار بن مرة»، ومما اشتهر عنه – رحمه الله – الإكثار من الحج والجهاد في سبيل الله عز وجل، فقد ذكر أبو حنيفة أنه دخل مكة ثمانين مرة ما بين حج وعمرة، وقال سفيان الثوري «حدثنا محمد بن سوقة، وما رأيت بالكوفة شيخاً أفضل منه، كان له مال فلم يزل يحج ويغزو».

ومما أثر عنه حسن خلقه وحبه الخير لإخوانه المسلمين والبعد عن أذيتهم، بل الفرح والسرور في خدمتهم وإعانتهم: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه مسلم، سئل – رحمه الله: «أي العمل أحب إليك؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قالوا: فما بقي مما يستلذ؟ قال: الإفضال

على الإخوان»، وتلك خصلة عظيمه لا يوفق لها ويعان عليها إلا من أراد الله به خيراً، إذ هي تحتاج إلى مجاهدة وإيثار وحب في الله عز وجل، وهي يسيرة على من يسرها الله عليه، وأقل ما يقدمه المؤمن لإخوانه – وهو عظيم عند الله عز وجل – بشاشة الوجه معهم وإلقاء السلام عليهم والتلطف معهم، يقول – عليه الصلاة والسلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم حسن الخلق وبسطة الوجه» (رواه أبو يعلى والبزار)، ويقول – عليه الصلاة والسلام: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» (رواه مسلم).

وعن أبي ذر جندب بن جنادة – رضي الله عنه – قال: «قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: (**الإيمان بالله والجهاد في سبيله**)، قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: (**أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً**)، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: (**تعين صانعاً أو تصنع لأخرق**)، قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: (**تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**)» (متفق عليه)، وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**على كل مسلم صدقة، قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة**».

الأعمش

من أئمة السلف في القراءة والحديث والعبادة أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش الأسدي مولاهم الكوفي، أخذ القراءة عن إبراهيم النخعي وزر بن حبيش وزيد بن وهب وعاصم بن أبي النجود ويحيى بن وثاب ومجاهد بن جبر وغيرهم، وأخذ القراءة عنه حمزة الزيات ومحمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى وجرير بن عبدالحميد وغيرهم.

كان – رحمه الله تعالى يجل نعمة الله عليه أن علمه القرآن فأكرمه وأعلى قدره بسببه، روي عنه أنه قال: «إن الله زين بالقرآن أقواماً، وإني ممن زينه الله بالقرآن، ولولا ذلك لكان على عنقي دَنٌّ أطوف به في سكك الكوفة»، وصدق – رحمه الله – فإن الله تعالى يرفع بهذا القرآن أقواماً اعتنوا به حفظاً وتلاوة لآياته، وفهماً وعلماً بمعانيها وأحكامها، ويضع به آخرين ممن أعرضوا عنه وحادوا عن طريقه وانحرفوا عن سبيله، ولهذا قال – عليه الصلاة والسلام: «**لا حسد** – أي لا غبطة – **إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» (رواه البخاري ومسلم)، كما جعل – عليه الصلاة والسلام – الخيرية فيمن اشتغل بالقرآن وصرف جهده ووقته له تعلماً وتعليماً، روى البخاري عن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

فهذا هو المعيار الحق والميزان العدل الذي به تعرف مقامات الناس ومنازلهم، مع ما ينضم إلى ذلك من تقوى الله عز وجل، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [(١)]، وقد جاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبزى الخزاعي مولاهم وكان ذا فقه وعلم وقراءة للقرآن، وكان مولى لنافع بن عبدالحارث أن نافعاً استنابه على مكة حين ذهب ليلتقي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في عسفان، فقال عمر لنافع: من استخلفت على أهل الوادي – يعني مكة؟ قال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: إنه عالم بالفرائض قارئ لكتاب الله، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن هذا القرآن يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين»، وكان يقول: «ابن أبزى ممن رفعه الله بالقرآن»، والحديث رواه مسلم في صحيحه.

قال الحسين بن فهم: «ما رأيت أنبل من خلف بن هشام، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن لأصحاب الحديث، وكان لا يرى استصغار حامل القرآن، بل لا بد من توقيره، فإن معه أعظم وأفضل ما يرفع به الناس».

وقد كثر ثناء الأئمة على الأعمش لعلمه بالقرآن والسنة وطول عبادته وحرصه على طاعة ربه، قال هشيم: «ما رأيت بالكوفة أحداً أقرأ لكتاب الله ولا أجود حديثاً من الأعمش»، وقال سفيان بن عيينة: «سبق الأعمش الناس .. كان أقرأهم للقرآن، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض»، وقال يحيى القطان: «هو علامة الإسلام».

وقد رُزق – رحمه الله تعالى – بطلاب كانوا في غاية الأدب معه والاحترام والإجلال له، وقد قيل: «مفتاح العلم شيئان: حسن السؤال وحسن الإصغاء»، مع ما كان يشملهم به من رعاية وعناية، وتعليم وإرشاد،

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

يقول – رحمه الله: «ما رأيت مثل طلحة – يعني ابن مصرف – إذا كنت قائماً فقعدت قطع القراءة، وإن كنت محتبياً فحللت حبوتي قطع القراءة، كراهية أن يكون قد أملني» وقال أيضاً: «كان طلحة بن مصرف يجيئني فأقريه، فلا يطلبني حتى أخرج، فإن تنحنحت أو سعلت قام»، وقال أيضاً يحكي أدب هذا الطالب المتعلم معه «كان طلحة يجيء فيجلس على الباب فتخرج الجارية وتدخل، لا يقول لها شيئاً، حتى أخرج فيجلس ويقرأ، فما ظنكم برجل لا يخطئ ولا يلحن، فإن استندت على الحائط – أي من الجهد والتعب – قال السلام عليكم ويذهب».

وكان – رحمه الله تعالى – معظماً لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله – عليه الصلاة والسلام – وممن يعتني بهما، أخبر بذلك من رآه وجالسه، فكان إذا حدث تخشع وعظم العلم، قال مرة له رجل: «هؤلاء الغلمان حولك، قال: اسكت، هؤلاء يحفظون عليك أمر دينك».

مع مواظبته على الطاعات وأداء الفرائض وعدم التهاون فيها، بل يبادر ويسابق إلى أفضلها وأدائها على الوجه الأكمل، وأهم ذلك الصلاة عمود الإسلام وركنه الأعظم بعد الشهادتين، يقول وكيع: «كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه قريباً من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة»، وكان يحي القطان إذا ذكر الأعمش قال: «كان من النساك، وكان محافظاً على الصلاة في الجماعة، وعلى الصف الأول».

وكان – رحمه الله تعالى – حريصاً على إرشاد الناس إلى السنة وبيانها للأخذ والعمل بها، والتحذير من مخالفتها، والاستشهاد بالأدلة عليها، روي عنه أنه مر بمسجد فدخل يصلي، فافتتح الإمام البقرة في الركعة الأولى، ثم قرأ في الثانية آل عمران، فلما انصرف، قال له الأعمش: «أما تتقي الله، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أم الناس فليخفف، فإن خلفه الكبير والضعيف وذا الحاجة**»، فقال الإمام: قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾، فقال الأعمش: فأنا رسول الخاشعين إليك أنك ثقيل».

حبيب بن أبي ثابت

من أئمة التابعين الموالي الذين أكرمهم الله بالقرآن فأعلى ذكرهم ورفع منزلتهم الإمام الحافظ المقرئ أبو يحيى حبيب بن أبي ثابت القرشي الأسدي مولاهم، حدث عن عدد من الصحابة منهم عبدالله بن عمر وأنس بن مالك وحكيم بن حزام وابن عباس وغيرهم – رضي الله عنهم.

أقرأ الناس القرآن وعلمهم سنة النبي ﷺ، وبذل من أجل ذلك جهده ووقته وماله، فقد جاء في ترجمته أنه أنفق على القراء مائة ألف، إكراماً لهم وعناية بهم، فأقبل عليه خلق كثير ينهلون من علمه ويتتلمذون على يديه، من أولئك عطاء بن أبي رباح وابن جريج وشعبة والثوري وحمزة الزيات، وغيرهم خلق كثير، ولعل السبب في ذلك عنايته بطلابه وإكرامه لهم وسد عوزهم وحاجتهم قدر ما يستطيع كما ذكرت آنفاً، مع لطف معشره وحسن خلقه معهم، كان يقول: «إن من السنة إذا حدث الرجل القوم أن يقبل عليهم جميعاً، ولا يخص أحداً دون أحد»، مع كونه قدوة لهم يتبع القول العمل، قال أبو بكر بن عياش: «رأيت حبيب بن أبي ثابت ساجداً، فلو رأيته قلت: ميت، يعني: من طول السجود».

وكان يقول: «من وضع جبينه لله فقد برئ من الكبر»، وقال – رحمه الله تعالى: «طلبنا هذا الأمر وما نريد به – يعني إخلاص النية في طلب العلم – ثم

رزق الله النية بعد ذلك»، وهذا مروي عن غيره من السلف أيضاً، ومرادهم: أنهم رزقوا النية الطيبة الخالصة لله عز وجل بعد أن قرؤوا من النصوص ما يدل على وجوب إخلاص النية وأحوال النبي ﷺ وصحابته الأخيار – رضي الله عنهم – في ذلك.

كرز بن وبرة

يجد أهل القرآن من لذة المناجاة ونعيم الطاعة حين يتلون كتاب ربهم ويقومون به في صلاتهم آخر الليل ما تعجز العبارة عن وصفه، ولذلك كان بعض السلف يقول: «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم»، وقال بعضهم: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب شيء في الدنيا؟ قال: التلذذ بتلاوة كتاب الله والإنس بمناجاته والتذلل والخضوع بين يديه جل وعلا».

ولذلك كانوا يحاسبون أنفسهم على فوات حزبهم من القرآن أو صلاتهم بالليل أو غير ذلك من الأعمال الصالحة، وهذا من دقيق محاسبتهم أنفسهم وحرصهم على الخير ومسارعتهم إلى ميادين الصالحات وأنواع القربات، بعكس من حاله التفريط والإهمال، وعدم التفريق بين مواسم الخير وفضيلة الزمان والمكان وما ينبغي أن يشغل العبد به وقته، فشتان بين موفق بإذن الله، تراه مسارعاً في كل بر مسابقاً إلى كل عمل صالح، نفعه خاص به أو متعد إلى غيره، وبين آخر لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، همه الدنيا وحطامها فلا يعيش إلا لها ولا يكد إلا من أجلها، قد فرط في طاعة ربه وأضاع حقوقه، وتعدى حدوده ووقع في زواجره ونواهيه.

ومن الحال الأولى ما جاء في سيرة الإمام التابعي الجليل كرز بن وبرة الحارثي، يقول أبو داود الجفري: «دخلت على كرز بن وبرة بيته فإذا هو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: إن بابي مغلق وإن ستري لمسبل، ومنعت

حزبي أن أقرأه البارحة، وما هو إلا من ذنب أحدثته»، فقد كان السلف ومن بعدهم ممن وفقهم الله لطاعته وتلاوة كتابه لهم حزب من القرآن لا يتركونه ولا يتهاونون بأدائه والقيام به.

ولا شك أن من عقوبة الذنوب والمعاصي حرمان الطاعة والتلذذ بالعبادة وأدائها على الوجه الأكمل، يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى: «ومن أعظم عقوباتها - أي المعاصي والذنوب - أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، فإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فأي فلاح وأي رجاء وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه، الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولا بُدَّله منه ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدوه فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب» (١).

وقال أيضاً: «ومن عقوباتها أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش المستأنسين، فلو فكر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية، وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له كما قيل:

---

(١) الجواب الكافي، ١٥٥.

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب ... فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكما ازداد البعد قويت الوحشة» (١).

ومما اشتهر به كرز بن وبرة الحارثي كثرة العبادة وطولها، حيث الصلاة وتلاوة القرآن، قال أبو نعيم: «له الصيت البليغ في النسك والتعبد»، ويقول ابن شبرمه مثنياً عليه وعلى آخر معه في العبادة والخوف من الله عز وجل:

لو شئت كنت ككرز في تعبده ... أو كابن طارق حول البيت في الحرم

قد حال دون لذيذ العيش خوفهما ... وسارعا في طلاب الفوز والكرم

وقال أبو بشر يصف حاله في صلاته: «كان كرز بن وبره من أعبد الناس .. وكان إذا دخل في الصلاة لا يرفع طرفه يميناً ولا شمالاً، وكان من المخبتين لله، قد وله من ذلك، فربما كلم فيجيب بعد مدة من شدة تعلق قلبه بالله واشتياقه إليه».

ويبين – رحمه الله – حقيقة القارئ للقرآن الصادق في ذلك فيقول: «لا يكون العبد قارئاً حتى يكون زاهداً في الدرهم».

وقد علق على هذا الذهبي بقوله: «هكذا كان زهاد السلف وعبادهم، أصحاب خوف وخشوع، وتعبد وقنوع، ولا يدخلون في الدنيا وشهواتها، ولا في عبارات أحدثها المتأخرون من الفناء والمحو والاصطلام والاتحاد وأشباه ذلك ، مما لا يسوغه كبار العلماء، فنسأل الله التوفيق والإخلاص ولزوم الاتباع» (٢).

---

(١) الجواب الكافي: ١٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٨٦.

لقد كان السلف – رحمهم الله تعالى – يحرصون على الجمع بين صلاح الظاهر والباطن، واستقامة الأحوال كلها، وإتباع القول العمل، فظهرت آثار تلك العبادات والطاعات عليهم، وعلى هذا كانوا يحاسبون أنفسه ويزنون أعمالهم وأقوالهم، يقول عبدالأعلى التيمي: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تبارك وتعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾»(١).

وكان يقول في دعاء سجوده: «رب زدنا خشوعاً كما زاد أعداؤك لك نفوراً، ولا تكبن وجوهنا في النار من بعد السجود لك»، ويحدث عن خوفه من الله عز وجل وإقباله عليه وإعراضه عن الدنيا فيقول: «شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا، ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل».

وصدق – رحمه الله تعالى – فإن من تذكر الموت حق التذكر هانت عليه الدنيا بما فيها، وتهاوت أمام عينيه لذاتها ونعيمها، فالموت ما ذكر في قليل إلا كثره ولا في كثير إلا قلله، وكذا تذكر الوقوف بين يدي الله عز وجل وتقريره عبده على أعماله ومحاسبته عليها: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

عمرو بن قيس الملائي

ضرب الله عز وجل الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع وتقريره عنده، ففي الأمثال من أنس النفس بها وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمرٌ لا يجحده ولا ينكره أحد، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، الموصلة إليه المقررة إياه، قال بعضهم: «يجتمع في المثل أمور أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكفاية».

وفي القرآن الكريم ثلاثة وأربعون مثلاً، ضربها سبحانه للناس ليتذكروا ويتبصروا ويعقلوا معانيها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2]، قال الإمام الماوردي: «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام»[3]. وقد عده الإمام الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال: «ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المبينة لاجتناب معصيته»[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٣) الإتقان: ٢/ ١٠٤٠.

(٤) البرهان: ٢/ ١١٧.

وقد امتن الله على عباده بهذه النعمة، وهي ضرب الأمثال، لما اشتملت عليه من فوائد وعظات وعبر، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[١]، قال الزركشي: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة، التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس؛ لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس»[٢].

وقد كانت عناية السلف بأمثال القرآن الكريم بالغة، واهتمامهم بمعرفة مدلولاتها والمراد منها شديداً وأكيداً، فكان بعضهم يبكي إذا قرأ مثلاً ولم يفهمه ويعقل معناه؛ لأن الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾»[٣].

يقول سليم بن رستم: «كنت أقرأ على عمرو بن مرة – يعني القرآن – فكنت أسمعه كثيراً ما يقول: «اللهم اجعلني ممن يعقل عنك»، وكان يقول: «أكره أن أمر بمثل في القرآن فلا أعرفه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقد اعتنى المفسرون في كتبهم ببيان هذه الأمثال وإيضاح معانيها والإفادة منها وما تشير إليه، ونقلوا تفسيرها عن أئمة الصحابة – رضي الله عنهم وعن التابعين – رحم الله الجميع – بل أفردها بعضهم بالتصنيف فجمعوها على حدة وبينوا معانيها والمراد منها، من تلك المصنفات: أمثال القرآن للجنيد بن محمد القواريري، والأمثال القرآنية للماوردي، والأمثال في

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

(٢) البرهان: ٢/ ١١٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

القرآن الكريم للإمام ابن القيم، وللمعاصرين مؤلفات في ذلك، كما أن الأمثال في القرآن الكريم حظيت بدراسة وافية فيما كتب في علوم القرآن كالبرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي وغير ذلك.

وهذه سيرة عطرة من حياة أولئك السلف الأخيار، الذين اغتبطوا بنعمة الله عليهم أن علمهم القرآن فتعلوه وعلموه غيرهم، أكثروا من تلاوته وظهرت آثار تأثرهم به واضحة، مع إخلاصهم لله عز وجل وحرصهم الشديد على إخفاء العمل.

من أولئك الإمام التابعي المقرئ عمرو بن قيس الملائي، روى عن جملة من كبار التابعين كعكرمة وعطاء وعطية العوفي وأبي إسحاق السبيعي وغيرهم، مع حسن أدبه معهم وتواضعه له، حسب ما دل عليه القرآن من آداب طالب العلم، فقد كان – رحمه الله – إذا أتى الرجل من أهل العلم جثى على ركبتيه، ثم يقول: «علمني مما علمك الله، ويتأول قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾»[(١)].

كما أنه – رحمه الله – أدى الأمانة التي تلقاها عن شيوخه فبلغها وعلمها الناس، مما وفقه الله عز وجل له من العلم بكتابه وسنة رسوله ﷺ، فروى عنه أبو خالد الأحمر وسعد بن الصلت وأسباط بن محمد وغيرهم، وأشهرهم ممن لازمه وصحبه طويلاً الإمام الجليل سفيان الثوري، وكان يثني عليه، اعترافاً بفضله – بعد فضل الله عز وجل – عليه، ورداً للمعروف إلى أهله، وهذا من الوفاء وحسن العهد الواجب على الطالب تجاه شيخه ومعلمه.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

كما أنه نقل إلينا حال شيخه ووقته واستغلاله كله فيما يقرب إلى الله عز وجل ونيل رضاه، يقول الإمام الثوري: «عمرو بن قيس هو الذي أدبني وعلمني قراءة القرآن، وعلمني الفرائض، فكنت أطلبه في سوقه، فإن لم أجده في سوقه وجدته في بيته، إما يصلي وإما يقرأ في المصحف، كأنه يبادر أموراً تفوته، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة، في زاوية من زوايا المسجد، قاعداً يبكي، فإن لم أجده وجدته في المقبرة قاعداً ينوح على نفسه». ولذلك كان سفيان يقول: «خمسة يزدادون في كل يوم خيراً، فذكر ابن أبجر، وأبا حيان التيمي، وعمرو بن قيس وابن سوقة وأبا سنان ضرار بن مرة».

فالمؤمن الصادق لا يزيده طول عمره إلا خيراً، يومه خير من أمسه وغده خيرٌ من يومه، هكذا يتقدم ويتحسن حاله ويحاسب نفسه على ذلك، أما أن يكون العبد على حاله مصراً على معاصيه متكاسلاً في طاعة ربه، لا يزداد خيراً ولا يُصلحُ أحواله فهذا ولا شك علامة خطر كبير وتساهل عريض، فكل يومٍ من عمره إنما يقربه من الموت والدار الآخرة ويبعده من الدنيا، ولذلك كان أبو الدرداء – رضي الله عنه – يقول: «يا ابن آدم إنما أنت أيام، إذا ذهب يومك ذهب بعضك».

وقال بعضهم يحكي حال السلف: «**كانوا يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس**» وقد روى الترمذي عنه ﷺ أنه سئل، أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله، قيل: فأي الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله**»، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه ﷺ قال: «**وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**».

وكانت أعمالهم وأقوالهم محفوفةً بالإخلاص قائمة عليه، فقد كان عمرو بن قيس إذا بكى حول وجهه إلى الحائط، ويقول لأصحابه إن هذا لزكام، وهذا مروي عن غيره أيضاً رحمهم الله رحمة واسعة وجمعنا بهم في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

محكول الشامي

كانت عناية السلف الصالح - رحمهم الله - بإخلاص العمل لله عز وجل عظيمة، مع إزرائهم على أنفسهم وبعدهم عن تطلب المدح والثناء من الناس، بل يرفضون ذلك ويمنعون قائله، مع استحقاقهم ذلك المدح والثناء، قال ذو النون: «ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة».

ومن أمثلة ذلك في سير السلف ما رواه جبير بن نفير أن نفراً قالوا لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه: «والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط ولا أقول بالحق ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين، فأنت خيرُ الناس بعد رسول الله ﷺ، فقال عوف بن مالك: كذبتم، والله لقد رأينا خيراً منه بعد رسول الله ﷺ، فقال: من هو يا عوف؟ فقال: أبو بكر، فقال عمر: صدق عوفٌ وكذبتم، والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا أضل من بعير أهلي»، كل هذا تواضعاً منه وإزراء بنفسه - رضي الله عنه - وإلا فهو أفضل هذه الأمة بعد النبي ﷺ ثم أبو بكر الصديق - رضي الله عن الصحابة أجمعين - فهو الذي أعز الله به الدين، فاروق هذه الأمة فرق الله به بين الحق فأعلا قدره وأظهر عزه، وبين الباطل الذي أزهقه وكسر شوكته، كان الشيطان يفرق ويخاف منه، ما سلك طريقاً إلا سلك الشيطان طريقاً آخر، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وبهذا الإخلاص والإزراء بالنفس وعدم الإعجاب بالعمل الصالح مع

لزوم الطاعة والتمسك بالكتاب والسنة كان السلف - رحمهم الله تعالى - يحاسبون أنفسهم ويزنون أعمالهم، من ذلك ما جاء في سيرة إمام أهل الشام أبي عبدالله مكحولٍ الشامي، عداده في أوساط التابعين، قال - رحمه الله تعالى: «من لم ينفعه علمه ضره جهله، اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرؤه».

كان - رحمه الله تعالى - حريصاً مجتهداً في طلب علمي القرآن والسنة ومعرفة أحكامهما وما دلا عليه من الشرائع والفرائض والآداب، فرحل في طلب العلم مع قلة ذات اليد؛ لأن المعيار الصحيح الذي عنده وعند أهل زمانه أنه لا يشهد لعالم بعلمه حتى يُعلم أنه رحل وتنقل في طلب العلم وثنى ركبتيه في مجالس أهل العلم، يقول - رحمه الله: «لا يؤخذ العلم إلا عمن شهد له بالطلب».

ومما جاء في سيرته من حرصه على الرحلة في طلب العلم والسنة من أجل حديثٍ واحد، ما رواه يحيى بن حمزة القاضي عن أبي وهب الكلاعي عن مكحول قال: «عُتقت بمصر، فلم أدع بها علماً إلا احتويت عليه فيما أرى، ثم أتيت العراق، فلم أدع بها علماً إلا احتويت عليه فيما أرى، ثم أتيت المدينة فلم أدع بها علماً إلا احتويت عليه، ثم أتيت الشام فغربلتها، كل ذلك أسأل عن النفل، فلم أجد أحداً يخبرني عنه، حتى مررت بشيخ من بني تميم يقال له: زيد بن جارية جالساً على كرسي فسألته فقال: حدثني حبيب بن مسلمة قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ نفل في البداءة الربع، وفي الرجعة الثلث» (رواه أبو داود بسند صحيح).

وقد كثر ثناء الأئمة على مكحول لعلمه بكتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ يقول الإمام الزهري: «العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن بن أبي الحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام».

وقد أوتي – رحمه الله تعالى – دقة الاستنباط من القرآن وحجةً قوية في الرد على من خالفه، ومن أمثلة ذلك قوله: «اجتمعت أنا والزهري فتذاكرنا التيمم، فقال الزهري: المسح إلى الآباط، فقلت: عمن أخذت هذا؟ قال: عن كتاب الله، إن الله تعالى يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾[(١)]، فهي يدٌ كلها، قلت: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[(٢)]، فمن أين تقطع اليد؟ قال: فخصمته».

وقال – رحمه الله تعالى: «أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فأما الأربع اللاتي له، فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[(٣)]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(٤)]. وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[(٥)].

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

وأما الثلاث اللاتي عليه، فالمكر والبغي والنكث، قال الله تعالى: ﴿ **فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ** ﴾[١]، وقال: ﴿ **وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ** ﴾[٢]. وقال: ﴿ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم** ﴾»[٣].

ومن دقيق محاسبته نفسه وأطرها على عدم العجب بالأعمال، قوله: «رأيت رجلاً يصلي، وكلما ركع وسجد بكى، فاتهمته أنه يرائي ببكائه، فحرُمت البكاء سنة»، فمما يقع فيه بعض الصالحين إساءة الظن بإخوانهم الآخرين وتصنيف أعمالهم والذهاب بها مذاهب شتى من الرياء وعدم الإخلاص ونحو ذلك وكأنما شقوا عن قلوبهم فاطلعوا على نياتهم، بل إن بعضهم قد يتجاوز به الحد فيحكم بعدم قبول عمل فلان أو أن الله غير راض عنه، وهو والحالة هذه يزكي نفسه ويرفع قدرها ويحكم بالقبول لها.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جندب بن عبدالله – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان، إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»، وفي حديث أبي هريرة: «أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته».

وقد روي عن مكحول أقوال ومواعظ تدل على عظيم علمه بالكتاب والسنة وفقه لهما، قال – رحمه الله تعالى: «أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً»،

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٣.

وقال أيضاً: «إن كان الفضل في الجماعة فإن السلامة في العزلة»، وقال أيضاً: «أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ – يعني الصيام – والجائع الظمآن أفهم للموعظة، وقلبه على الرقة أسرع، وكان يقال: كثرة الطعام تدفع كثيراً من الخير»، وقال أيضاً: «عينان لا تمسهما العذاب، عين بكت من خشية الله، وعين باتت من وراء المسلمين»، أي تحرسهم وتحميهم، وبهذا المعنى حديث رواه ابن عباس – رضي الله عنهما – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»** (رواه الترمذي وقال حديث حسن) .

عاصم بن أبي النجود

كان لي حديث فيما مضى عن عناية السلف - رحمهم الله تعالى - بتعلم القرآن الكريم وتعليمه اغتناماً للخيرية وإحرازاً للفضيلة التي ذكرها النبي ﷺ بقول: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، وكيف أن السلف بذلوا جهوداً مشكورة وعنايةً بالغة في تعلم القرآن الكريم وتعليمه، حيث التبكير إلى حلقات القرآن الكريم والصبر على ذلك مع المشقة التي تنالهم فيه، وحرصهم الشديد على حفظ القرآن وإتقان تلاوته بأخذها مشافهة عن الشيوخ الأئمة القراء.

ومن هؤلاء الأئمة القراء أبو بكر عاصم بن بهدلة بن أبي النجود الأسدي مولاهم الكوفي، شيخ الإقراء بالكوفة وأحد القراء السبعة، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبدالرحمن السلمي، جمع - رحمه الله تعالى - بين الإتقان والتجويد والتحرير والفصاحة.

وقد آتاه الله تعالى حسن الصوت حين يتلو القرآن مع الثناء عليه، قال أبو إسحاق السبيعي: «ما رأيت أحداً أقرأ للقرآن من عاصم بن أبي النجود»، وقال مسلمة بن عاصم: «كان عاصم ذا أدب ونسك وفصاحة وصوت حسن»، وقال عبدالله بن الإمام أحمد: «سألت أبي عن عاصم بن بهدله؟ فقال: رجل صالح خير ثقة، قلت: أي القراءات أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة: فإن لم يكن فقراءة عاصم».

وكان - رحمه الله تعالى - قد اعتنى بتعلم القرآن الكريم فأخذه عن طائفة من كبار التابعين وأئمتهم، فقرأ على أبي عبدالرحمن السلمي وزر بن حبيش الأسدي وأبي عمرو الشيباني، ثم تصدر للإقراء بالكوفة واشتغل بتعليم الناس كتاب الله عز وجل، فانتفع به خلق كثير، فممن أخذ عنه القراءة حفص بن سليمان وأبو بكر شعبة بن عياش وأبان بن تغلب وأبان بن يزيد العطار وسليمان بن مهران الأعمش والحسن بن صالح وغيرهم.

وكان يميز في تعليمه طلابه وينبههم عمن أخذ هذه القراءة، أمانةً في أداء هذه القراءة ودقةً في نقلها وإقرائها لهم، يقول حفص بن سليمان: «قال لي عاصم: ما كان من القراءة التي أقرأتك بها فهي القراءة التي قرأت بها على أبي عبدالرحمن السلمي عن علي - رضي الله عنه - وما كان من القراءة التي أقرأتها أبا بكر بن عياش فهي القراءة التي كنت أعرضها على زر بن حبيش عن ابن مسعود - رضي الله عنه»، وفي هذا رد على الطاعنين في القراءات ونقلتها وزعمهم أنها لم تكن في درجة تامة من الضبط والإتقان حال الأداء والإقراء، يقول أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: «وهذه قراءة متواترة لا يمكن الطعن فيها، ويقرب إنكارها من الردة والعياذ بالله» (١)، وقال أيضاً في الرد على من لحن إحدى القراءات وخطأ قارئها: «وهذا قول خطأ؛ لأن هذه القراءة في السبعة، فهي قراءة متواترة، ثم هي بعد قراءة ابن عامر، وهو رجل عربي لم يكن ليلحن، وقراءة الكسائي في بعض المواضع، وهو إمام الكوفيين في علم العربية، فالقول بأنها لحن من أقبح الخطأ المؤثم الذي يجر قائله إلى

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٧/ ٣٧.

الكفر، إذ هو طعن على ما علم نقله بالتواتر من كتاب الله تعالى»[(١)].

وقال أيضاً في معرض رده على من رد قراءة حمزة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[(٢)]. «وأما قول ابن عطية: ويرد عندي من المعنى وجهان، فجسارة قبيحة منه لا تليق بحاله ولا بطهارة لسانه، إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ، قرأ بها سلف الأمة، واتصلت بأكابر قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن من في رسول الله ﷺ بغير واسطة، عثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وأقرأ الصحابة أبي بن كعب، عمد إلى ردها بشيء خطر له في ذهنه، وجسارته هذه لا تليق إلا بالمعتزلة كالزمخشري، فإنه كثيراً ما يطعن في نقل القراء وقراءتهم»[(٣)].

وقد كان من حرص عاصم بن أبي النجود على تعليم القرآن أنه لا يخص به أحداً دون أحد، بل يشمل من رغب تعلمه ويراعي حاله ويعينه على نفسه، ومن دقيق حرصه على ذلك ما ذكره ابن الجزري عنه وعن شيخه أبي عبدالرحمن السلمي أنهما كانا يبدآن في تعليم القرآن بأهل السوق أي الباعة ومن يساعدهم لئلا يحتبسوا عن معايشهم، ثم قال: «قلت: الظاهر أنهم كانوا يجتمعون للصلاة في المسجد – ولعل ذلك في صلاة الفجر – ثم يجلسون بعد أجمعون جملة لا يسبق أحدٌ أحداً»[(٤)].

وكان – رحمه الله – قد جمع إلى عنايته بالقرآن الكريم وتعليمه كثرة

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/ ٣٦٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٣/ ١٥٩.

(٤) منجد المقرئين ٦٣.

الطاعة والإقبال على العبادة بمحبة وشوق إليها، يجد أنسه وراحته في مناجاة ربه وتذلله بين يديه والمكث طويلاً في بيوته المساجد التي هي أحب البقاع إليه جل وعلا، ضارباً بذلك القدوة الحسنة لطلابه وتلاميذه حيث يقرن أمامهم بين القول والعمل، وفي ذلك التربية الصادقة والتوجيه الحسن لهم، يقول أبو بكر شعبة بن عياش – أحد تلاميذه – «كان عاصم إذا صلى ينتصب كأنه عود، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر، وكان عابداً خيراً يصلي أبداً، ربما أتى حاجة، فإذا رأى مسجداً قال: مِلْ بنا فإن حاجتنا لا تفوت، ثم يدخل فيصلي».

وقال أيضاً: «كان عاصم نحوياً فصيحاً إذا تكلم، مشهور الكلام، وكان هو والأعمش وأبو حصين الأسدي لا يُبصرون، جاء رجل يوماً يقود عاصماً فوقع وقعة شديدة فما نهره ولا قال له شيئاً»، وهذا من حلمه وصبره مما يدل على حسن خلقه وكريم شمائله، وهو المأمول من أهل القرآن وحملته.

وقد اختلف أئمة الحديث في قوة حفظ عاصم للسنة فالأئمة على أنه حافظ متقن أخرج له البخاري والأربعة وروى له مسلم مقروناً بغيره، وقال النسائي: «عاصم ليس بحافظ»، وقال الدارقطني: «في حفظه شيء»، وقد سلك الإمام الذهبي مسلكاً وسطاً فبين أن الإمام قد يكون مبرزاً في فن دون فن، وهذا لا يحط من قدره ولا ينزل من شأنه، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، قال – رحمه الله تعالى: «قلت: كان عاصم ثبتاً في القراءة، صدوقاً في الحديث، وقد وثقه أبو زرعة وجماعة، وقال أبو حاتم: محله الصدق، وقال الدار قطني: في حفظه شيء، يعني للحديث لا للحروف، وما زال في كل وقت يكون العالم

إماماً في فن مقصراً في فنون، وكذلك كان صاحبه حفص بن سليمان ثبتاً في القراءة واهياً في الحديث، وكان الأعمش بخلافه، كان ثبتاً في الحديث ليناً في الحروف – أي: في القراءة».

عبدالله بن عامر

لا يزال الحديث موصولاً في عرض نماذج من سير السلف الصالح في عنايتهم بالقرآن الكريم تعلماً وتعليماً، إقراء ورواية، مع اجتهادهم وحرصهم الشديد في ذلك، نرى ذلك واضحاً في تراجم الأئمة القراء وبخاصة القراء السبعة، ومنهم: أبو عمران عبدالله بن عامر بن يزيد اليحصبي الشامي، إمام أهل الشام في القراءة، والذي انتهت إليه مشيخة الإقراء بها.

يقول أبو علي الأهوازي في الثناء عليه: «كان عبدالله بن عامر إماماً عالماً، ثقةً فيما أتاه، حافظاً لما رواه، متقناً لما وعاه، عارفاً فهماً، قيماً فيما جاء به، صادقاً فيما نقله، من أفاضل المسلمين وخيار التابعين، وأجلة الراوين لا يُتهم في دينه ولا يشك في يقينه، ولا يرتاب في أمانته، ولا يطعن عليه في روايته، صحيح نقله، فصيح قوله، عالياً في قدره مصيباً في أمره، مشهوراً في علمه، مرجوعاً إلى فهمه، لم يتعد فيما ذهب إليه الأثر، ولم يقل قولاً يخالف فيه الخبر».

وما كان هذا الثناء العطر عليه والوصف الجميل له إلا لعنايته بتعلم القرآن الكريم وتعليمه وتخلقه به وسيره على نهجه وحكمه، فقد أخذ القراءة عن بعض الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – حيث قرأ على أبي الدرداء عويمر بن مالك وفضالة بن عبيد وواثلة بن الأسقع، وقيل إنه قرأ على عثمان بن عفان، وقيل إنه سمع قراءته في الصلاة ولم يقرأ عليه، والمشهور أن قرأ على المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان – رضي الله عنه.

وقد انتهت إليه مشيخة الإقراء بالشام، فكان رئيس مسجد دمشق، فأكب عليه الطلاب يقرؤون عليه ويتعلمون منه ويتتلمذون على يديه، أشهرهم يحيى بن الحارث الذماري، وهو الذي خلفه في القيام بها، وقرأ عليه أيضاً أخوه عبدالرحمن بن عامر وربيعة بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر وغيرهم، توفي - رحمه الله - يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة ومائة.

وقد أشرت فيما سبق إلى أنه لا يجوز الطعن في الأئمة السبعة القراء ولا في قراءتهم؛ لأنها منقولة إلينا بالتواتر عن رسول الله ﷺ فلا يحكم عليها بخطأ أو لحن ونحو ذلك؛ لأن هذا جرأة على كلام الله عز وجل - نعوذ بالله من الخذلان - وفي معرض حديثي عن الإمام المقرئ عبدالله بن عامر الشامي أذكر في هذا المقام ما فعله بعض النحويين والمفسرين من رد قراءته المتواترة الصحيحة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[1]، وقرأ هو بنصب «أولادهم»، وجر «شركائهم»، وقد انبرى في الدفاع عنه والرد الشديد على من رد قراءته أو طعن فيها الإمام المفسر العلامة أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي صاحب البحر المحيط، وقد أطال - رحمه الله تعالى - في ذلك، ومما قاله: «وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح، لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح المحض ابن عامر، الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب»، إلى أن قال: «وأعجب لعجمي ضعيف في

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.

النحو – يعني الزمخشري في تفسيره الكشاف – يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة، موجودٌ نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم»[(١)] .

(١) تفسير البحر المحيط: ٤/ ٢٢٩-٢٣٠.

عبدالله بن كثير

من الأئمة القراء مقرئ مكة في زمنه أبو معبد عبدالله بن كثير بن عمرو الداري المكي مولى عمرو بن علقمة الكناني، كان دارياً وهو العطار، ووهم من نسبه إلى بني عبدالدار؛ لأنه فارسي الأصل، لكن الله أعلى قدره ورفع منزلته بالقرآن الكريم حين اعتنى به فأخذه عن شيوخ زمانه واجتهد في ذلك، فقرأ على عبدالله بن السائب المخزومي ومجاهد ودرباس مولى ابن عباس.

ثم جلس للإقراء والتعليم وإفادة الناس، فأقبل عليه خلق يتعلمون منه القرآن ويتقنون ذلك على يديه، فممن قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء ومعروف بن مشكان وإسماعيل بن قسطنطين وإسماعيل بن مسلم وجرير بن حازم وغيرهم.

كان – رحمه الله تعالى – ملتزماً هدي السلف الصالح من حيث التمسك بالسنة والتحلي بالسكينة والوقار، هيبة للقرآن وإجلالاً لكلام الله عز وجل، وهكذا ينبغي أن يكون حملة القرآن وأهله؛ لأنهم أهل الله عز وجل وخاصته، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله من الناس أهلون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»(١).

يقول عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن

(١) رواه أحمد وابن ماجه والنسائي في فضائل القرآن والحاكم، قال البوصري: هذا إسناد صحيح ورجاله موثقون.

يعرف بليله – أي بقيام الليل – إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون»، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام الله»، وقال الفضيل بن عياض: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن».

وقد عرف تلاميذ الإمام المقرئ عبدالله بن كثير له قدره فأثنوا عليه بذلك، يقول الأصمعي: «قلت لأبي عمرو: قرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعد ما ختمت على مجاهد، وكان ابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد»، أي من مجاهد بن جبر، وقال أبو بكر ابن مجاهد: «ولم يزل عبدالله هو الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى مات سنة عشرين ومائه»، وقال سفيان بن عيينه: «حضرت جنازة ابن كثير الداري سنة عشرين ومائة».

وقد ضم الإمام ابن كثير إلى جانب تعليمه القرآن وإقرائه طلابه الوعظ والنصح والإرشاد، حتى عرف بذلك مع حفظه سنة النبي ﷺ، فقد كان فصيحاً مفوهاً واعظاً كبير الشأن، مهيباً، وثقه علي بن المديني وغيره، وقال ابن سعد: «كان ابن كثير المقرئ ثقة، له أحاديث صالحة»، وهو قليل الحديث، فقد حدث عن أبي الزبير وأبي المنهال وعكرمة ومجاهد وغيرهم، وروى عنه أيوب السختياني وعبدالملك بن جريج وإسماعيل بن أمية وحماد بن سلمة وليث بن أبي سليم وغيرهم.

نافع المدني

إن أكثر البلاد عناية بكتاب الله عز وجل تلاوة وحفظاً، تعلماً وتعليماً مدينة رسول الله ﷺ ومهاجره، طابة الطيبة، دار المهاجرين والأنصار، حيث تخرج من مسجده النبوي الشريف الأئمة القراء والعلماء الفضلاء، ولا يزال هذا الخير يتدفق من مسجده المبارك، وحتى وقتنا الحاضر وإلى أن يشاء الله عز وجل، حيث تنتشر في جنبات المسجد النبوي وفي أروقته حلقات تحفيظ القرآن الكريم، يجلس بها شيوخ أجلاء لإقراء الناس وإجازتهم بالقراءة بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ.

وإذا ذكر القراء الأئمة في مدينة رسول الله ﷺ فإن أول ما يتبادر إلى الذهن بعد رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار – رضي الله تعالى عنهم أجمعين – الإمام المقرئ أبو رويم نافع بن أبي نعيم مولاهم الليثي، أصله من أصبهان، أحد القراءة السبعة.

جد واجتهد في تعلم قراءة القرآن وإتقان تلاوته، فقرأ على عدد من التابعين، قال – رحمه الله: «قرأت على سبعين من التابعين»، وقد اشتهرت تلاوته على خمسة من التابعين، عبدالرحمن بن هرمز الأعرج صاحب أبي هريرة، وأبي جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة، وشيبة بن نصاح، ومسلم بن جندب الهذلي، ويزيد بن رومان، وهؤلاء قرؤوا على أصحاب أُبي بن كعب وزيد بن ثابت – رضي الله تعالى عنهما.

وقد أبان – رحمه الله تعالى – منهجه في تلقي القراءات واختيار القراءة

المتفق عليها بقوله: «أدركت عدة من التابعين، فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته، وما شذ فيه واحد تركته، حتى ألفت هذه القراءة»، أي اجتمعت له هذه القراءة التي يقرأ بها - وكان يعتني بالشيوخ ويسأل عن رجال الإسناد فعن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: «كنا نقرأ على أبي جعفر القارئ، وكان نافع يأتيه فيقول: يا أبا جعفر ممن أخذت حرف كذا وكذا، فيقول من رجل قارئ عن مروان بن الحكم، ثم يقول له: ممن أخذت حرف كذا وكذا، فيقول: من رجل قارئ، من الحجاج بن يوسف، فلما رأى ذلك نافع، تتبع القراءة يطلبها».

كان للإمام نافع بعد توفيق الله عز وجل ومنته عليه أولاً ثم بهذا الجهد والتحصيل الصيت الواسع والرياسة في مدينة رسول الله ﷺ، وكثر ثناء الأئمة في زمانه ومن بعده على قراءته وإتقانه، يقول أبو عبيد: «وإلى نافع صارت قراءة أهل المدينة وبها تمسكوا إلى اليوم»، وقال ابن مجاهد: «وكان الإمام الذي قام بالقراءة بعد التابعين بمدينة رسول الله ﷺ نافع، وكان عالماً بوجوه القراءات متبعاً لآثار الأئمة الماضين ببلده»، وقال سعيد بن منصور: «سمعت مالك بن أنس يقول: قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم»، وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل: «سألت أبي أي القراءة أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، قلت: فإن لم يكن؟ قال: قراءة عاصم»، ولما سئل الإمام مالك عن البسملة قال: «سلوا عن كل علم أهله، ونافع إمام الناس في القراءة».

وبعد أن بلغ الإمام نافع المدني هذه المنزلة الرفيعة في القراءة جلس

لإقراء الناس كتاب الله عز وجل وتعليمهم، مغتنماً الخيرية التي أخبر عنها الرسول – عليه الصلاة والسلام – بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، فأقرأ الناس دهراً طويلاً نيفاً من سبعين سنة؛ لأنه ممن طال عمره.

ومن أشهر من قرأ عليه إسماعيل بن جعفر، وإسحاق بن محمد المسيبي وعثمان بن سعيد المعروف بورش وعيسى بن مينا المعروف بقالون ومالك بن أنس إمام دار الهجرة وغيرهم.

وكان – رحمه الله تعالى – صاحب سنة متحلياً بأخلاق القرآن متسماً بسيما أهله وحملته، فقد كان صبيح الوجه حسن الخلق فيه دعابة، قال قالون: «كان نافع من أطهر الناس خلقاً، ومن أحسن الناس قراءة، وكان زاهداً جواداً، صلى في مسجد النبي ﷺ ستين سنة»، وهذا مما جعل الناس يألفونه ويحبونه، ويقبلون على قراءة القرآن عليه، قال الأعشى: «كان نافع يسهل القرآن لمن قرأ عليه».

ولم تكن عنايته – رحمه الله تعالى – مقتصرة على القرآن الكريم فقط بل كانت له رواية وحفظ لسنة رسول الله ﷺ، فقد روى عن نافع مولى ابن عمر والأعرج وعامر بن عبدالله بن الزبير وأبي الزناد وغيرهم، وروى عنه القعنبي وسعيد بن أبي مريم وخالد بن مخلد وإسماعيل بن أبي أويس وغيرهم.

واختلفت أقوال أئمة الحديث فيه، فقد وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم صدوق، وقال النسائي ليس به بأس، ولينه أحمد في الحديث، وليس له حديث منكر، وأحاديثه حسنة قليلة لأنه تصدى للإقراء واشتغل به.

توفي – رحمه الله تعالى – سنة تسع وتسعين ومائة، وكانت وصيته لأهله لما طلبوا منه الوصية قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

أبو عمرو بن العلاء

من الأئمة القراء السبعة أبو عمرو زبان بن العلاء بن عمار التميمي المازني البصري، اختلف في اسمه على أكثر من عشرين قولاً، ولا ريب أن بعضها تصحيف، وأكثر الحفاظ وأهل العلم على أن أرجح هذه الأسماء زبان.

اعتنى – رحمه الله تعالى – بتلقي القرآن وتعلمه على شيوخ زمانه وأئمة عصره، فقرأ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة، فليس في القراء السبعة أكثر شيوخاً منه، وممن قرأ عليه الحسن البصري وسعيد بن جبير وعاصم بن أبي النجود وعبدالله بن كثير المكي وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم.

ثم تصدر بعد ذلك للإقراء وتعليم الناس كتاب الله عز وجل، حتى كانت له حلقة مشهورة يؤمها من يريد تعلم تلاوة كتاب الله عز وجل وتلقي قراءته، قال الأخفش: «مر الحسن بأبي عمرو وحلقته متوافرة، والناس عكوف، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو عمرو، فقال: لا إله إلا الله، كادت العلماء أن تكون أرباباً، كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول»، وقال وكيع: «قدم أبو عمرو بن العلاء الكوفة فاجتمعوا إليه كما اجتمعوا على هشام بن عروة» أحد حفاظ الحديث.

ومن أشهر من أخذ عنه القراءة أحمد بن محمد الليثي وأحمد بن موسى اللؤلؤي وأبو زيد سعيد بن أوس والأصمعي ويونس بن حبيب وسهل بن يوسف وسلام بن سليمان الطويل وغيرهم.

وقد اشتهر – رحمه الله تعالى – بسعة العلم، فكان مبرزاً في القراءة واللغة والنحو مع الفصاحة والبلاغة، يقول أبو عبيدة: «كان أعلم الناس بالقراءات والعربية والشعر وأيام العرب».

وكثر ثناء الأئمة في زمانه ومن بعده على قراءته القرآن وإقرائه وسعة علمه، يقول وهب بن جرير «قال لي شعبة: تمسك بقراءة أبي عمرو فإنها ستصير للناس إسناداً»، وقال نصر بن علي: «قال لي أبي قال: شعبة: انظر ما يقرأ أبو عمرو مما يختار لنفسه فإنه سيصير للناس إسناداً، قال نصر: قلت لأبي كيف تقرأ؟ قال: على قراءة أبي عمرو، وقلت للأصمعي: كيف تقرأ؟ قال: على قراءة أبي عمرو».

قال ابن الجزري: «قلت: وقد صح ما قاله شعبة – رحمه الله – فالقراءة التي عليها الناس اليوم بالشام والحجاز واليمن ومصر هي قراءة أبي عمرو، فلا تكاد تجد أحداً يلقن القرآن إلا على حرفه، ولقد كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر إلى حدود الخمسمائة فتركوا ذلك؛ لأن شخصاً قدم من أهل العراق، وكان يلقن الناس بالجامع الأموي على قراءة أبي عمرو، فاجتمع عليه خلق، واشتهرت هذه القراءة عنه، وأقام سنين كذا بلغني» (١).

وقال اليزيدي: «كان أبو عمرو قد عرف القراءات، فقرأ من كل قراءة بأحسنها، وبما يختار العرب، ومما بلغه من لغة النبي ﷺ، وجاء تصديقه في كتاب الله عز وجل».

كان أبو عمرو بن العلاء من أئمة السنة ورواة الحديث، وإن كان

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٢٩٢.

مشهوراً بالقراءة لاشتغاله بإقراء الناس وتعليمهم كتاب الله عز وجل، فقد روى يسيراً عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ويحيى بن يعمر ومجاهد وأبي صالح السمان وعطاء بن أبي رباح وابن شهاب وغيرهم، وحدث عنه شعبة وحماد بن زيد وشبابة بن سوار ويعلى بن عبيد وغيرهم، قال ابن معين: أبو عمرو ثقة، وقال أبو حاتم: لا بأس به، وليس له رواية في الكتب الستة.

إن المؤمن الصادق حريص على استغلال مواسم الطاعات بما هي جديرة به من العبادات والقربات، وألا تكون عنده كسائر الأوقات والأزمان الأخرى، فقد جاء في ترجمة أبي عمرو بن العلاء أنه كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام ويحاسب نفسه على ذلك، فمن لم يكن له حزب يومي يقرؤه من القرآن لم يختمه، بل يكون مضيعاً لأوقاته مفرطاً في ساعات عمره، ثم يندم ولات حين ينفع الندم.

فكان - رحمه الله تعالى - إذا دخل شهر رمضان شهر القرآن لم يشتغل فيه بغيره من الغريب والشعر وأيام العرب وغير ذلك من العلوم الأخرى، ولم يزل كذلك حتى توفي سنة أربع وخمسين ومائة وقيل غير ذلك، يقول أبو عمرو الأسدي: «لما أتى نعي أبي عمرو أتيت أولاده فعزيتهم عنه [1]، فإني لعندهم إذ أقبل يونس بن حبيب فقال: نعزيكم وأنفسنا بمن لا نرى شبهاً له .. والله لو قسم علم أبي عمرو وزهده على مائة إنسان لكانوا كلهم علماء زهاداً».

---

(١) هكذا في غاية النهاية: ١/ ٢٩٢، ولعل الصواب: فيه.

حمزة الزيات

من أئمة القراءة المعتنين بكتاب الله عز وجل تعلماً وتعليماً أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات مولاهم الكوفي أحد القراء السبعة، أكرمه الله عز وجل وأعلى قدره وشأنه بالقرآن الكريم، ولقد قال المصطفى – عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**» (رواه مسلم) . فقد أخذ حمزة القراءة عن حمران بن أعين والأعمش وابن أبي ليلى وأبي إسحاق السبيعي وطلحة بن مصرف وغيرهم.

ثم جلس للإقراء وإفادة الطلاب فقرأ عليه خلق كثير وانتفعوا بما وفقه الله عز وجل وأنعم عليه من تلاوة كتابه ومعرفة قراءته، منهم الكسائي أحد القراء السبعة وسليم بن عيسى وعابد بن أبي عابد، والحسن بن عطية وعبدالله بن صالح العجلي وغيرهم.

كثر ثناء الأئمة عليه في ديانته وعبادته وقراءته، قال سفيان الثوري: «ما قرأ حمزة حرفاً إلا بأثر»، وقال أيضاً: «غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض»، وقال أبو حنيفة لحمزة: «شيئان غلبتنا عليهما، لسنا نناز عك فيهما، القرآن والفرائض»، ويقول الإمام ابن الجزري: «وإليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش، وكان إماماً حجة ثقة ثبتاً رضىً قيماً بكتاب الله، بصيراً بالفرائض، عارفاً بالعربية، حافظاً للحديث، عابداً خاشعاً زاهداً، ورعاً قانتاً لله» (١).

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٢٦٣.

وهكذا ينبغي أن يكون أهل القرآن وحملته، تظهر عليهم آثار عنايتهم بالقرآن، تمسكاً به والتزاماً بسنة رسول الله ﷺ وخشوعاً وخضوعاً لله عز وجل، وتعلقاً بالدار الآخرة وزهداً في الدنيا، مع العناية بعلوم الشريعة الأخرى وآلاتها المعينة على فهمها ومعرفة أحكامها وحكمها ومدلولاتها.

ولم يكن ثناء الأئمة على الإمام حمزة مقصوراً على قراءته فقط بل كان عاماً لها وللأمور الأخرى المرتبطة بها وأثارها عليه، وكان محل تقدير واحترام عند شيوخه ومعلميه وهم أعلم الناس بعلمه وأعرفهم بحاله، كان شيخه الأعمش إذا رآه قد أقبل يقول: «هذا حبر القرآن»، وكان إذا رآه مقبلاً يقرأ «وبشر المخبتين»، وقد ذكر الله عز وجل وصفهم فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

كما أثنى عليه تلاميذه وملازموه بذلك، قال أسود بن سالم: «سألت الكسائي عن الهمز والإدغام، ألكم فيه إمام؟ قال: نعم، حمزة كان يهمز ويكسر، وهو إمام، لو رأيته لقرت عينك من نُسُكه».

وكان له – رحمه الله تعالى – عناية برواية سنة النبي ﷺ فحدث عن عدي بن ثابت وعمرو بن مرة وحبيب بن أبي ثابت وطلحة بن مصرف وغيرهم، وحدث عنه الثوري وشريك ويحيى بن آدم وبكر بن بكار وحسين الجعفي وغيرهم، قال يحيى بن معين: حمزة ثقة، وقال النسائي وغيره: ليس به بأس، فحديثه لا ينحط عن رتبة الحسن، وقد أخرج حديثه مسلم وأصحاب السنن الأربعة.

وقد روي عن الإمام أحمد وغيره أنه كره قراءة حمزة، لما فيها من الكسر

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

والإدغام والتكلف وزيادة المد، قال ابن قدامة المقدسي: «ولم يكره الإمام أحمد قراءة أحدٍ من العشرة إلا قراءة حمزة والكسائي لما فيها من الكسر والإدغام والتكلف وزيادة المد، وقال الأثرم: قلت لأبي عبدالله: إمام كان يصلي بقراءة حمزة أصلي خلفه؟ قال: لا يبلغ به هذا كله، ولكنها لا تعجبني قراءة حمزة»[(١)].

لكن الصحيح أن هذا التكلف الذي ذكره الإمام أحمد في الهمز والمد ونحوهما إنما جاء من رواته وتلاميذهم وإلا فقد كان حمزة يكره هذا التكلف وينهى عنه، وقد استقر الإتفاق على قبول قراءته، وجعلها إحدى القراءات السبع، قيل لحمزة: «يا أبا عمارة رأيت رجلاً من أصحابك همز حتى انقطع زره – من التكلف – فقال: لم آمرهم بهذا كله»، وقال أيضاً: «إن لهذا التحقيق حداً ينتهي إليه ثم يكون قبيحاً»، وكان يقول: لمن يزيد في المد والهمز: «لا تفعل، أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق الجعودة فهو قطط، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة».

قال الإمام ابن الجزري: «وأما ما ذكر عن عبدالله بن إدريس وأحمد بن حنبل من كراهة قراءة حمزة فإن ذلك محمول على قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة، وما آفة الأخبار إلا رواتها، قال ابن مجاهد: قال محمد بن الهيثم: والسبب في ذلك أن رجلاً ممن قرأ على سليم حضر مجلس ابن إدريس فقرأ، فسمع ابن إدريس ألفاظاً فيها إفراط في المد والهمز وغير ذلك من التكلف، فكره ذلك ابن إدريس وطعن فيه، قال محمد بن الهيثم: وقد كان حمزة يكره هذا وينهى عنه»[(٢)].

---

(١) المغني: ١/ ٤٩٢.

(٢) غاية النهاية: ١/ ٢٦٣.

الكسائي

من أئمة القراء السبعة شيخ القراءة والعربية أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي مولاهم، الكوفي الملقب بالكسائي، قيل لكساء أحرم فيه، وقيل: لأنه كان يتشح بكساء ويجلس في حلقة حمزة، فيقول: «اعرضوا على صاحب الكساء».

انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد شيخه حمزة بن حبيب الزيات، الذي أخذ القراءة عنه وعن محمد بن أبي ليلى وعيسى بن عمر الهمداني وأبي بكر شعبة بن عياش وغيرهم.

ثم جلس للإقراء وإفادة الطلاب فقرأ عليه أبو عمر الدوري ونصير بن يوسف الرازي وقتيبة بن مهران الأصبهاني وأحمد بن أبي سُريج وأحمد بن جبير الأنطاكي وأبو حمدون الطيب وغيرهم.

كثر ثناء الأئمة عليه لعلمه بالقراءة واللغة، يقول أبو بكر الأنباري: «اجتمع فيه، أنه كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وأوحدهم في علم القرآن، كانوا يَكْثُرون عليه حتى لا يضبط عليهم، فكان يجمعهم ويجلس على كرسي ويتلو وهم يضبطون عنه حتى الوقوف»، وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: «كان الكسائي يتخير القراءات، فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضاً، وكان من أهل القراءة، وهي كانت علمه وصناعته، ولم يجالس أحداً كان أضبط ولا أقوم بها منه»، وقال ابن مجاهد: «كان إمام الناس في القراءة في عصره وكان الناس يأخذون عنه ألفاظه بقراءته عليهم».

جمع الكسائي إلى عنايته بالقرآن الكريم وتعليمه معرفته بلغة العرب حتى صار إماماً في اللغة والنحو، فهو من أئمة المذهب الكوفي النحوي، ومن أوائل هذه المدرسة النحوية التي لها قواعدها وآراؤها وأصولها، قال يحيى بن معين: «ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجةً من الكسائي»، وقال الشافعي: «من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي»، وقال الفضل بن شاذان: «لما عرض الكسائي على حمزة خرج إلى البدو فشاهد العرب وأقام عندهم حتى صار كواحد منهم، ثم دنا إلى الحضر وقد علم اللغة».

قال الفراء: «إنما تعلم الكسائي النحو على كبر، ولزم معاذاً الهراء مدة، ثم خرج إلى الخليل»، وله مناظرته المشهورة التي خصم فيها سيبويه إمام النحو البصري، وقد روى القفطي في سبب تعلم الكسائي النحو وطلبه عند علمائه أنه جاء يوماً ماشياً حتى أعيى – أي تعب – فجلس إلى قوم فيهم فضل، وكان يجالسهم كثيراً، فقال: «قد عييت، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن، فقال: كيف لحنت؟ فقالوا: إن كنت أردت من التعب فقل أعييت، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل عييت، فأنف من هذه الكلمة وقام من فوره، فسأل عمن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذ الهراء، فلزمه حتى أنفد ما عنده».

ولا ريب أن علوم القرآن الكريم وتفسيره وتوجيه قراءاته، وعلوم اللغة العربية مرتبط بعضها ببعض، ومن أبرز من جمع هذا الإمام الكسائي كما سبق، فاللغة العربية لغة القرآن الكريم المحفوظ بحفظ الله عز وجل إياه، يقول

تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[(١)]. ولا سبيل إلى معرفة أحكام القرآن الكريم وتفسيره وإعجازه والوقوف على ذلك إلا عن طريق معرفة لغة العرب، ومن لم تكن له بذلك دراية وعلم لم يظفر من معرفة هذه العلوم بشيء.

وأقوال السلف في حثهم على تعلم لغة العرب ومعرفة أحكامها وضبط قواعدها كثيرة، قال عمر – رضي الله عنه: «تعلموا العربية فإنها من دينكم»، وقال ابن عباس – رضي الله عنهما: «النحو حلية البيان»، وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – «يضرب ولده على اللحن»، وقال يحيى بن عتيق: «سألت الحسن البصري فقلت: يا أبا سعيد الرجل يتعلم العربية يلتمس حسن المنطق ويقيم بها قراءته، فقال: حسن يا بني فتعلمها، فإن الرجل قد يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك».

وقد صرح شيخ الإسلام ابن تيمية بوجوب تعلم العربية بقوله: «إن نفس اللغة من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[(٢)].

لذا فقد اشترط العلماء في تفسير القرآن الكريم أن يكون عالماً باللغة متقناً قواعدها وأصولها، قال الإمام مالك: «لا أوتى برجل غير عالم بلغة

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٧.

العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»، وقال الزركشي: «واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين، والمراد المعنى الآخر» (١) .

(١) البرهان: ١/ ٢٩٥.

يحيى بن وثاب

إن من توفيق الله لعبده أن ييسر له أمره في تعلم القرآن الكريم والعناية به، ويحبب ذلك إليه، ثم يعينه على أداء ما تحمل من أمانة فيعلم غيره تلاوته ويبين لهم معانيه ويعرفهم أحكامه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

والأمثلة على ذلك في سير سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى أجمعين كثيرة، منها: ما جاء في سيرة الإمام المقرئ بل شيخ القراء في زمانه يحيى بن وثاب الأسدي الكاهلي مولاهم، الكوفي، دخل هو وأبوه الكوفة وكانت حاضرة العلم والعلماء في زمانه، فطلب من أبيه البقاء بها ليتعلم كتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - مجالساً أهل العلم والفضل، ملازماً حلقهم ودروسهم، مؤثراً ذلك على الذهاب لبلده حتى يتعلم ويتفقه، قائلاً لأبيه: «يا أبت إني آثرت العلم على المال»، فأذن له في المقام بالكوفة.

فأقبل على القرآن الكريم فقرأ على أصحاب عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - وطلابه حيث لم يدركه، فقرأ على علقمة بن قيس والأسود بن يزيد وأبي عبدالرحمن السلمي وغيرهم، حتى صار أقرأ أهل زمانه والمقدم فيهم، كما روى الحديث عن ابن عباس وابن عمرو وابن الزبير وعبيدة السلماني وغيرهم، فجمع الله له بين القرآن والسنة، أخرج حديثه مسلم في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة.

ثم جلس - رحمه الله تعالى - بعد ذلك لإقراء القرآن ورواية السنة

وإفادة الطلاب فانتفع به خلق كثير، حيث قرأ عليه الأعمش وطلحة بن مصرف وأبو حصين وحُمران بن أعين وغيرهم، كما روى عنه الحديث عتبة المسعودي وأبو إسحاق السبيعي وأبو إسحاق الشيباني وقتادة وغيرهم.

كثر ثناء الأئمة على قراءته وضبطه وإتقانه وحسن صوته، قال الأعمش: «كان يحيى بن وثاب من أحسن الناس قراءة، ربما اشتهيت أن أقبل رأسه من حسن قراءته، وكان إذا قرأ لا تسمع في المسجد حركة، كأن ليس في المسجد أحد»، ولا ريب أن حسن الصوت معين على التأثر بالقرآن وتأمل آياته وتدبر وعده ووعيده، وهكذا كان - رحمه الله - ترى عليه آثار الصلاة إذا انتهى منها.

وقال ابن جرير الطبري عنه: «كان مقرئ أهل الكوفة في زمانه»، وقال ابن حاقان: «كان من قراء أهل الكوفة يحيى بن وثاب وعاصم والأعمش، وكان هؤلاء من بني أسد موالي، وكان أقدم الثلاثة وأعلاهم يحيى بن وثاب»، وقال الحسن بن صالح: «قرأ يحيى على علقمة، وقرأ علقمة على ابن مسعود، فأي قراءة أفضل من هذه».

وكان - رحمه الله تعالى - دقيق المحاسبة لنفسه، يرى عليه أثر الخوف والخشية من الله عز وجل، يقول الأعمش: «حدثني يحيى بن وثاب، وكنت إذا رأيته قد جثا، قلت: هذا وقف للحساب، فيقول: أي رب أذنبت كذا فعفوت عني فلا أعود، وأذنبت كذا فعفوت عني فلا أعود».

أبو جعفر القارئ

من الأئمة القراء الموالي الذين أكرمهم الله عز وجل وأعلى قدرهم بالقرآن الكريم لما قرؤوه واعتنوا به، وكان لمن أعتقوهم الفضل بعد الله عز وجل عليهم في الإقراء والتعليم أو جعفر يزيد بن القعقاع المدني القاري، أحد القراء العشرة، تابعي مشهور كبير القدر.

قرأ القرآن على مولاه عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي وعلى عبدالله بن عباس وأبي هريرة – رضي الله عنهم – وروى عنهم شيئاً من سنة النبي ﷺ، روي أنه أتي به إلى أم سلمة أم المؤمنين – رضي الله عنها – فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة، صلى بابن عمر وكان يفتح على الأئمة في رمضان لضبطه وإتقانه.

ثم جلس بعد ذلك لإقراء الناس وتعليمهم، وممن قرأ عليه نافع بن أبي نعيم وسليمان بن مسلم بن جماز وعيسى بن وردان وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

كثر الثناء على قراءته وإمامته في ذلك، قال يحيى بن معين: «كان إمام أهل المدينة في القراءة، فسمي القارئ بذلك، وكان ثقة قليل الحديث»، وقال يعقوب بن جعفر الأنصاري: «كان إمام الناس بالمدينة أبو جعفر»، وقال مالك بن أنس: «كان أبو جعفر رجلاً صالحاً يقرئ الناس بالمدينة».

جمع – رحمه الله تعالى – كما جاء في سيرته بين العلم والعبادة والعناية بأعمال القلوب والجوارح، تأثراً بالقرآن الكريم وعملاً بما فيه، قال له رجل:

«هنيئاً لك ما آتاك – الله – من القرآن، قال: ذاك إذا أحللت حلاله وحرمت حرامه، وعملت بما فيه»، وروي أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو صوم داود – عليه السلام – واستمر على ذلك مدة من الزمان، فقال له بعض أصحابه في ذلك، فقال: «إنما فعلت ذلك أروض به نفسي لعبادة الله تعالى»، أما قيامه بالليل فقد روي أنه كان يصلي في جوف الليل أربع تسليمات، يقرأ في كل ركعة بالفاتحة وسورة من طوال المفصل، ويدعو عقيبها لنفسه والمسلمين.

وهذا مما يدل على حرصه على العبادة والطاعة مع تقديره ووفائه لشيوخه وعلمائه ثم محبته للمسلمين عامة وبخاص من قرأ بقراءته، وهذا دليل على سلامة القلب وطهارة النفس من كل حقد وضغينة وشحناء والله المستعان، وكانت وفاته – رحمه الله تعالى – سنة ثلاثين ومائة من الهجرة.

إن صفاء النفس وطهارة القلب وسلامة الصدر من كل حقد وحسد، وضغينة وكراهية معين ولا شك على الطاعة والأنس بالعبادة والمسارعة في كل خير وبر، وبالعكس إذا كان الصدر مثقلاً بالأحقاد والقلب مسوداً من حسد الآخرين على ما آتاهم الله من نعمه وأسبغ عليهم من مننه، كل لحظاته وسكناته مشغولة بما عند الناس من نعم، وتمني زوالها عنهم.

حتى يكون شغله الشاغل عما هو مرصد له من إصلاح نفسه وأطرها على طاعة الله ومجاهدتها كيلا تقع في المعاصي والذنوب، كما أن القلب المشحون بغضاً وكراهية لإخوانه لا يتبسم لهم ولا يصافحهم ولا يؤنسهم في مجالسهم قلب مريض، محرومٌ صاحبه من كل خير، عن أنس بن مالك –

رضي الله عنه – قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، وكان ذلك أيضاً في اليوم الثالث.

فتبعه عبدالله بن عمرو رغبة في معرفة عمله الذي بلَّغه الجنة فلم ير عنده كبير عمل، ثم سأله بعد أن أخبره بقول النبي ﷺ فيه، فقال ذاك الرجل: «ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه»، وفي رواية: «إلا أني لم أبت ضاغناً على مسلم أو كلمة نحوها»، فقال عبدالله: «هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق» (رواه أحمد).

عبدالرحمن بن هرمز الأعرج

كان الأئمة من السلف معتنين بالقرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ جميعاً، وقد تغلب العناية بأحدهما على الآخر مع عدم إغفال الأمر الآخر والتكاسل في القيام به، وسيرهم شاهدةٌ على ذلك.

من ذلك ما جاء في سيرة الإمام التابعي أبي داود عبدالرحمن بن هرمز الأعرج المدني مولى محمد بن ربيعة كان أحد المبرزين في علمي القرآن والسنة، بعد أن أخذهما وتلقاهما عن أفاضل الصحابة في زمنه - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - فقد أخذ القراءة عرضاً عن أبي هريرة وابن عباس وعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة وغيرهم، وكان يكتب المصاحف.

أما سنة النبي ﷺ فقد رواها عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعبدالله بن مالك بن بحينة وغيرهم، إلا أنه كان معتنياً بالقرآن الكريم أكثر حيث قرأه وجوده وأتقنه، فكان الإمام الحجة المقرئ في زمانه، ومن أبرز من تلا عليه نافع بن أبي نعيم قارئ المدينة وأحد القراء السبعة.

وممن روى عنه السنة حيث جلس لروايتها الزهري وأبو الزناد وصالح ابن كيسان ويحيى بن سعيد الأنصاري وغيرهم، وحديثه مخرج في الكتب الستة، وكان - رحمه الله تعالى - عالماً بلغة العرب وأنسابها، قال أبو النضر: «كان عبدالرحمن بن هرمز أول من وضع العربية، وكان أعلم الناس بأنساب قريش»، وقيل: إنه أخذ العربية عن أبي الأسود الديلي.

وكان – رحمه الله تعالى – أحد المجاهدين الشجعان المرابطين على الثغور ابتغاء ما عند الله، مما ذكره النبي ﷺ بقوله: «**عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» (رواه الترمذي)، فقد خرج إلى مصر ومات مرابطاً بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة رحمه الله رحمة واسعة.

شعبة بن عياش

من الأئمة الأعلام الذين جمعوا بين العلم بالكتاب والسنة، وإن كان الغالب المشهور عنهم عنايتهم بالقرآن الكريم تعلماً وتعليماً، إقراء ورواية الإمام المقرئ أبو بكر شعبة بن عياش بن سالم الأسدي مولاهم الكوفي، مولى واصل الأحدب، أكرمه الله وأعلى شأنه ورفع منزلته لما اعتنى بكتاب الله عز وجل، فقرأه على شيوخ زمانه واجتهد في ذلك فأتقنه وجوده، وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**».

فقد قرأ القرآن على الإمام عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة وجوده على يديه ثلاث مرات، باذلاً جهده متأدباً بآداب الطالب الحريص على تعلم كتاب الله عز وجل مع ما يلقى في ذلك من مشقة وتعب، يقول يحيى بن آدم: «قال لي أبو بكر – يعني ابن عياش – تعلمت من عاصم القرآن كما يتعلم الصبي من المعلم، فلقي مني شدة، فما أحسن غير قراءته، وهذا الذي أحدثك به من القراءات إنما تعلمته من عاصم تعلماً»، ويذكر صورةً أخرى من صور اجتهاده ومواصلته القراءة على شيخه، وتلك سيما طالب العلم فيقول: «اختلفت إلى عاصم نحواً من ثلاث سنين، في الحر والشتاء والمطر، حتى ربما استحييت من أهل مسجد بني كاهل»، ويذكر منهج قراءته على شيخه فيقول: «تعلمت القرآن من عاصم خمساً خمساً، ولم أتعلم من غيره، ولا قرأت على غيره»، ولم تكن قراءته على شيخه عاصم إلا بعد أن بحث

وسأل عن أعلم الناس بقراءة القرآن وأتقنهم لتلاوته فلزمه، قال بعض السلف: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»، قال أبو بكر شعبة بن عياش: «ما رأيت أحداً أقرأ من عاصم فقرأت عليه، وما رأيت أحداً أفقه من المغيرة – يعني: ابن عبدالرحمن بن الحارث المخزومي – فلزمته».

وقد نال بتوفيق من الله عز وجل وإعانة ثم بهذا الجهد الدؤوب المتواصل إتقان القراءة وتجويد التلاوة، وتلك نعمة عظمى تستحق الثناء والحمد لله أن منحها إياه، وأعانه على تحصيلها، وقد أثنى عليه بذلك شيخه، موجهاً إياه أن يحمد ربه على ذلك، يقول أبو بكر: «قال لي عاصم: احمد الله تعالى، فإنك جئت وما تحسن شيئاً، فقلت: إنما خرجت من المكتب ثم جئت إليك، قال: فلقد فارقت عاصماً وما أسقط من القرآن حرفاً».

ولم يكن الثناء عليه والتقدير له من شيخه فقط، بل كان أيضاً ممن لازمه أو أدركه أو ممن جاء بعده، قال يعقوب بن شيبة الحافظ: «كان أبو بكر معروفاً بالصلاح البارع، وكان له فقه وعلم بالأخبار، وفي حديثه اضطراب»، وقال الذهبي: «هو المقرئ الفقيه المحدث، شيخ الإسلام وبقية الأعلام، كان سيداً إماماً حجة، كثير العلم والعمل، منقطع القرين»[1].

ثم جلس – رحمه الله تعالى – بعد ذلك لإقراء التلاميذ وإفادة الطلاب، مؤدياً تلك الأمانة التي تحملها، مغتنماً الخيرية التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، فقد تلا عليه جماعة منهم أبو

---

(١) معرفة القراء الكبار، ١٨.

الحسن الكسائي، أحد القراء السبعة ويحيى العُليمي وأبو يوسف الأعشى وعروة بن محمد الأسدي، وأكثر من أخذ عنه الحروف تحريراً وإتقاناً يحيى بن آدم وغيرهم.

إلى جانب ما سبق من عناية أبي بكر شعبة بن عياش بالقرآن الكريم فقد روى الكثير من سنة النبي ﷺ، فحديثه عند البخاري والأربعة، فقد حدث عن جماعة منهم أبو إسحاق السبيعي وعبدالملك بن عمير وإسماعيل السدي وحصين بن عبدالرحمن وحميد الطويل، والأعمش الذي كان يجله ويقدره ويرفع من شأنه لعنايته بالقرآن، مع ما كان معروفاً عن الأعمش من شدة مع طلابه، فكان يأخذ بيده ويجلس معه، وهو بهذا يستن بهدي النبي ﷺ القائل: **«إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»** (رواه أبو داود بإسناد حسن).

ومع ذلك فقد وقع في حديثه بعض الغلط، والكمال لله سبحانه، وهذا لا يغض من قدره - رحمه الله - يقول الإمام أحمد بن حنبل عنه: «ثقة ربما غلط، صاحب قرآنٍ وخير»، وقال يحيى بن معين: «ثقة»، وقال غير واحد: «صدوق له أوهام».

يقول ابن المبارك: «ما رأيت أحداً أسرع إلى السنة من أبي بكر بن عياش»، وكان يقول: «القرآن كلام الله ألقاه إلى جبريل، وألقاه جبريل إلى محمد ﷺ، منه بدأ وإليه يعود»، وقال أيضاً: «من زعم أن القرآن مخلوق فهو عندنا كافر زنديق، عدو الله لا نجالسه ولا نكلمه»، ومن دقة فهمه واستنباطه من القرآن قوله: «أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ في نص القرآن، يرد

بذلك على الرافضة الذين يطعنون في خلافة أبي بكر، لأن الله تعالى يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾[1]، قال: فمن سماه الله صادقاً فليس يكذب، وهم قالوا: يا خليفة رسول الله».

وكان أيضاً متمسكاً بهدي النبي ﷺ تظهر عليه آثار علمه بالقرآن والسنة، ورعاً وخشية، محاسبة للنفس وأطراً لها على طاعة الله، وصرفاً لها عما لا يحل لها مما تشتهيه وتميل إليه، يقول بعضهم: «ما رأيت أحداً أحسن صلاة من أبي بكر بن عياش»، أما عن ورعه وخوفه من الله، فيحدث عن ذلك يحيى بن سعيد فيقول: «زاملت أبا بكر بن عياش إلى مكة، فما رأيت أورع منه، لقد أهدى له رجل رطباً، فبلغه أنه من بستان أخذ من خالد بن سلمة المخزومي – أي أخذ بغير حق – فأتى آل خالد فاستحلهم وتصدق بثمنه».

وكان – رحمه الله تعالى – حريصاً على نفع الناس بعامة وتلاميذه وطلابه بخاصة، وأعظم نفع يقدمه لهم إقراء القرآن وتعليم تلاوته، ورواية السنة والحديث بها، كان يقول: «سخاء الحديث كسخاء المال»، وقال أيضاً: «والله لو أعلم أن أحداً يطلب الحديث بمكان كذا وكذا لأتيت منزله حتى أحدثه».

بهذه الهمة العالية والحرص على تعليم الناس استحق هذه المكانة العالية في قلوب أهل زمانه مع ما له من الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٨.

سبحانه، فخير الناس أنفعهم للناس، وأحوج ما يكون إليه الناس، تعليمهم الكتاب والسنة، وتدريس أحكامها ومعرفة هداياتها، والوعظ والإرشاد بهما، والنبي ﷺ يقول: «**بلغوا عني ولو آية**» (رواه البخاري).

ولم يزل أبو بكر شعبة بن عياش هذا دأبه وذاك عمله حتى توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة – رحمه الله – رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، ومما أثر عنه من الأقوال والمواعظ قوله: «أدنى نفع السكوت السلامة، وكفى به عافية، وأدنى ضرر المنطق الشهرة، وكفى بها بلية»، وقال أيضاً: «الدخول في العلم سهل، لكن الخروج منه إلى الله شديد»، أي إخلاصه والتوجه به إلى الله وحده لا إلى غيره، شديدٌ وصعبٌ إلا على من يسره الله عليه ووفقه له.

حفص بن سليمان

من الأئمة القراء أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي، أخذ القراءة عن عاصم عرضاً وتلقيناً ولازمه ملازمة شديدة؛ لأنه كان ربيبه ابن زوجته، وهو الذي نقل قراءة عاصم للناس وأقرأ بها في الكوفة وبغداد، ثم جاور بمكة وأقرأ بها، أثنى الكثير على روايته عن عاصم، قال يحيى بن معين: «الرواية الصحيحة التي رويت عن قراءة عاصم رواية أبي عمر حفص بن سليمان»، وقال أبو هشام الرفاعي: «كان حفص أعلمهم بقراءة عاصم».

ومع قراءته على شيخه عاصم عدة مرات فإنه قد لاحظ اختلافاً بينه وبين صاحبه أبي بكر شعبة بن عياش فسأل شيخه بقوله: «قلت لعاصم: أبو بكر يخالفني، فقال: أقرأتك بما أقرأني أبو عبدالرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب، وأقرأته بما أقرأني زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود».

ثم جلس – رحمه الله تعالى – لإقراء الناس وتعليمهم، مغتنماً الخيرية التي ذكرها – عليه الصلاة والسلام – بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، فشغل وقته به وبذل جهده من أجله، فتخرج على يديه أئمة علماء أجلاء، منهم: حسين بن محمد المروذي وحمزة بن القاسم الأحول وسليمان بن داود الزهراني وحمدان بن أبي عثمان الدقاق والعباس بن الفضل الصفار وغيرهم.

سليم بن عيسى

من الأئمة الأعلام الذين كان لهم باع طويل في تعليم القرآن ورواية السنة شيخ القراء في زمانه أبو عيسى سليم بن عيسى بن سليم بن عامر الحنفي مولاهم الكوفي، أشهر تلاميذ الإمام حمزة الزيات أحد القراء السبعة، وأحذق أصحابه وأضبطهم وأخصهم عنده.

فقد تلا على حمزة القرآن عشر مرات، فكان له الإتقان والضبط الذي فاق به أقرانه، لما صبر واجتهد في أخذ القراءة عن شيخه بلا ملل ولا كسل، حتى ختم عليه عشر مرات، ففي هذا حثٌّ لطلاب هذا الزمان أن يجتهدوا ويبذلوا ما في وسعهم من أجل حفظ القرآن وضبطه وإتقان تلاوته، مع تيسر السبل وتهيئة الأمور: ﴿ **ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾[1].

إن القرآن عزيز لا يمكن أن يتقن القارئ تلاوته حتى يأخذه من أفواه الشيوخ القراء، كما هو منهج السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان، وإن كان هناك مشقة وتعب فالأجر عظيم والثواب جزيل، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ما هر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» (متفق عليه) .

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٨.

أثنى عليه شيخه ومعلمه حمزة، يقول يحيى بن عبدالملك: «كنا نقرأ على حمزة ونحن شباب، فإذا جاء سليم قال لنا حمزة: تحفظوا وتثبتوا فقد جاء سليم»، ومن دليل إتقانه القراءة قراءة أقرانه وأصحابه عليه كخلاد بن عيسى وخالد الطبيب وإبراهيم الأزرق وحمزة بن القاسم وغيرهم.

حدث عن سفيان الثوري وحدث عنه ضرار بن صرد وأحمد بن حميد، وليس له حديث في الكتب الستة، يقول ضرار بن صرد «سمعت سليم بن عيسى – وأتاه رجل – فقال: يا أبا عيسى جئتك لأقرأ عليك بالتحقيق، فقال: يا ابن أخي شهدت حمزة وأتاه رجل في مثل هذا فبكى، وقال: يا ابن أخي إنما التحقيق صون القرآن، فإن صنته فقد حققته، هذا هو التحقيق».

أيوب السختياني

كان لي حديث فيما سبق عن نعمة الله الكبرى لمن وفقه لخدمة كتابه جل وعلا وسنة نبيه ﷺ ورزق الفقه فيهما ثم العمل بهما، وقد كان هذا لكثير من السلف - رحمهم الله تعالى - إلا أن بعضهم قد يشتهر بعنايته بالقرآن الكريم تعلماً وتعليماً، إقراء وتفسيراً أكثر من عنايته بالسنة النبوية، وهذا لا يعني انصرافه عنها وزهده فيها، ومنهم من يكون بالعكس، قد توجه معظم جهده لخدمة السنة، رواية وتحديثاً، حفظاً وفهماً، مع ظهور أثر الكتاب والسنة عليه، تمسكاً بهما وانقياداً لحكمهما وتحكيماً لهما في شؤون الحياة صغيرها وكبيرها.

ومن أمثلة القسم الثاني ما جاء في سيرة الإمام الحافظ المحدث أبي بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني العنزي مولاهم البصري، من صغار التابعين، رأى أنس بن مالك رضي الله عنه وما روى عنه، إنما روى عن أبي عثمان النهدي وسعيد بن جبير وأبي العالية الرياحي ومجاهد بن جبر والحسن البصري ومحمد بن سيرين وغيرهم.

كان معظماً لكتاب الله عز وجل وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - محذراً من الانحراف عنهما بعد تعلمها فقد قامت الحجة عليه، فما أقبح الضلالة بعد الهداية والانتكاسة بعد الطاعة، كان يقول - رحمه الله تعالى: «لا خبيث أخبث من قارئ فاجر».

ومن تعظيمه للسنة أنه كان إذا ذكر له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى

يرحمه من حوله من كثرة بكائه وتأثره، يقول حماد بن زيد: «أيوب عندي أفضل من جالسته وأشده اتباعاً للسنة»، كان – رحمه الله تعالى – عابداً يحيي ما تيسر له من الليل بالصلاة وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار مع رقة القلب ودمع العين، كل هذا بإخلاص وتوجه لله سبحانه وحده، بعداً عن الرياء والسمعة، وطلب الذكر وتشوف الشهرة بين الناس، فمما جاء في سيرته أنه كان يقوم من الليل فيخفي ذلك، فإذا كان الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة، وعن حماد بن زيد قال: «كان أيوب في مجلس فجاءته عبرة، فجعل يمتخط ويقول: ما أشد الزكام»، وغلبه البكاء مرة فقال: «الشيخ إذا كبر مج» أي: لا يستطيع الشيخ الكبير حبس ريقه، ومن بعده عن الشهرة وهروبه منها ما يرويه شعبة بقوله: «ربما ذهبت مع أيوب لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ههنا وههنا لكي لا يفطن له»، ولما تبع بعضهم أحد الأئمة من السلف قال لهم: «ألكم حاجة؟ قالوا: لا، إنما أردنا أن نتبعك، فقال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع».

ومن إزرائه بنفسه وعدم الإعجاب بعمله وبلوغه هذا المبلغ العظيم قوله: «إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل»، وكان يقول: «ما صدق عبد قط فأحب الشهرة»، وكان يقول: «ذكرت ولا أحب أن أذكر»، أي: اشتهر أمره ولم يكن يحب ذلك أو يطمح له وتتوق نفسه إليه، كان ينكر على من يحاول صرف أنظار الناس إليه في لباس أو هيئة أو نحو ذلك، قال – رحمه الله تعالى: «ليتق الله رجلٌ، فإن زهد فلا يجعلن زهده عذاباً على الناس، فلأن يخفي الرجل زهده خير من أن يعلنه».

ويبين - رحمه الله تعالى - حقيقة الزهد وأقسامه فيقول: «الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء، أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها ثواباً عند الله تعالى: الزهد في عبادة من عبد من دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء، ثم زهدكم هذا - يا معشر القراء - فهو والله أخسه عند الله، الزهد في حلال الله عز وجل».

كان الإمام أيوب السختياني يحذر من أهل الأهواء الذين يضلون الناس ويلبسون عليهم أمر دينهم ويثيرون الشبه عليهم ليغمسوهم معهم في باطلهم ويضلوهم عن صراط الله المستقيم ومنهج السلف الصالح، فقد رأى - رحمه الله تعالى - مرة رجلاً من أصحاب الأهواء فقال: «إني لأعرف الذلة في وجهه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [1]، ثم قال: هذه لكل مفترٍ»، وقال له رجل من أصحاب الأهواء: «يا أبا بكر أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول: ولا نصف كلمة»، مرتين.

وقد وفق - رحمه الله تعالى - في تحذيره منهم ومنهجه في التعامل معهم، فالهوى قد يتخذه صاحبه إلهاً يعبد من دون الله كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [2]، وهو سبب الضلال والانحراف، يقول جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [3].

والنصوص من كتاب الله عز وجل في التحذير من الهوى وبيان آثاره

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.

السيئة على أصحابه في الدنيا والآخرة كثيرة، لا يوفق لمعرفتها والاهتداء بها إلا من أدام النظر في كتاب الله واعتنى به، فهماً لآياته ووقوفاً عند هداياته وسيراً على توجيهاته.

كان الإمام أيوب السختياني متحلياً بأخلاق أهل القرآن متأدباً بالآداب النبوية، حريصاً على الخير مسارعاً في أعمال البر مزداداً من النوافل والقربات، يقول هشام بن حسان: «حج أيوب السختياني أربعين حجة»، ويقول حماد بن زيد: «ما رأيت رجلاً قط أشد تبسماً في وجوه الرجال من أيوب»، وقد يعد بعض الناس هذا العمل قليلاً، فلا يوليه اهتمامه ولا يحرص عليه، ويَعْظُمُ هذا الصنيع – أعني عدم التبسم في وجوه الآخرين – إذا كان الشخص من حملة القرآن والمعتنين بالسنة وأهل العلم ودعاة الخير، فإن الناس في أمس الحاجة إلى أن يقربوا منهم ويستفيدوا مما أفاء الله عليهم من العلم النافع، ومفتاح ذلك التبسط مع الناس والتبسم في وجوههم وتلقيهم بالبشر وحسن الخلق، يقول – عليه الصلاة والسلام: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**» (رواه مسلم)، ويقول – عليه الصلاة والسلام: «**وتبسمك في وجه أخيك صدقة**» (رواه الترمذي وابن حبان).

ولعناية الإمام أيوب السختياني بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – مع طول العبادة والتمسك بالسنة وتعظيم الله عز وجل وخشيته كثر الثناء عليه، مع بعده عن الشهرة والرياء والمدح والثناء، فلعل هذا من باب قول النبي ﷺ: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» (رواه مسلم)، يقول محمد بن سودة الكاتب: «كان أيوب ثقة ثبتاً في الحديث، جامعاً كثير العلم، حجة

عدلاً»، وقال شعبة: «أيوب سيد الفقهاء»، وقال الحسن البصري: «أيوب سيد شباب أهل البصرة»، ويقول الحميدي: «لقي ابن عيينة ستة وثمانين من التابعين وكان يقول: ما رأيت مثل أيوب».

وأختم هذه السيرة العطرة ببعض ما أثر عنه من أقوال ومن ذلك قوله: «لا يسود العبد حتى يكون فيه خصلتان، اليأس مما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم»، وقال أيضاً: «إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي»، وفي رواية: «فكأنما أفقد بعض أعضائي»، وقال أيضاً: «إن قوماً يتنعمون ويأبى الله إلا أن يضعهم، وإن أقواماً يتواضعون ويأبى الله إلا أن يرفعهم».

عبدالملك بن جريج

من أئمة السلف – رحمهم الله تعالى – من كانت له عناية بتفسير كتاب الله عز وجل ورواية ما قيل في تفسيره وبيان معناه واستظهار أحكامه عمن سبق، مع الإفادة من ذلك قولاً وعملاً، صلاحاً في الظاهر والباطن، استقامة على منهج الله وتمسكاً بسنة النبي ﷺ ومن أولئك الأئمة المتقدمين شيخ الحرم المكي الإمام الحافظ المفسر أبو خالد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج القرشي.

بدأ – رحمه الله تعالى – طلب العلم بالكتاب والسنة والفقه فيهما، يسير في ذلك حسب منهج أهل زمانه في طلب العلم، يبدأ أولاً بحفظ كتاب الله عز وجل فإذا حفظه وأتقنه بدأ بغيره، يحكي ذلك فيقول: «أتيت عطاء – يعني ابن أبي رباح – وأنا أريد هذا الشأن وعنده عبدالله بن عبيد بن عمير، فقال لي ابن عمير: قرأت القرآن؟ قلت: لا، قال: فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم، فذهبت فغبرت زماناً حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاءً وعنده عبدالله، فقال: قرأت الفريضة؟ قلت: لا، قال: فتعلم الفريضة ثم اطلب العلم، قال: فطلبت الفريضة، ثم جئت، فقال: الآن فاطلب العلم، فلزمت عطاء سبع عشرة سنة».

ثم رحل – رحمه الله تعالى – في طلب العلم وكان هذا مشهوراً عند السلف، فقد ولد بمكة ثم طوف في كثير من البلاد، فرحل إلى البصرة واليمن وبغداد، فنقل العلم عن أئمة زمانه منهم عطاء بن أبي رباح الذي روى عنه كثيراً ولزمه حتى جود وأتقن، ومنهم ابن أبي ملكية ونافع مولى ابن عمر ومجاهد بن جبر الذي أخذ عنه القراءة وصفوان بن سليم وغيرهم.

ويذكر – رحمه الله تعالى – سبب توجهه لطلب العلم الشرعي فيقول: «كنت أتتبع الأشعار العربية والأنساب، فقيل لي: لو لزمت عطاء فلزمته»، وهذا من توفيق الله له، يقول – عليه الصلاة والسلام – فيما صح عنه: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» (متفق عليه)، ولحبه لشيخه عطاء بن أبي رباح وإعجابه بما أفاء الله عليه من العلم بالكتاب والسنة حرص على ملازمته كثيراً، يسافر والده ويقيم عنده، مغتنماً حياة شيخه المباركة بعلمي الكتاب والسنة، يقول – رحمه الله تعالى: «أقمت على عطاء إحدى وعشرين حجة – أي سنة – يخرج أبواي إلى الطائف وأقيم أنا – أي في مكة – تخوفاً أن يفجعني عطاء بنفسه» أي: بموته، وبعد هذا الجهد المتواصل ولزوم مجالس العلماء وحضور دروسهم جلس – رحمه الله تعالى – لتعليم الناس كتاب الله عز وجل وتفسيره وبيان معانيه وأحكامه، وكذا رواية سنة النبي ﷺ والتحديث بها، حرصاً منه على نفع الناس وتبليغ أمانة العلم الذي تحمله عن شيوخه، قال الوليد بن مسلم: «سألت الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟ كلهم يقول: لنفسي، غير ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس».

قال الذهبي: «ما أحسن الصدق، واليوم نسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم؟ فيبادر ويقول: طلبته لله، ويكذب إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه»[1].

وممن تتلمذ على يدي ابن جريج الأوزاعي والليث وسفيان بن عيينة

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٢٥.

وسفيان الثوري ويحيى بن سعيد القطان ووكيع بن الجراح والوليد بن مسلم وغيرهم كثير.

ويعد ابن جريج - رحمه الله تعالى - من أوائل من دون العلم وصنف الكتب وجمع الحديث والآثار بالحجاز، قال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل: «قلت لأبي: من أول من صنف الكتب؟ قال: ابن جريج وابن أبي عروبة»، ويقول ابن جريج عن نفسه: «ما دون العلم تدويني أحد»، وقال يحيى بن سعيد: «كنا نسمي كتب ابن جريج كتب الأمانة، وإن لم يحدثك ابن جريج من كتابه لم تنتفع به».

أما الثناء عليه بعامة فقد كثر من أئمة زمانه ومن بعدهم، لعنايته بالقرآن والسنة والرواية فيهما مع طول العبادة وعظيم الخشية لله والتمسك بالسنة وكثرة الطاعة، قال عبدالرزاق: «ما رأيت أحداً أحسن صلاة من ابن جريج»، وقال أيضاً: «أهل مكة يقولون: أخذ ابن جريج الصلاة من عطاء، وأخذها عطاء من ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبي بكر، وأخذها أبو بكر من النبي ﷺ». قال بعض المحققين: «وهذا الأثر قصد به عبدالرزاق الثناء على صلاة ابن جريج، وأنه كان يحسن أداءها على ما أخذه عمن قبله، بطريق المشاهدة المتوارثة عن النبي ﷺ».

وأثنى عليه شيخه عطاء بقوله: «سيد شباب أهل الحجاز ابن جريج»، وهذه تزكية عالية ممن لازمه مدة طويلة، وقال مخلد بن الحسين: «ما رأيت خلقاً من خلق الله أصدق لهجة من ابن جريج»، وقال عبدالرزاق: «كنت إذا

رأيت ابن جريج علمت أنه يخشى الله» لما يُرى عليه من التأثر ورقة القلب والورع ودمع العين.

وقد اختلفت أقوال أهل العلم في مبلغ حفظ ابن جريج وثقته وضبطه، ولعل أعدلها وأرجحها ما روي عن الإمام أحمد أنه قال: «إذا قال ابن جريج: قال فلان وقال فلان وأُخبرت جاء بمناكير، وإذا قال: أخبرني وسمعت فحسبك به»، وقال يحيى بن معين: «ابن جريج ثقة في كل ما روي عنه من الكتاب»، وقال الذهبي: «الرجل في نفسه ثقة حافظ، لكنه يدلس بلفظ عن وقال وقد كان صاحب تعبد وتهجد، وما زال يطلب العلم حتى كبر وشاخ .. وروايات ابن جريج وافرة في الكتب الستة وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني الأكبر وفي الأجزاء»[١].

وفي ختام هذه السيرة أود بيان أن ابن جريج – رحمه الله تعالى – كان ممن روى الإسرائيليات وأخبار أهل الكتاب في تفسير بعض الآيات، وإن لم يكن من المكثرين، وللأئمة – رحمهم الله تعالى – خلاف في هذه الروايات والأخبار عن بني إسرائيل أعدلها وأرجحها رأي شيخ الإسلام ابن تيمية ومن تبعه، وهو تقسيم هذه الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما يُعلم صحته مما ثبت عن رسول الله ﷺ فهذا نصدقه ونقبله لثبوته عندنا كتعيين اسم صاحب موسى – عليه السلام – بأنه الخضر – فقد جاء هذا صريحاً على لسان رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري.

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٣٢.

الثاني: ما يُعلم كذبه؛ لأنه يناقض ما عرفناه في شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، فهذا القسم لا يصح قبوله ولا تحل روايته.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من القسمين الأول ولا الثاني، فهذا القسم نتوقف فيه فلا نؤمن به ولا نكذبه، لقوله – عليه الصلاة والسلام: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**» (رواه أحمد وأبو داود وغيرهما) [1].

❑◎◎❑

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦٦.

عبدالله بن عون

إن أئمة السلف لهم الجهود المشكورة في الرد على من خالف منهج أهل السنة والجماعة، ودعوته والناس عامة إلى الأخذ بالكتاب والسنة وألا يصدر له رأي وقول إلا من مشكاتهما وعلى ضوء هداياتهما، وما كان لهؤلاء الأئمة ذلك، إلا بتوفيق من الله عز وجل أولاً ثم بعنايتهم بكتابه تلاوة وحفظاً وفهماً، وتعليماً لآياته وأحكامه، ثم بسنة النبي ﷺ حفظاً ورواية وعلماً بما تضمنته من أحكام وتشريعات.

ومن أولئك الأئمة الإمام الحافظ أبو عون عبدالله بن عون بن أرطبان المزني مولاهم البصري، رأى أنس بن مالك ولم يروعنه، لكنه أخذ عن علماء عصره الكتاب والسنة، ومن أشهرهم الحسن البصري والقاسم بن محمد وإبراهيم النخعي ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير ورجاء بن حيوة وغيرهم.

اعتنى - رحمه الله تعالى - بكتاب الله عز وجل فحفظه وأتقنه وجوَّده، قال أبو الأحوص: «كان يقال لابن عون سيد القراء في زمانه»، وكان له حزبه من القرآن يحافظ عليه ولا يخل به، ومن لم يكن له حزب من القرآن لم يختم القرآن، بل ضاع عليه زمانه وفرط في أوقاته والله المستعان.

يقول بكار بن محمد السيريني: «كان له - أي لعبدالله بن عون - سبع يقرؤه كل ليلة، فإذا لم يقرأه أتمه بالنهار».

وكان يوصي بذلك ويحث عليه، دعوةً للخير ومحبة لإخوانه المسلمين - قال - رحمه الله: «أحب لكم يا معشر إخواني ثلاثاً، هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكف عن أعراض المسلمين»، وأعظم بها من وصية، فالقرآن تلاوته أجر وغنيمة، الحرف منه بعشر حسنات إلى سبعمائة

ضعف إلى أضعاف كثيرة، ولزوم الجماعة أمان من العذاب والفرقة والفتن والمحن وكثرة الاضطرابات وزعزعة الأمن، والكف عن أعراض المسلمين طهارة للسان وصفاء للقلب ودليل على سلامة الصدور، والاشتغال بما هو خير في الدنيا والآخرة.

وكان – رحمه الله تعالى – معظماً لسنة النبي ﷺ مقدماً لها مهتدياً بها، يقول بكار بن محمد السيريني: «كان ابن عون إذا حدَّث بالحديث يخشع عنده، حتى نرحمه مخافة أن يزيد أو ينقص» وقد جمع بين العلم والعمل، والمعرفة والخشية، وطول العبادة وكثرة الطاعة، يقول ابن المبارك: «ما رأيت مصلياً مثل ابن عون»، وقال بكار بن محمد: «كان ابن عون يصوم يوماً ويفطر يوماً»، وقيل له: «ألا تتكلم فتؤجر؟ فقال: أما يرضى المتكلم بالكفاف»، وروي عنه قوله: «ذكر الناس داء وذكر الله دواء».

قال الذهبي في السير: «فالعجب منا ومن جهلنا، كيف ندع الدواء ونقتحم الداء، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [(١)]، وقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [(٢)]، وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [(٣)]، ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله، ومن أدمن الدعاء ولازم قرع الباب فتح له، وقد كان ابن عون قد أوتي حلماً وعلماً، ونفسه زكية تعين على التقوى فطوبى له» [(٤)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٦٤.

إن لحملة القرآن الكريم والسنة والمعتنين بهما هدياً وسمتاً، وخلقاً فاضلاً وتعاملاً حسناً، تظهر آثار ذلك عليهم في أنفسهم وفي تعاملهم مع الآخرين، وهؤلاء أفادوا من علمهم فكان حجة لهم بإذن الله عز وجل، ومن أمثلة ما جاء في سيرة ابن عون الإمام الحافظ، روي أنه نادته أمه فأجابها فعلا صوته صوتها فأعتق رقبتين، كفارة لما صدر منه تجاهها من نقص في برها حين علا صوته صوتها، وعن سلام بن أبي مطيع قال: «كان ابن عون أملكهم للسانه»، وعن القعنبي قال: «كان ابن عون لا يغضب، فإذا أغضبه رجل قال: بارك الله فيك»، وقال بكار بن محمد السيريني: «صحبت ابن عون دهراً فما سمعته حالفاً على يمين برة ولا فاجرة»، وهذا من تعظيم شعائر الله، والله يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

وكان مع هذا كله شجاعاً مقداماً يشارك الجيوش الإسلامية للجهاد في سبيل الله عز وجل ويضرب أروع التضحيات فداء لهذا الدين، قال مفضل بن لاحق: «كنا بأرض الروم، فخرج رومي يدعو إلى المبارزة، فخرج إليه رجل من المسلمين – فقتله، ثم دخل في الناس، فجعلت ألوذ به لأعرفه وعليه المغفر، قال: فوضع المغفر يمسح وجهه فإذا ابن عون»، هذه شجاعته باليد والسيف، وكذا كان شجاعاً في بيان الحق وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة والرد عن من خالف طريقهم وتنكّب مناهجهم، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، معتمداً في ذلك الدليل من الكتاب والسنة، سأله رجل فقال: «أرى قوماً يتكلمون في القدر أفأسمع منهم؟ فتلا هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ

(١) سورة الحج، الآية: ٣٢.

ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾»[1]، يقول ابن المبارك: «ما رأيت مصلياً مثل ابن عون»، وقال عثمان البتي: «ما رأت عيناي مثل ابن عون»، وقال عبدالرحمن بن مهدي: «ما كان بالعراق أعلم بالسنة من ابن عون».

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

عمر بن ذر

من الأئمة الزهاد العباد، الذين نعموا بتلاوة كتاب الله عز وجل وتلذذوا بقراءته حين قاموا به الهزيع الأخير من الليل، مع العلم بمعانيه وفهم آياته الإمام أبو ذر عمر بن ذر الهمداني الكوفي، كان - رحمه الله تعالى - إذا بلغ الحرم لأداء مناسك الحج يقول: «اللهم إنا قد أطعناك في أحب الأشياء إليك أن تطاع فيه الإيمان بك، ولم نعصك في أبغض الأشياء أن تعصى فيه الكفر والجحد بك، اللهم فاغفر لنا ما بينهما، وأنت قلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [١]. ونحن نقسم بالله جهد أيماننا لتبعثن من يموت، أفتراك تجمع بين أهل القسمين في دار واحدة».

ومن وعظه بالقرآن ونصيحته بما تضمنه، قوله: «يا أهل المعاصي لا تغتروا بطول حلم الله عنكم واحذروا أسفه، فإنه قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾» [٢]، وكان إذا قرأ قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾، قال: «يا لك من يوم ما أملأ ذكرك لقلوب الصادقين»، وسمع مرة رجلاً يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦﴾ [٣]، فقال: الجهل.

كان - رحمه الله تعالى - رقيق القلب سريع الدمع يؤثر في غيره، يقول أبو بحر البكراوي: «اجتمع بمكة الفضل الرقاشي وعمر بن ذر فشهدتهما،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الانفطار، الآية: ٦.

فتكلم الفضل فأطال ووعظ وذهب من الكلام في مذاهب، فما رأيت أحداً رق لكلامه فسكت، فتكلم ابن ذر فحدث وبكى، فبكى الناس ورقوا»، ومن أقواله – رحمه الله تعالى: «ما دخل الموت دار قوم إلا شتت جمعهم، وقنعهم بعيشهم، بعد أن كانوا يفرحون ويمرحون»، وقال أيضاً: «من أجمع على الصبر في الأمور، فقد حوى الخير والتمس معاقل البر وكمال الأجور».

أبو حنيفة

كان الأئمة من أهل العلم الذين اشتغلوا بالتدريس والافتاء والفقه والحديث لهم نصيبهم من كتاب الله عز وجل يواظبون على حزب يومي لا يخلون به مع اشتغالهم بالعلم ومدارسته وتعليمه، يتلونه ويحفظونه، مع ما يكون من تأثرٍ بآي الذكر الحكيم، رقةً وبكاء وخشية وخضوعاً، ذلاً وانكساراً بين يدي الله عز وجل، وهم أولى الناس بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (١).

فالعلماء الربانيون، ورثة الأنبياء هم أولى الناس بكتاب الله عز وجل، لا يشغلهم ما هم فيه عنه، بل هم القدوة لغيرهم، حين يظهر عليهم تأثرهم بكتاب الله عز وجل، بجمعهم بين صلاح الظاهر والباطن، واستقامة الحال والمآل والجمع بين القول والعمل، ولنا في سير الأئمة العلماء من السلف الدروس النيرة والصفحات المشرقة التي تستثير الهمم وتنشط العزائم، وتحث النفوس المؤمنة المشرئبة لكل خير المتطلعة لكل بر، المسارعة في مراضي الله عز وجل وما يقرب إليه.

ومن أولئك الأئمة الإمام العلامة الفقيه أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي، من كبار التابعين، ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة، ورأى أنس بن مالك وما روى عنه، له شيوخ كثر، أشهرهم: عطاء بن أبي رباح والشعبي وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج ونافع مولى ابن عمر وقتادة وغيرهم.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

ثم جلس للتدريس والتعليم والفتوى فانتفع به خلق كثير منهم عبدالله بن المبارك وعبدالرزاق وأبو نعيم والفضل بن موسى وقيس بن الربيع ووكيع بن الجراح ويحيى بن أيوب المصري وغيرهم.

قال عنه الذهبي: «عُني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك»[(١)]، كثر ثناء الأئمة عليه، وبخاصة تلاميذه أو من صحبه ورآه، يقول ابن المبارك: «ما رأيت رجلاً أوقر في مجلسه ولا أحسن سمتاً وحلماً من أبي حنيفة»، وعن قيس بن الربيع قال: «كان أبو حنيفة ورعاً تقياً مفضلاً على إخوانه».

وعن شريك قال: «كان أبو حنيفة طويل الصمت كثير العقل»، فهذه الصفات وغيرها من أخلاق أهل القرآن المعتنين المتأثرين به، وقد كان له – رحمه الله تعالى – حزب من القرآن لا يخل به ولا يتكاسل في أدائه، ولذلك جاء في سيرته أنه كان يختم القرآن كثيراً، يقول أبو عاصم النبيل: «كان أبو حنيفة يسمى الوتد لكثرة صلاته».

أما عن بكائه ورقة قلبه ففي سيرته من ذلك شيء كثير، من ذلك ما رواه القاسم بن معن «أن أبا حنيفة قام ليلة يردد قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾[(٢)]، يبكي ويتضرع إلى الفجر»، وله أسوة في هذا، بنبينا وقدوتنا – عليه الصلاة والسلام – فعن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٩٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٦.

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾»[(١)] (رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح).

ومع جلالة قدره ومبلغه من العلم والرياسة في زمانه فقد كان متواضعاً، يقبل النصيحة ويصغي للموعظة ويفيد من الآخرين - وهذا هو الواجب على أهل العلم بخاصة - عن يزيد بن الكميت «أنه سمع رجلاً قال لأبي حنيفة: اتق الله، فانتفض أبو حنيفة واصفر وأطرق، وقال: جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا»، وصدق - رحمه الله تعالى - فإن بعض الناس لو أمر بتقوى الله وذكر مراقبة الله عز وجل ووجه إلى خير وحذر من شر، لاستغرب هذا، وقد يفسره بأمر آخر أو يتأوله على غير وجهه، والواجب قبول النصيحة والإفادة من كل توجيه مبارك رشيد، وإذا كان الله عز وجل يأمر سيد الأولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين، أعلم الناس به وأتقاهم له بتقواه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾[(٢)]، والاستقامة على أمره ودينه في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾[(٣)]. فالأمة من بعده أولى وأحرى أن تمتثل ما أمرت به وتحذر ما نهيت عنه.

قد تنتشر في بعض كتب التراجم والمواعظ والآداب أخبار وقصص باطلة وحكايات موضوعه من أجل الحث على علم بعينه والانتقاص من علم نافع آخر، أو لإبراز مكانة هذا العالم الذي برز في هذا الفن دون الآخر، مع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٢.

مصادمتها ومعارضتها لأدلة صحيحة صريحة، مما يدل على بطلانها وزيفها، من ذلك ما ذكره الذهبي في سيرة أبي حنيفة بقوله: «قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل: تعلم القرآن، فقلت: إذا حفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس في المسجد فيقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو مساويك، فتذهب رئاستك» إلى آخر الخبر.

قال الذهبي: «من طلب العلم للرئاسة قد يفكر في هذا، وإلا فقد ثبت قول المصطفى صلوات الله عليه، «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»، يا سبحان الله وهل محل أفضل من المسجد؟ وهل نشر لعلم يقارب تعليم القرآن؟ كلا والله، وهل طلبةٌ خير من الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب؟ وأحسب هذه الحكاية موضوعة، ففي إسنادها من ليس بثقة» [(١)].

فتعلم القرآن الكريم وتعليمه وبيانه للناس من أفضل الأعمال وأجل القرب، يحظى معلمه ومتعلمه بالخير في الدنيا والآخرة، كما في الحديث السابق، ولذا فقد كان أبو عبدالرحمن السلمي التابعي الجليل راوي الحديث عن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – يشتغل بذلك حتى قضى معظم حياته فيه، وكان مقدار الذي مكث فيه يعلم القرآن أربعين سنة، وكان يقول: «ذاك الذي أقعدني مقعدي هذا».

وتعليم القرآن بابٌ عظيم من أبواب الدعوة إلى الله عز وجل ومجالاتها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٩٥.

﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1]، قال الحافظ ابن حجر: «والدعاء إلى الله تعالى يقع بأمور شتى، من جملتها تعليم القرآن، وهو أشرف الجميع»[2]، بل إن معلم القرآن والعامل به من خيار الأمة، فهو خيار من خيار، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[3]، وما ذاك إلا لأن تعلم القرآن وتعليمه هو الأساس الذي يقوم عليه الدين وبه تعرف الشرائع والأحكام، وبنوره تستضيء الأمة وتسير على طريقه وتتربى على منهجه.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما: «عليكم بالقرآن فتعلموه، وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تسألون وبه تجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل»، وكان أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - يعلم الناس القرآن بمسجد البصرة مع كثرة مسؤولياته، يقول أنس بن مالك - رضي الله عنه: «بعثني الأشعري إلى عمر، فقال عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت: تركته يعلم الناس، فقال عمر: إنه كيس ولا تسمعها إياه».

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) فتح الباري، ٩/ ٧٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

أبو حازم سلمة بن دينار – سفيان الثوري

كانت مواعظ السلف ووصاياهم قائمةً على نصوص الوحيين الكتاب والسنة، يكثرون من إيراد الأدلة في خطبهم ونصائحهم، ورسائلهم وكتاباتهم، فلا غرو أن كلام الله عز وجل أعظم تأثيراً وأبلغ موعظة لمن ذكرهم الله بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[(١)]، فالعالم والداعية والواعظ مطالب كل واحدٍ منهم أن يكثر استدلاله بالكتاب والسنة في حديثه وقوله، وأن يعتمد على ذلك في معظم كلامه؛ لأنه أدعى إلى النفع والتأثير في قلوب الآخرين، يقول تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[(٢)]، قال الضحاك في هذه الآية: «يقول تعالى: لو أنزلت هذا القرآن على جبل فأمرته بالذي أمرتكم، وخوفته بالذي خوفتكم به إذاً يصَّدَّع ويخشع من خشية الله، فأنتم أحق أن تخشوا وتذلوا وتلين قلوبكم لذكر الله».

ومن أئمة السلف المشهورين بتأثرهم بكتاب الله عز وجل، استدلالاً به في مواعظهم ووصاياهم وإكثاراً من ذلك الإمام الجليل أبو حازم سلمة بن دينار المخزومي مولاهم، شيخ المدينة النبوية الزاهد الواعظ، روى عن سهل بن سعد وسعيد بن المسيب ومحمد بن المنكدر وأبي سلمة بن عبدالرحمن وعبيد الله بن مقسم وغيرهم، وحديثه مخرج في الكتب الستة، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم.

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

كثر المروي عنه في الوعظ والنصح، والتوجيه والإرشاد، ومعظمه قائم على تفسير آية أو استدلال بها لقوة استحضاره وحفظه، أو يدل على ما يذكره نصوصٌ كثيره من الكتاب والسنة، ومما روي عنه أن محمد بن المنكدر قال لأبي حازم: «يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط، فقال له أبو حازم: لا تظن أن ذلك من عملك، ولكن انظر الذي ذلك من قبله فاشكره، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾»(١).

وقال له سليمان بن عبدالملك: «يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، فقال: يا أبا حازم ليت شعري مالنا عند الله تعالى غداً؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله عز وجل، قال: وأين أجده من كتاب الله تعالى؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾(٢)، قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريب من المحسنين، قال سليمان: ليت شعري كيف العرض على الله غداً؟ قال أبو حازم: أما المحسن كالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء كالآبق يقدم به على مولاه، فبكى سليمان حتى علا نحيبه واشتد بكاؤه».

وقال رجل لأبي حازم: «ما شكر العينين؟ فقال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفنته، قال: ما شكر اليدين؟ قال: لا

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الانفطار، الآية: ١٣، ١٤.

تأخذ بهما ما ليس لك، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: وما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً، قال: وما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[١]، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت ميتاً غبطته استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتاً مقته كففتهما عن عمله، وأنت شاكر لله عز وجل».

وروي عنه أنه قال: «إذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره»، يشير إلى قوله تعالى: «﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ ﴾[٢]. روى الإمام أحمد في المسند عن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**»، ثم تلا الآية، وقال بعض السلف: «إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥ ﴾»[٣].

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى: «وقد رد سبحانه على من يظن هذا

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥-٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣-٣٥.

الظن بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾(١)، الآيات: أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء، وفي جامع الترمذي عنه ﷺ قال: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**»، وقال بعض السلف: «رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم»(٢).

ومما روي في هذا المعنى قول الإمام الحافظ سيد العلماء في زمانه أبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي في قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، قال: «نسبغ عليهم النعم ونمنعهم الشكر»، وتلك مصيبة عظمى وفادحة كبرى أن يظل العبد غارقاً في نعم الله متقلباً في خيراته متنعماً بأفضاله جل وعلا عليه، وهو مع هذا كله لا يشكرها ولا يثني على المنعم بها، بل قد يصرفها في مساخطه ويستعين بها على معاصيه ومجاوزة حدوده، نعوذ بالله من الخذلان.

وقد كان الإمام سفيان الثوري من أهل القرآن المتنعمين بتلاوته

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ١٥-٢١.

(٢) الجواب الكافي: ٥٠-٥١.

المتدبرين لآياته المنتفعين به، المتأثرين بمواعظه وزواجره، قال عبدالرحمن بن مهدي: «كنت لا أستطيع سماع قراءة سفيان من كثرة بكائه»، يقوم به ما تيسر له من الليل، مما أورث له رقة في القلب وخشية لله واستعداداً للقائه، يقول عبدالرحمن بن مهدي: «كنت أرمق سفيان في الليلة بعد الليلة، ينهض مرعوباً ينادي النار النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات».

كان – رحمه الله تعالى – يجل نعمة الله عليه أن علمه القرآن، وفقهه أحكامه ويقدرها حق قدرها، ولكم تمنى أنه لم يتجاوزه إلى غيره، قال – رحمه الله: «وددت أني قرأت القرآن، ووقفت عنده، لم أتجاوزه إلى غيره».

كان مع هذا مشغولاً بنفع الناس، بتعليمهم كتاب الله عز وجل وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – وبذله لهم فانتفع به خلق كثير، روي عنه أنه قال: «لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم»، ومما خص به أهل القرآن المعتنين به من الوصية قوله: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم لا تزيدوا التخشع على ما في القلب، فقد وضح الطريق، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين».

سفيان بن عيينة

إن من نعم الله على عبده أن يرزقه محبة كتابه، والإقبال على تلاوته وتعلم معانيه والعمل بأحكامه، وما ذاك إلا بتوفيق ومنة من الله أولاً وآخراً ثم ببذل الأسباب المعينة على ذلك، وإن الله بفضله وجوده ورحمته بعباده إذا علم من عبده توجهاً للخير ومحبة للعمل الصالح فإنه يوفقه ويعينه ويزيده هدى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ (١)، فهو جل وعلا يحب المتقين الطائعين ويفرح بتوبة المذنبين ويقيل عثرات العاصين ويغفر زلات المخطئين، فضلاً منه ولطفاً بعباده، وهو الغني عنهم، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.

فكل من وجد نعمة الله عليه أن وفقه لطاعة، وهداه لعمل صالحٍ فحببه إليه، عليه أن يحمد الله سبحانه للتوفيق ويسأله الزيادة منه والثبات عليه، ومن أفضل الطاعات وأجل القرب الإقبال على كتاب الله عز وجل تلاوة وحفظاً، تعلماً وتعليماً، معرفة وفقهاً بأحكامه ومسائله، ثم العمل به والتحاكم إليه.

والأمثلة على هذا في سير السلف الصالح كثيرة، منها ما جاء في سيرة الإمام التابعي الزاهد الحافظ أبي محمد سفيان بن عيينة الهلالي، رحل في طلب العلم كثيراً فلقي أئمة كثر فروى عنهم وأفاد منهم، من أشهرهم عمرو بن دينار وزياد بن علاقة وعاصم بن أبي النجود الإمام المقرئ أحد القراء السبعة وأبو إسحاق السبيعي ومحمد بن المنكدر وحميد الطويل وسليمان بن مهران الأعمش وغيرهم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

عظمت عنايته بكتاب الله عز وجل، فأحبه ولم يعتض بغيره عنه، مع حرصه على رواية الحديث، وهو ممن روى أثر عثمان بن عفان: «لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله عز وجل»، وقوله: «ما أحب أن يأتي علي يوم ولا ليلة إلا أن أنظر في كلام الله في المصحف»، وجمع إلى هذه المحبة الصادقة لكلام الله عز وجل العملَ به والاستغناء به عن غيره، روي أن الفضيل بن عياض وقف على رأس سفيان وحوله جماعة، فقال له: «يا أبا محمد: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[1]، فقال له سفيان: يا أبا علي والله لا يفرح أبداً حتى يأخذ دواء القرآن فيضعه على داء قلبه»، وبهذا كان يوصي أصحابه وطلابه، قال أحمد بن أبي الحواري: «سمعت سفيان بن عيينة يقول: والله لا تبلغوا ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله، فمن أحب القرآن فقد أحب الله، افقهوا ما يقال لكم».

ولكثرة نظره في القرآن واستحضاره وعلمه بمعانيه كان كثير الوقوف على هداياته ودلالاته، دقيق الاستنباط منه، حاضر الاستدلال به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال عبدالرحمن بن مهدي: «عند ابن عيينة من معرفته بالقرآن وتفسير الحديث ما لم يكن عند سفيان الثوري» مع جلالة قدره وعلو منزلته.

ومن ذلك قوله: «من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾»[(١)]، يعني: القرآن.

وقال - رحمه الله تعالى: «أكبر الكبائر الشرك بالله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[(٤)]. وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾»[(٥)].

وبين - رحمه الله تعالى - فضل العلم على العمل وتقدمه عليه في مواضع من القرآن لما سئل عن ذلك فقال: «ألم تسمع إلى قوله حين بدأ به فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[(٦)]، ثم أمره بالعمل فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[(٧)]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(٨)]، ثم في سورة التغابن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٦) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٧) سورة الحديد، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٨) سورة التغابن، الآية: ١٥.

﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [(١)]، وقال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [(٢)]، ثم أمر بالعمل به».

ومن دقيق استنباطه وحسن استدلاله قوله – رحمه الله تعالى: «ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، قال: وهي في كتاب الله، قالوا: وأين هي من كتاب الله؟ قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [(٣)]، قالوا: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة، قال: كلا، اتلوا ما بعدها:﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة»، وصدق – رحمه الله تعالى – فإن أصحاب البدع والأهواء تظهر عليهم علامات الذلة والصغار بين الناس وإن عظموا في أعين بعضهم، يقول الحسن البصري فيهم: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية في وجوههم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

وكان – رحمه الله تعالى – حريصاً على العمل بما علمه الله وأفاء عليه من علمي الكتاب والسنة، يجاهد نفسه في ذلك ويأطرها عليه مع العناية بإخلاص العمل لله عز وجل وعدم البحث عن الشهرة وطلب الرفعة بين

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٢.

الناس، يقول – رحمه الله تعالى: «اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة، ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله عز وجل»، وقال أيضاً: «إذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذي كتبت»، وكان يقول: «ليس العالم الذي يعرف الخير والشر، وإنما العالم الذي يعرف الخير فيتبعه، ويعرف الشر فيجتنبه».

واجتمع إليه أناس ذات مرة فقال لهم: «من أحوج الناس إلى هذا العلم؟ فسكتوا ثم قالوا: تكلم يا أبا محمد، فقال: أحوج الناس إلى العلم العلماء، وذلك أن الجهل بهم أقبح؛ لأنهم غايةُ الناس، وهم يُسألون»، كلُ ما سبق وغيره كثير مما يُروى في بيان مكانة العلماء والواجب المنوط بهم تجاه الناس، من حيث تعليمهم وإرشادهم وتوجيههم، والوصية لهم أن يعملوا بما علموه وأن يكونوا قدوة لغيرهم أكثر وأولى، والزلة أو الخطأ من أحدهم ليست خاصة بهم كما تكون من غيرهم من فئام الناس، فقد يفتتن بهم خلق كثير.

ثم إن للعالم وطلابه من العناية بكتاب الله عز وجل والتمسك بالسنة والتخلق بأخلاق القرآن وهدي المصطفى ﷺ ما يتميزون به عن غيرهم، ويكونون قدوة لهم، ولا أضر على العالم وطلابه من التنافس على الدنيا والتهالك على جمع الدينار والدرهم وطلب الشهرة والتمدح بين الناس، مع ما يصحب ذلك من تكبر وتعالٍ على الآخرين، فإن ذلك يمحق بركة العلم ويذهب بنوره ونفعه، فيكون وبالاً على صاحبه حين يسأل عنه، كما قال –

عليه الصلاة والسلام: «**لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه**» (رواه الترمذي)، وقال – عليه الصلاة والسلام – فيما صح عنه: «**والقرآن حجة لك أو عليك**» (رواه مسلم).

الحسن وعلي ابنا صالح الهمذاني

إن لصلاح الأبوين وعنايتهما بتنشئة الأبناء وتربيتهم التربية الإسلامية الحقة الأثر الفاعل والسبب النافع - بإذن الله عز وجل وتوفيقه - في استقامة الأبناء وهدايتهم وسلوكهم المسلك الصحيح الراشد، على ضوء الكتاب والسنة، وعلى وفق هدايتهما ودلالتهما، ولا غرو أن البيت المسلم المعمور بذكر الله المحفوظ من سائل الانحراف وسبل الشيطان، الذي تتلى فيه آيات الله وتُردد في جنباته أحاديث المصطفى - عليه الصلاة والسلام - ويتربى أهله على سنة النبي ﷺ في كل صغير وكبير، ويأخذون الدروس والعبر من سيرته، إذا كان البيت والحالة هذه نشأ أفراده صالحين مصلحين، مسارعين في مراضي الله عز وجل، مجانبين ما يغضبه سبحانه، قائمين بالحقوق، مؤدين ما أمروا به، يتحلون بكل خلق رفيع وسلوك قويم.

ومن أمثلة ذلك في سير سلفنا الصالح ما جاء في ترجمة الحسن وعلي ابني صالح بن حيان بن شفي الهمذاني الكوفي، عاشا في كنف أبوين صالحين، أما أبوهما فإمام من رواة الحديث فحدثنا عنه وعن سلمة بن كهيل وسماك بن حرب وإسماعيل السدي وأبي إسحاق السبيعي وغيرهم.

وكانت لهما عناية بالغة بكتاب الله عز وجل فتعلماه وأخذا قراءته عن الأئمة القراء في زمانهم، اغتناماً للفضيلة واحرازاً للخيرية التي ذكرها النبي ﷺ فيما صح عنه بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري) فقرآ

على الإمامين المقرئين عاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات، وهما من القراء السبعة.

وبعد وفاة أبيهما تولت أمهما رعايتهما وإعانتهما على طاعة الله عز وجل، والمداومة على قراءة الحزب المخصص من القرآن الكريم، يحيون به ليلهم وينعمون بتلاوته ويتلذذون بحلاوة المناجاة به مع طول الصلاة والقيام، ولنعم تلك الأم الصالحة المصلحة لأولادها، جاء في سيرتها أنهم تقاسموا مع أمهم الليل أثلاثاً يحيونه بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، فلما توفيت أمهما استمرا على هذا المنهج الصالح والمسلك الراشد، وقد سئل رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**أدومه وإن قل**» (رواه مسلم).

ولم تكن قراءتهما خالية من التدبر والتأمل مجردة من التأثر والتفكر، بل كانا على جانب عظيم من رقة القلب وسرعة دمع العين، والاستجابة التامة الحقة لله ولرسوله ﷺ يقول أبو سليمان الداراني: «ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه والخشوع من الحسن بن صالح، قام ليلة: بـ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ①﴾ فلم يختمها حتى طلع الفجر»، وقال حميد الرواسي: «كنت عند علي والحسن ابني صالح ورجل يقرأ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ فالتفت علي إلى الحسن وقد تغير لونه، فقال: يا حسن إنها أفزاع فوق أفزاع» وحرصاً على إخفاء البكاء وعدم إظهار التأثر أمام الحاضرين جمع الحسن ثوبه فعض عليه حتى سكن.

وقد كثر الثناء عليهما في زمانهما لمبلغهما من العلم وثقتهما في الرواية وظهور أثر القرآن والسنة عليهما قولاً وعملاً، قال محمد بن علي الوراق:

«سألت أحمد بن حنبل عن الحسن بن صالح كيف حديثه؟ فقال: ثقة، وأخوه ثقة»، وقال أيضاً: «الحسن بن صالح صحيح الرواية يتفقه، صائنٌ لنفسه في الحديث والورع»، وقال يحيى بن معين «هؤلاء ثقات».

ومما روي عنهما من الأقوال الدالة على وفور علمهما وتأثرهما بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ قول الحسن: «العمل بالحسنة قوة في البدن ونور في القلب وضوء في البصر، والعمل بالسيئة وهن في البدن وظلمة في القلب وعمى في البصر»، وهو مروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – بلفظ: «إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الناس، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهناً في البدن ونقصاناً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق».

وروي عن الحسن أنه قال: «الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود ووعيد»، وقال أيضاً: «إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير يريد به باباً من السوء».

الفضيل بن عياض وابنه علي

من صور عناية السلف بأبنائهم وتنشئتهم على حب القرآن الكريم والعناية به، تلاوة له وحفظاً وتعلماً وتعليماً، تأثراً وعملاً به ما كان للإمام التابعي الجليل الفضيل بن عياض مع ابنه علي، وما كان هذا إلا بمنة وهداية للفضيل، فجعله من عباده الصالحين وخيار المتقين، فأحب كتاب الله عز وجل وتأثر به، ثم انطلق يعلمه ويوجه على ضوئه وعلى نور هداياته الناس وبخاصة أقربهم إليه ابنه علي، أداء للأمانة وقياماً بالمسؤولية المناطة بكل أب وأم تجاه أبنائهم، كما قال – عليه الصلاة والسلام: فيما صح عنه: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه)، وأعظم الرعاية وأساسها تربية الأبناء على منهج الكتاب والسنة وحب الله ورسوله والاستجابة التامة والطواعية الكاملة لما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

وقبل الحديث عن تربية الفضيل بن عياض لابنه علي على حب القرآن والسنة والتأثر بهما، أبدأ الحديث عن الفضيل نفسه، فهو الفضيل بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، الإمام التابعي الجليل، اشتهر عنه أنه كان قاطعاً للطريق مخيفاً للسالكين، فمنَّ الله عليه بالهداية والاستقامة، وذلك أنه كان يقطع الطريق فعشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تالياً يتلو: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

﴿ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[1]. فلما سمعها قال: «بلى يا رب، قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة – أي مسافرون – فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقومٌ من المسلمين ههنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام».

وكان – رحمه الله تعالى – بعد ذلك سريع التأثر بآي القرآن، رقة في القلب ودمعاً للعين مع ما يظهر عليه من آثار الخوف من الله عز وجل وتعظيمه وخشيته، يقول إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحداً كان تعظيم الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره، كنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي كأنه مودع أصحابه ذاهب إلى الآخرة».

وينعت إسحاق بن إبراهيم الطبري قراءته للقرآن فيقول: «كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة، وكان إذا مر بآيات فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل».

وقال يحيى بن أيوب «دخلت مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض فإذا معه شيخ، فدخل زافر وأقعدني على الباب، قال زافر: فجعل

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

الفضيل ينظر إلي، ثم قال: هؤلاء المحدثون يعجبهم قرب الإسناد، ألا أخبرك بإسناد لا شك فيه، رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾(١)، فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس، فجعلا يبكيان».

وكان – رحمه الله تعالى – يقوم ما كتب له من الليل، يردد الآية باكياً خاشعاً، قد رق قلبه وذل بها لسانه، يحاسب نفسه ويقررها، يجاهدها ويلومها على التقصير في جنب الله.

قال إبراهيم الأشعث: «سمعت فضيلاً ذات ليلة وهو يقرأ سورة محمد يبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾(٢)، وجعل يردد: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾، ثم قال: إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إنك بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا ويبكي».

وقد روي عن بعض السلف قوله: «إن الشيطان حريصٌ على أن يظفر من ابن آدم بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر، إما أن يوقعه في المعصية والخطيئة، وإما أن يجعله يعجب بعمله الصالح»، والثاني أشد خطراً على العلماء والقراء ومن وفقهم الله لعمل صالح وأعانهم على بر وطاعة، فإنه لا يزال الشيطان بأحدهم يريه أنه أفضل من غيره لما هداه الله له وأنعم به عليه أولاً وآخراً، فيرى أن ذلك من قبله ويدلي على الله بعمله، ويحتقر غيره وينتقص

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣١.

من شأنه أن لم يحصل على كذا أو لم يوفق لما وفقه له وتهيأت له أسبابه، ولذلك كان الفضيل بن عياض يحذر من هذا أشد التحذير ويمحض النصيحة والقول فيه، روي عنه أنه قال: «آفة القراء العجب».

وقد كان للفضيل بن عياض منزلة رفيعة ومرتبة عالية في أهل زمانه ومن بعدهم فكثر ثناء الأئمة عليه، قال ابن سعد: «كان ثقة نبيلاً، فاضلاً عابداً ورعاً، كثير الحديث»، وقال العجلي: «كوفي ثقة متعبد، رجل صالح سكن مكة»، وقال ابن المبارك: «إن الفضيل بن عياض صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه، فالفضيل ممن نفعه علمه».

وقد روي عن الفضيل أقوال مشهورة تنم عن علمه بالكتاب والسنة ووقوفه على هدايتهما، من ذلك قوله: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»، وقال أيضاً: «أكذب الناس العائد في ذنبه، وأجهل الناس المدل بحسناته، وأعلم الناس بالله أخوفهم منه، لن يكمل عبدٌ حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه»، واشتهر عنه قوله: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك»، فمن عقوبة المعاصي حرمان الطاعات وتثقيل العبادات، حتى يملها العبد ويتركها بالكلية، وأيضاً لا هو ترك ما نهى الله عنه وابتعد عما حذر منه، ولا هو أدى ما أوجب الله وافترض عليه أداءه، وروي عنه قوله: «رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة، من عمل بما علم

استغنى عما لا يعلم، ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته»، واشتهر عنه قوله: «لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في الإمام، فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد».

وقد كان للفضيل بن عياض عناية بتربية ابنه على حب كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ والتأثر بهما قولاً وعملاً، حالاً وخلقاً، يسأل ربه الهداية له، مع بذله الأسباب وحفظه من وسائل الانحراف، كان يدعو ربه فيقول: «اللهم إني اجتهدت أن أؤدب علياً فلم أقدر على تأديبه، فأدبه لي»، والنبي ﷺ يقول: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن»، وذكر منها: «ودعوة الوالد لولده» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

وقد كان ما تمناه أبوه له، من الخشية والخشوع، والتأثر والتعظيم لكلام الله عز وجل، كان أبوه إذا رآه منكسر القلب حزيناً بكى ثم قال: «كان يساعدني على الحزن والبكاء، يا ثمرة قلبي، شكر الله لك ما قد علمه فيك»، وكان يتابعه ويرعاه بكل توجيه وإرشاد، قال الفضيل مرة: «لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال، فقال ابنه علي: يا أبتي إن الحلال عزيز، فقال: يا بني إن قليله عند الله كثير».

وكان علي بن الفضيل يغلبه البكاء ويظهر عليه التأثر حين يسمع آيات الله تتلى عليه لرقة قلبه وعظيم خشيته لربه، يقول أبو بكر بن عياش: «صليت خلف الفضيل بن عياض المغرب وابنه علي إلى جانبي فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، فلما بلغ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ أجهش بالبكاء: وقرأ أبوه

مرة: ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ ﴾ في الفجر فلما بلغ قوله: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ﴾ ، غلبه البكاء».

وقد كثر ثناء الأئمة عليه لعلمه وجلالة قدره، قال النسائي: «ثقة مأمون» وقال الذهبي: «كان علي قانتاً لله خاشعاً، ورجلاً ربانياً كبير الشأن».

عبدالله بن المبارك

إن القراءة والاستماع لسير سلفنا الصالح من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - والتابعين لهم بإحسان رحمهم الله تعالى، وقبل ذلك سيرة إمام المتقين وسيد الأولين والآخرين - عليه الصلاة والسلام - في قراءة سيرهم والاطلاع عليها عون على طاعة الله عز وجل وارتباط بكتابه سبحانه وشحذ للهمم وتحريك للنفوس كي تسابق إلى الصالحات وتسارع في ميادين البر والإحسان، يقول أبو حنيفة - رحمه الله تعالى: «سير الرجال أحب إلينا من كثير من أبواب الفقه».

وما كان لهؤلاء الأبرار الأخيار هذا التوفيق لطاعة الله والعناية بكتابه جل وعلا إلا بمنة وهداية من الله أولاً وآخراً ثم بمجاهدة أنفسهم وأطرها على الطاعة والبعد بها عما يغضب الله، والبحث عن أسباب سعادتها ولزومها، والحذر من أسباب هلاكها وشقائها.

ومن أولئك الأئمة الأعلام أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك المروزي، الذي ضرب في كل خير بسهم، أكثر من الترحال والتطواف في طلب العلم وعمره عشرون سنة، فروى عن الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم، وبرز في علم الحديث وحفظ السنة ومعرفة رجالها حتى عرف بأمير المؤمنين في الحديث، وثناء الأئمة الحفاظ عليه كثير، قال الإمام أحمد: «لم يكن أحدٌ في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه»، وقال عنه إسماعيل بن عياش: «ما أعلم خصلة من خصال الخير إلا وقد

جعلها الله في عبدالله بن المبارك»، وقال الحسن بن عيسى: «اجتمع جماعة فقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والفصاحة والشعر وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والشجاعة والفروسية والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه».

كان – رحمه الله تعالى – رقيق القلب عظيم الخشية لله عز وجل كثير البكاء، وهذه سيما الصالحين من عباد الله، يقول نعيم بن حماد: «كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق يصير كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة من البكاء، لا يجترئ أحد منا أن يسأله عن شيء»، وكان له – رحمه الله تعالى – حزب من القرآن يتلوه ولا يخل به، مع التأثر بآي القرآن وطول التأمل والنظر فيها، وبخاصة آخر الليل الذي قال فيه نبينا ﷺ فيما صح عنه: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، وذلك كل ليلة فيقول: هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه**»، فكان – رحمه الله تعالى – حيناً يقوم آخر الليل بقوله تعالى: ﴿**أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢**﴾، يرددها ويبكي حتى الفجر.

وكان ينكر على من يقرأ بالألحان المبتدعة والأصوات المطربة المتكلفة، فليس هذا من السنة في شيء، بل هو مبتدع محدث، أنكره أهل العلم على من فعله، قال له أبو داود الطرسوسي: «إنا نقرأ بهذه الألحان، فقال ابن المبارك: إنا أدركنا القراء وهم يؤتون تسمع قراءتهم، وأنتم تدعون اليوم كما يدعى المغنون».

ومما اشتهر به الإمام عبدالله بن المبارك – رحمه الله تعالى – الإنفاق والبذل والعطاء بسخاء وطيب نفس، كان يسدد ديون تلاميذه ويقضي حاجاتهم وينفق عليهم من أجل أن يتفرغوا للعلم، لينفعوا الأمة بعد ذلك بما تعلموه، مع الإخلاص في هذا وإخفائه عن الناس، ولما قيل له في ذلك، قال: «إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه، لحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم».

ومما اشتهر عنه في هذا الباب إنفاقه وبذله على من يرافقه إلى الحج، لا يطلب منهم بعد ذلك عوضاً أو مكافأة، بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾[1]، وأجر النفقة في هذه العبادة العظيمة وهذا النسك الفاضل وتلك المشاعر المقدسة أفضل وأعظم أجراً قال علي بن الحسن: «كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم – أي يستأجر – ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طرفها؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجهم، قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٩، ١٠.

من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو .. فإذا كان بعد ثلاثة أيام عمل لهم وليمةً وكساهم، فإذا أكلوا وسروا دعا بالصندوق ففتحه، ودفع إلى كل رجل منهم صرته عليها اسمه».

هكذا خلق أهل القرآن المتحلين بنعوت حملته والمعتنين به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾[1]، ولنعم المال الصالح عند الرجل الصالح، وهذا هو الذي يغبط على فعله، لا من يجمع الدينار والدرهم ويتهالك في إحصاء ماله ثم يبخل به في وجوه الخير ومجالات الإنفاق المتعددة، يقول تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾[2]. قال الفضيل بن عياض لابن المبارك: «أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟ قال: يا أبا علي إنما أفعل ذا الأصون وجهي وأكرم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، فقال: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا».

ومما اشتهر عن ابن المبارك أيضاً شجاعته وفروسيته، وخروجه للجهاد في سبيل الله عز وجل والمرابطة في الثغور، لعله أن ينال الشهادة في سبيل الله أو يرجع بالنصر على الأعداء ويكون سبباً في نشر الدين ورد عدوان المعتدين، يقول عبدة بن سليمان المروزي: «كنا سريةً مع ابن المبارك في بلاد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.

الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرت فإذا هو عبدالله بن المبارك، وإذا هو يكتم وجهه بكمه» لئلا يعرف، حرصاً منه على إخفاء عمله وعدم إظهاره للناس.

وقد اشتهرت قصيدته التي بعث بها للفضيل بن عياض وكان مجاوراً بالحرم، ومنها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

إلى آخرها، فلما بلغت الفضيل بكى ثم قال: «صدق أبو عبدالرحمن ونصح»، هذا ما تيسر من ذكر سيرة هذا الإمام التابعي عبدالله بن المبارك الذي جمع خصالاً كثيرة من البر والخير.

خلف بن هشام

من الأئمة القراء الذين بذلوا جهودهم وأنفقوا أموالهم ورحلوا من أجل تعلم القرآن الكريم ومعرفة أحكامه وفهم معانيه الإمام خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي، أحد المقرئين الأعلام، ومن الأئمة الحفاظ لسنة رسول الله ﷺ، فقد روى له مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه وأحمد بن حنبل في مسنده، أخذ قراءة القرآن وجودها على سليم بن عيسى وأبي يوسف الأعشى ويحيى بن آدم وإسحاق المسيبي وغيرهم، وروى السنة عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة وعن حماد بن زيد وأبي عوانة وشريك القاضي وغيرهم.

ثم تصدر - رحمه الله تعالى - لإقراء القرآن وتعليمه الناس مغتنماً الخيرية التي أخبر عنها ﷺ فيما صح عنه بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، كما جلس أيضاً لرواية السنة والتحديث بها، مغتنماً الفضل الثابت في قوله ﷺ: «نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[1].

فأخذ عنه خلق لا يحصون، كما ذكر ذلك من ترجم له، وممن أخذ عنه أحمد بن يزيد الحلواني وسلمة بن عاصم وأحمد بن أبي خيثمة ومحمد بن يحيى الكسائي وغيرهم، وهذا من توفيق الله لعبده أن يجعله مباركاً نافعاً للخلق، وأعظم ما ينتفع به الخلق تعلم تلاوة القرآن الكريم وإتقانها، والعلم بأحكامه وفهم معانيه، وكان منهجه في تعليم القرآن وإقرائه، يدل على إكرامه حملة

(١) رواه الترمذي من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - وقال: حديث حسن صحيح.

القرآن المعتنين به المقبلين على تعلمه وقراءته، يقول الحسن بن فهم: «ما رأيت أنبل من خلف بن هشام كان يبدأ بأهل القرآن ثم يأذن لأصحاب الحديث، وكان يقرأ علينا من حديث أبي عوانه خمسين حديثاً، وكان لا يرى استصغار حامل القرآن».

وفي هذا الخبر ما يدل على عنايته أيضاً بتعليم السنة وروايتها إلى جانب تعليم القرآن الكريم، ومتى وفق العبد للإقبال على الوحيين الكتاب والسنة قراءة وحفظاً، علماً بأحكامهما وفقهاً لمسائلهما فهو على خير عظيم ونهج مستقيم.

وقد كثر ثناء الأئمة عليه، قال الدار قطني: «كان عابداً فاضلاً»، وقال فيه يحيى بن معين والنسائي وغيرهما ثقة – رحمه الله رحمة واسعة.

أبو عمر الدوري

من الأئمة الذين بذلوا جهودهم وأنفقوا أموالهم من أجل تعلم القرآن الكريم والعلم بأحكامه وإتقان ذلك كله شيخ المقرئين في زمانه الإمام أبو عمر حفص بن عمر بن عبدالعزيز الأزدي مولاهم الدوري، نسبة إلى دور محلة بالجانب الشرقي من بغداد، اغتنم أوائل عمره في تعلم القرآن الكريم وإتقان تلاوته وتجويده، حتى صار عالم وقته وشيخ أهل زمانه في القراءة والتلاوة، حيث تلا على إسماعيل بن جعفر والكسائي ويحيى اليزيدي عن أبي عمرو وعلى سليم بن عيسى عن حمزة وغيرهم.

يقال إنه أول من جمع القراءات وصنفها، ثم جلس للإقراء وتعليم الناس كتاب الله عز وجل، فممن قرأ عليه أبو الزعراء عبدالرحمن بن عبدوس وأحمد بن فرح المفسر وعمر بن محمد الكاغدي.

قال - رحمه الله تعالى - عن نفسه: «قرأت على إسماعيل بن جعفر بقراءة أهل المدينة ختمة، وأدركت حياة نافع، ولو كان عندي عشرة دراهم لرحلت إليه»، وهذا يبين لنا ما كانوا عليه - رحمهم الله تعالى - من حرصٍ على طلب العلم وتعلم القراءة لكن قد يعيقهم عن تمام ذلك وتحصيل ما عند الشيوخ فقرهم وقلة ذات يدهم حيث كان يتمنى - رحمه الله تعالى - أن لو كان عنده عشرة دراهم ليرحل إلى نافع فيقرأ عليه.

فكيف حال بعض شبابنا الذين يتقاعسون في طلب العلم ويتكاسلون في حفظ القرآن الكريم وإتقان تلاوته على أيدي المشايخ الذين عمت حلقاتهم

المباركة جميع أنحاء البلاد، يجلسون لتعليم الناس أوقاتاً كثيرة ليجد الحريص على تعلم القرآن الكريم وحفظه ما يناسبه من الأوقات فيستغله ويستثمره فيما يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة، والمحروم من حرم خير الله وفضله، ومن ذلك تعلم تلاوة القرآن الكريم وإتقانها مع حفظه ومعاهدته، وقد نبه الأئمة الحفاظ أن القرآن عزيز لا يتأتى بالقراءة مباشرة من المصاحف بل لا بد من تلقي ذلك من أفواه الشيوخ ومدارسته على أيديهم، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**» (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)، وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» (رواه البخاري ومسلم).

وقد كثر الثناء على أبي عمر حفص بن عمر الدوري لعنايته بكتاب الله عز وجل، قال أبو علي الأهوازي: «رحل أبو عمر في طلب القراءات، وقرأ سائر حروف السبعة وبالشواذ، وسمع من ذلك الكثير، وصنف في القراءات وهو ثقة، وعاش دهراً، وفي آخر عمره ذهب بصره وكان ذا دين».

كما كانت له – رحمه الله تعالى – عناية بسنة النبي ﷺ رواية ودراية، فقد حدث عن إبراهيم بن سليمان المؤدب وإسماعيل بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهم، وروى عنه ابن ماجه وانفرد بذلك عنه دون أصحاب الكتب الستة، كما روى عنه حاجب بن أركين وأبو زرعة الرازي وغيرهم، ومع ذلك فلم يكن بدرجة الإتقان والضبط كحاله في القراءات، فقد ضعفه بعضهم

كالدارقطني، وهذا لا ينزل من قدره ولا يحط من مكانته، يقول الإمام الذهبي: «وقول الدار قطني: ضعيف، يريد في ضبط الآثار، أما في القراءات فثبت إمام، وكذلك جماعة من القراء أثبات في القراءة دون الحديث كنافع والكسائي وحفص، فإنهم نهضوا بأعباء الحروف وحرروها، ولم يصنعوا ذلك في الحديث، كما أن طائفة من الحفاظ أتقنوا الحديث ولم يحكموا القراءة، وكذا شأن كل من برز في فن ولم يعتن بما عداه»(١).

وقد كان لطول عمره - رحمه الله تعالى - بركة على أهل زمانه حيث قُصِد من الآفاق وازدحم عليه الطلاب لعلو سنده وسعة علمه، وخير الناس أنفعهم للناس، ومن أعظم النفع المبارك تعليم القرآن الكريم وبيان أحكامه ومعانيه، ولم يزل هذا دأبه حتى توفي سنة أربعين ومائتين - رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٣.

داود الطائي

من أئمة السلف الأعلام أبو سليمان داود بن سليمان الطائي الكوفي الإمام الفقيه القدوة الزاهد، تتلمذ على يدي الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت – رحمه الله تعالى – فبرع في العلم وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، وله رواية في كتب السنة، وحديثه مخرجٌ في سنن النسائي، روى عن عبدالملك بن عمير وحميد الطويل وهشام بن عروة وسليمان بن مهران الأعمش وغيرهم، وحدث عنه ابن عليه وأبو نعيم وزافر بن سليمان وغيرهم.

وكان لهذا العلم الذي تعلمه وبذل من أجله جهده آثاره عليه، حيث خشية الله سبحانه والخوف منه، وطول العبادة والزهد في الدنيا، ورقة القلب وسرعة دمع العين، وبهذا كان ثناء العلماء عليه، يقول سفيان بن عيينة: «كان داود ممن علم وفقه ثم أقبل على العبادة».

ومما تميز به السلف الصالح وسبقوا به من بعدهم إحياؤهم ما كتب لهم من الليل بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن ومناجاة الله عز وجل اغتناماً لهذا الهزيع الأخير من الليل الذي ينزل فيه جل وعلا إلى سماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه فيقول: «هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأعطيه»، ومن ذلك ما جاء في سيرة داود الطائي – رحمه الله تعالى، ذكرت ذلك إحدى نساء جيرانه بقولها: «كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ ولربما ترنم في السحر بشيءٍ من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جُمع في ترنمه تلك

الساعة»، ولا غرو أن القراءة آخر الليل مع الترتيل والتدبر والتأمل لها شأن عظيم في التأثر بآي الذكر الحكيم والاسترواح إليها وعدم الملل منها، في هدأة الناس وسكون الأصوات، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾[1]، قال بعض السلف: «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل الطرب في طربهم» ولذا كان بعض السلف يرتقبون الليل وينتظرون قدومه لما يعمرونه به من الصلاة والابتهال والدعاء، وما يجدونه من آثار جلية في صلاح قلوبهم والإقبال بها على الله عز وجل، وترويض نفوسهم وأطرها على طاعة الله تعالى، يقول معاذ بن جبل – رضي الله عنه – لما حضرته الوفاة: «اللهم إني لم أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لجري الأنهار، إنما أحببت الدنيا لصيام الهواجر – أي الأيام الحارة – وقيام الليالي المظلمة ومزاحمة العلماء بالركب، ومجالسة أناس ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر».

ومع مبلغ الإمام الجليل داود الطائي – رحمه الله تعالى – هذا المبلغ العظيم والسبق البعيد في طاعة الله تعالى ودوام عبادته، فقد كان مزرياً على نفسه غير معجب بعمله ولا مدلٍ به على ربه، فقد علم أن مما يمحق العمل ويبطله الإعجاب به والتمنن به على ربه، كان يقول: «سبقني العابدون وقُطع بي»، وقال له مرة رجل من أهله: «يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني، قال: فدمعت عيناه، ثم قال لي: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل، تنزل بالناس مرحلة مرحلة حتى تنتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلة زاداً لما بين يديك فافعل، فإن انقطاع

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٦.

السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك، إني لأقول هذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك، ثم قام».

وكان لأقواله ووصاياه من القبول الشيء العظيم، بعد أن وضع له القبول والمحبة في قلوب أهل زمانه ومن بعدهم، فأقبلوا عليه يسألونه ويطلبون منه الوصية، وكان يمحضهم ذلك، قال له رجل: «يا أبا سليمان ما ترى في الرمي فإني أحب أن أتعلمه؟ فقال: إن الرمي لحسن، ولكن هي أيامك، فانظر بم تقطعها»، وقال له رجل: «أوصني، فقال: أقلل معرفة الناس، قلت: زدني، قال: ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين، قلت: زدني، قال: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطره على الموت»، وكان – رحمه الله تعالى يقول: «كفى باليقين زهداً، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلاً»، وصدق – رحمه الله – فإن من وثق بما عند الله وصدق بموعوده وآمن بأن الأمر كله له، بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، من آمن بهذا كله كفي الهم والغم، وانقطاع القلب حسرات على الدنيا، والتعلق بأهلها الضعفاء الذين لا حول لهم ولا طول إلا ما أجراه على أيديهم وجعلهم أسباباً في تحقيقه.

صالح المري

ممن اشتهر من السلف برقة القلب وكثرة البكاء عند تلاوة القرآن أو سماعه الإمام التابعي أبو بشر صالحٌ المري، يقول ابن الأعرابي: «كان الغالب على صالح كثرة الذكر والقراءة بالتحزين»، وقال بعضهم: «كان من أحزن أهل البصرة صوتاً»، وقراءة القرآن بحزن معينة على التدبر والتأمل، والنظر والتفكر، مما تورث صاحبها المداومة على التلاوة والتأثر بما يقرأ قولاً وعملاً.

ولن يجد العبد هذا الأمر في نفسه حتى يروضها على طاعة الله ويحبب إليها العبادات ويقيمها على الخوف من الله عز وجل وخشيته والرجاء فيما عنده، قال لرجل «أقرأ – يعني من القرآن – فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[1]، فقطع عليه صالحٌ القراءة وقال: وكيف يكون للظالمين حميمٌ أو شفيع والطالبُ له رب العالمين».

إن القرآن الكريم شفاءٌ لكل داء، متى كان الإيمان بذلك وصدق اللجأ إلى الله وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2]، يقول صالح المري: «أصاب أهلي ريح الفالج فقرأت عليها القرآن ففاقت، فحدثت به غالباً القطان، فقال:

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

وما تعجب من ذلك؟ والله لو أنك حدثتني أن ميتاً قرئ عليه القرآن فحيي ما كان ذلك عندي عجباً».

ومما رواه عن الحسن البصري أنه قال: «تفقدوا الحلاوة في ثلاث، في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلم أن بابك مغلق».

بشر بن الحارث الحافي

إن مسؤولية حملة القرآن الكريم والمعتنين به أكثر من غيرهم والمحاسبة لهم أو عليهم أشد من غيرهم، كما قال – عليه الصلاة والسلام: «**والقرآن حجة لك أو عليك**» (رواه مسلم)، وقد ثبت في الحديث أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، أحدهم قارئ القرآن الذي قرأه ليصرف به وجوه الناس إليه وليمتدح به عندهم ويشتهر بسببه، ليقال قارئ (رواه مسلم)، فهم معنيون بالإخلاص مع العمل بما تعلموه، وقوفاً عند حدوده وائتماراً بأمره وبعداً عن زواجره، إيماناً بمتشابهه وعملاً بمحكمه، يقول أبو الدرداء – رضي الله عنه: «إن أخشى ما أخشاه يوم القيامة أن يقال لي علمت أم جهلت، فأقول: بل علمت، فلا تزال كل آية آخذةً بفريضتها، الآمرة هل ائتمرت، والناهية هل انتهيت».

إن حملة القرآن هم أهل الله وخاصته، فكان الواجب عليهم أكثر من غيرهم، من حيث العمل به والتخلق بأخلاقه والتمسك بهديه واتباع السنة واقتفاء الأثر، روى القرطي عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام الله»، وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – مخاطباً حملة القرآن وأهله: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على الناس»، وعن الفضيل بن عياض – رحمه الله تعالى – قال:

«حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيماً لحق القرآن».

وحملة القرآن هم القدوة لغيرهم من عموم الناس، لما ضموه في صدورهم من حفظ القرآن فعلا قدرهم وارتفع شأنهم، روي عن ميمون بن مهران أنه كان يقول: «لو صلح أهل القرآن صلح الناس»، وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله - أي بقيامه الليل - إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون - يعني بصيامه - وبورعه إذا الناس يخلطون، وبتواضعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون».

ويذكر أبو سعيد الخدري أقسام القراء فيما رواه الإمام أحمد والحاكم عنه أنه قال: «يكون خلف بعد سنين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يقلون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة، مؤمن ومنافق وفاجر، قيل: ما هؤلاء الثلاثة؟ فقال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به والمؤمن يعمل به».

لقد كان تحذير السلف عظيماً من مخالفة السنة وتنكب الصراط المستقيم، والتعلق بالدنيا وتقديمها على الآخرة، ومخالفة القول العمل، وبخاصة إذا كان هذا من حملة القرآن المعتنين به، تلاوة وحفظاً تعلماً وتعليماً، ومن ذلك ما جاء في ترجمة الإمام العالم أبي نصر بشر بن الحارث بن عبدالرحمن المروزي البغدادي الحافي، اشتهر - رحمه الله تعالى - بالزهد والعبادة مع العلم

بالكتاب والسنة، حيث ارتحل في طلب العلم فأخذ عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وشريك وحماد بن زيد وعبدالله بن المبارك والفضيل بن عياض وغيرهم.

عمل - رحمه الله تعالى - على ترويض نفسه ومجاهدتها وأطرها على طاعة الله فاستقامت له فكان رأساً في الورع وطول العبادة، وما كان له ذلك إلا بتوفيق من الله وهداية ثم بمجاهدة النفس ومعاشرة أهل التقى والصلاح ومصاحبة الأخيار من عباد الله الذين إذا رؤوا ذكروا صاحبهم بالله، يذكرونه إذا نسي ويعلمونه إذا جهل وينبهونه إذا غفل، لا مداهنة ولا مراء بينهم، لا يتزين أحدهم لصاحبه ولا يزين له خطأه، بل أخوتهم قائمة على التناصح والتواصي على الخير والتعاون على البر والتقوى، وأساس ذلك الاجتماع على الكتاب والسنة والعناية بهما حفظاً ومدارسة، فقهاً وتعلماً لأحكامهما، وهذه وصية السلف فيما بينهم ينقل ذلك بشر الحافي عن شيوخه حتى بلغ إبراهيم النخعي حيث يقول: «عليك بمجالسة القراء والتفقه في الدين»، وهذا هدي الصحابة من قبل، يقول ابن عباس - رضي الله عنهما: «كان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً».

وروى بشر أيضاً عن سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - أنه قال: «لقد أدركنا أقواماً هم اليوم أبقى لمروءاتهم من قراء هذا الزمان»، ومن أقواله - رحمه الله تعالى - الدالة على عظيم فقهه ودقة استنباطه وعلمه بالكتاب والسنة قوله: «لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه»، وفي حبه للصحابة - رضي الله تعالى عنهم - وتقربه إلى الله عز وجل بذلك يقول: «ما أنا بشيء

من عملي أوثق به مني بجي أصحاب محمدٍ ﷺ»، فحبهم إيمان وبغضهم نفاق، وفي رواية عنه قال: «أوثق عملي في نفسي حبُ أصحاب محمد ﷺ»، ويحذر – رحمه الله تعالى – من حب التمدح بين الناس وسماعه منهم؛ لأن ذلك من علامات العجب بالعمل والفخر بالنفس فيقول: «سكون النفس إلى المدح وقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي»، فالمعجب بعمله مدلٌ على الله به ممتن به عليه وذلك محبط له، ولذلك كان يقول: «اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك».

ومما روي عنه أيضاً قوله: **«عز المؤمن استغناؤه عن الناس وشرفه قيامه بالليل»، وهو بهذا يشير إلى الحديث العظيم الذي رواه البيهقي وغيره بسند حسن عن سهل بن سعد – رضي الله عنه – قال: جاء جبريل – عليه السلام – إلى نبينا وقدوتنا ﷺ فقال له: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، وأعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس»**.

قد يرد في تراجم بعض السلف تركهم الزواج انشغالاً بالعبادة عنه وطلباً للتفرغ في الطاعات والقربات، وهم لا يُتابعَون في ذلك، فسنة النبي ﷺ المقدمة وهو الأسوة والقدوة، ومن ذلك ما جاء في سيرة بشر الحافي فإنه ممن ترك الزواج، يقول الإمام أحمد: «لو كان بشرٌ تزوج لتم أمره»، وقد ثبت في الصحيحين: «أن النبي ﷺ لما أخبر أن نفراً من أصحابه جاؤوا إلى بيوت أزواجه يسألون عن عبادته ﷺ في السر فلما أخبروا عنها تقالوها، فقال

أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم الله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

مالك بن أنس

من أئمة السلف في العلم والعبادة، في العناية بالقرآن والسنة، إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني.

قال عنه الذهبي: «طلب مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حي شاب طري، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات» (١) ، وقد ذكر خلقاً كثيراً من شيوخه وتلاميذه.

وقد ذكر أهل العلم أنه ممن عني بالحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة**»، ورجاله ثقات، قال الذهبي: «كان عالم المدينة في زمانه بعد رسول الله ﷺ وصاحبيه زيد بن ثابت وعائشة، ثم ابن عمر ثم سعيد بن المسيب ثم الزهري، ثم عبيدالله بن عمر ثم مالك، وعن ابن عيينة قال: مالك عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه، وقال الشافعي – وصدق وبر – إذا ذكر العلماء فمالك النجم»(٢).

كان الإمام مالك إماماً في الفقه، والجلالة والحفظ، وتعظيم السنة، انتفع

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٥٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٥٧.

به من جالسه وأخذ عنه وتتلمذ على يديه، ومن أشهرهم الشافعي، كان يعظم حديث رسول الله ﷺ، فلا يحدث به إلا على وضوء مع الخشية والهيبة عند بداية الدرس، وكان مجلسه مجلس وقار وعلم، كان رجلاً مهيباً نبيلاً، ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع الصوت، كان يتحرج عن الفتوى إلا فيما يعلم، جاءه رجل من المغرب فقال بعثني قومي أسألك عن أربعين مسألة، فأجابه عما يعلم في أربع منها وترك الباقي، فقال له فيها: فقال أخبر الناس أنك سألتني ولم أجبك في ست وثلاثين مسألة.

كان – رحمه الله تعالى – على عقيدة أهل السنة، يعلمها ويبينها وينكر على من يخالفها أو يجادل ويخاصم فيها أو يكثر السؤال عما نهي عنه، جاءه رجل فقال: يا مالك، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾، كيف استوى؟ فعلته الرحضاء ثم قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، ثم قال: وما أراك إلا صاحب بدعة، ثم أمر به أن يخرج فأخرج وكان رحمه الله يقول: «جُنة العالم لا أدري، فإذا أغفلها أصيبت مقاتله»، وروى هذا عن عبدالله بن يزيد بن هرمز أنه قال: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول: لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً يفزعون إليه».

كان رحمه الله تعالى يحذر من التعصب المذهبي، والتقليد المخالف للدليل قال رحمه الله تعالى: «كلٌ يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبرﷺ»، مع ثناء العلماء عليه بسعة العلم وقوة الدليل، قال الأوزاعي عنه: «عالم العلماء ومفتي الحرمين»، وعن بقية قال: «ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية منك يا مالك».

وإلى جانب حفظه للسنة وروايتها فقد كانت له أيضاً عناية بالقرآن حفظاً وتلاوة وإتقاناً وضبطاً، فقد أخذ القراءة عن نافع، قال بهلول بن راشد: «ما رأيت أنزع بآية من مالك، مع معرفته بالصحيح والسقيم».

والمروي عنه من الأقوال كثير في التمسك بعقيدة أهل السنة والحث على العناية بالقرآن والسنة وتعظيمهما وتوجيه طلابه ومن بعدهم، من ذلك قوله: «حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسنٌ لمن رزق خيره، وهو قسم من الله تعالى»، وقال أيضاً: «كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه»، وقال: «ليس هذا الجدل من الدين بشيء».

وآخر ما نطق من الدنيا بالقرآن، قال إسماعيل بن أبي أويس: «مرض مالك فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت، فقالوا: تشهد ثم قال: «لله الأمر من قبل ومن بعد»، وذلك سنة ١٧٩هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

الإمام الشافعي

إن مما تميز به سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – اتخاذهم منهجاً حقاً مع القرآن الكريم، حيث العناية به أولاً في حياتهم، إذ لا يطلب العلم حتى يحفظ القرآن، فإذا حفظه وأتقنه سعى بعد ذلك في فهم معانيه والعلم بأحكامه، ثم انطلق في العلوم الأخرى النافعة ينهل منها ويفيد الأمة من علومها، مع الالتزام التام بالقواعد الشرعية المستفادة من نصوص الوحيين الكتاب والسنة.

ومن أمثلة ذلك ما كان في سيرة الإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي القرشي، أحد أئمة المذاهب الأربعة، نشأ يتيماً في حجر أمه، فصرفت جهدها إلى تربيته والعناية به، فتحولت به إلى مكة، بلد العلم والعلماء، وقد اشتغل أول وقته بالرمي ففاق فيه أقرانه، ثم أقبل على العربية، والشعر واللغة فبرع فيه، ثم حبب إليه طلب العلم الشرعي فأقبل عليه، فكانت له الإمامة في عصره وما بعده.

قال رحمه الله تعالى: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ – لمالك – وأنا ابن عشر سنين»، وهكذا فإن الصغار إذا أُحسن توجيههم واعتني بتربيتهم ووجهوا إلى الحفظ أتقنوا وضبطوا، فهم مهيؤون لهذا الأمر أكثر من غيرهم، ويرى منهم التسابق في تعلمه وحفظه بلا كلل ولا ملل، متى غرس في قلوبهم حب القرآن وذكروا بفضله وكرامة أهله وعلو قدر حفظته العاملين به المتحلين بآدابه وأخلاقه، ولن يصلح أمر شباب هذه

الأمة إلا بما صلح به أولها، وأعظم سبب في إصلاح الشباب الإقبال بهم على القرآن الكريم حفظاً وتلاوة، فهماً لآياته ووقوفاً على هداياته ودلالاته، عملاً بأحكامه ووقوفاً عند حدوده.

ثم إن الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – أقبل بعد ذلك على طلب العلم وحضور مجالس العلماء والتلقي عن الشيوخ، فأخذ عن علماء بلده مكة ومنهم مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وداود بن عبدالرحمن العطار وسفيان بن عيينة ثم ارتحل في طلب العلم إلى المدينة واليمن وبغداد، فروى عن مالك ولازمه وعبدالعزيز الدراوردي ومحمد بن الحسن فقيه العراق وغيرهم.

ثم جلس للتعليم والرواية والإقراء، بعد أن علا صيته وتأهل للإمامة وعلا قدره فأقبل عليه خلقٌ كثير ينتفعون بما أفاء الله عليه من علمي الكتاب والسنة، فحدث عنه الحميدي وأبو عبيد القاسم بن سلام وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل وعبدالعزيز المكي صاحب كتاب الحيدة وغيرهم.

ومن الجوانب المضيئة في حياة الإمام الشافعي ما يتصل بالقرآن الكريم، فإلى جانب حفظه منذ الصغر فقد كانت له عناية بتفسيره وفهم معانيه والعلم بأحكامه، وهذا هو الواجب على حفظة القرآن وحملته، قال أحمد بن محمد الشافعي: «سمعت أبي وعمي يقولان: كان سفيان بن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي فيقول سلوا هذا»، وهذه شهادة عالية وتزكية رفيعة الشأن من شيخه سفيان بن عيينة له بعلو القدر ومبلغ العلم في تفسير القرآن الكريم، ومن يطالع كتابه: «أحكام القرآن»، يعلم حقاً مبلغ

علمه بأحكام القرآن وسعة معرفته بمسائله، مع ما ينضم إلى ذلك من معرفته بعلومه الأخرى المعينة على فهمه والاستنباط الدقيق منه، وقد شهد له بذلك الأئمة في زمانه، يقول يونس بن عبدالأعلى: «كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شهد التنزيل».

وكان له باع واسع ومعرفة شاملة بالقراءات مع حفظها وإتقانها، مما يدل على وفور علمه وتوقد ذكائه وقوة حافظته، يقول المبرد: «كان الشافعي من أشعر الناس وآدب الناس وأعرفهم بالقراءات»، وما كان له هذا إلا بتوفيق من الله ومنة، ثم بتحقيقه مقام التقوى، ثم بالجد والاجتهاد في التحصيل والطلب وبذل ما يستطيع من أجل العلم، مع الحذر من الذنوب والمعاصي فإنها تمحق بركة العلم وتذهب بنوره، وقصته مع شيخه الإمام مالك مشهورة في هذا.

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – في تعداد آثار الذنوب والمعاصي: «ومنها حرمان العلم، فإن العلم نورٌ يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ولما جلس الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقال الشافعي – رحمه الله تعالى:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأن العلم فضل ... وفضلُ الله لا يؤتاه عاصي»[1]

---

(١) الجواب الكافي: ٧٤.

وجاء في ترجمة وكيع شيخ الشافعي الذي أرشده إلى ترك المعاصي كي يتوافر له الحفظ والفهم، أن علي بن خشرم قال: «رأيت وكيعاً وما رأيت بيده كتاباً قط، إنما يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ، فقال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ»[(١)].

وكان الشافعي – رحمه الله تعالى – يحث غيره على حفظ القرآن وتعلم أحكامه، وأنه المقدم على غيره، لكرامة أهله عند الله عز وجل ورفعة قدرهم عنده، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله من الناس أهلون**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» (رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما)، يقول المزني سمعت الشافعي يقول: «من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تكلم في الفقه نما قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

وكان للإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – وردُه من القرآن يقرؤه ويصلي به آخر الليل ولا يخل به، كما هو عادة السلف والأخيار من عباد الله، الراغبين فيما عند الله من الرحمة والرضوان والجنة، كما قال تعالى في وصف أهلها: ﴿**إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾**﴾[(٢)]. وثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**».

---

(١) تهذيب التهذيب: ١١/ ١٢٩.

(٢) سورة الذاريات، الآيات: ١٥-١٨.

قال حسين الكرابيسي: «بت مع الشافعي ليلةً، فكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله، ولا بآية عذاب إلا تعوذ، وكأنما جمع له الرجاء والرهبة جميعاً»، ومن عنايته بهذا الأمر يقول الربيع بن سليمان: «كان الشافعي قد جزأ الليل، فثلثه الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام».

وهو بهذا يمتثل السنة ويقتفي الأثر ويتمسك بالهدي النبوي، يقرأ ويتدبر، يتلو ويتأمل، يسأل الله رحمته ويستجير به من عذابه، كما قال تعالى في وصف أنبيائه والصالحين من عباده: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾[1].

وفي مقابل هذا كله فقد كان – رحمه الله – يحذر من الإعراض عن منهج القرآن وهداياته ودلالاته، كما سلك بعض أهل زمانه من أصحاب الفرق الضالة من علماء الكلام والجهمية والمعتزلة وغيرهم، واشتهر عنه قوله: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويُطافُ بهم في العشائر، ينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام»، وقال أيضاً: «مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط، وتشريدهم في البلاد».

وصدق – رحمه الله – فإن الفتنة بهم عظيمة والضرر بهم متعدي، لذا فقد نبه أهل العلم أن فتنة الشبهات أعظم من فتنة الشهوات، وأشد خطراً على العبد، إذ لا تزال به تلك الشبه حتى يخرج من دينه وهو لا يشعر،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

فوجب التحذير من سماع كلامهم أو النظر في كتبهم أو حضور مجالسهم، حفاظاً للمسلم على دينه وصيانة له، إذ هو أعز ما يملك، وأغلى ما أنعم الله به عليه.

لقد ضم الإمام الشافعي إلى عنايته بالقرآن الكريم عناية فائقة بسنة النبي ﷺ حفظاً ورواية لها، وتحديثاً بها في مجالسه، وتحاكماً إليها وعملاً بها، فمتى ثبت له الدليل عمل به وتراجع عن قوله القديم، لا يتعصب لرأيه ولا يتمسك بقوله إذا بان له خطؤه، ووقف على دليل كان غائباً عنه، وهذا هو الواجب على أهل العلم كافة، ومن تحريه للسنة ما رواه الإمام أحمد: «قال الشافعي: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني، حتى أذهب إليه، كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً»، وكان يحذر طلابه من تقليده، إذا كان على خطأ، فالسنة حاكمة وقاضية على كل أحد، قال - رحمه الله تعالى: «كل ما قلته فكان من رسول الله ﷺ خلافُ قولي مما صح فهو أولى، ولا تقلدوني»، وقال أيضاً: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ودعوا ما قلته»، وقال أيضاً: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط».

هكذا يكون التجرد للحق واتباع الدليل ولو خالف ما كان عليه العالم منذ زمن، وهو بذلك يربي طلابه والأمة جميعاً، أن يكون عمدتهم الدليل في معرفة الحق، لا يقدمون هوى ولا تقليداً أعمى عليه، لذا فقد كان الشافعي - رحمه الله - يغضب على من يسأله عن رأيه في الحديث، أو ما موقفه من الدليل الثابت عنده؟ ونحو ذلك نصرة للسنة وذباً عن الشريعة وجمعاً للكلمة،

قال له مرة رجل: «نأخذ بهذا الحديث يا أبا عبدالله؟ فقال: متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب»، وقال الحميدي: «روى الشافعي يوماً حديثاً، فقلت: تأخذ به، فقال: رأيتني خرجت من كنيسة أو علي زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به»، وكان يقول: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقل به».

ومما اشتهر به أيضاً علمه باللغة ومعرفة الغريب وقرض الشعر وروايته، فله ديوان شعر مطبوع، كما اشتهر أيضاً بالكرم والجود، والسخاء والعطاء، يقول محمد بن عبدالحكم: «كان الشافعي أسخى الناس بما يجد وكان يمر بنا، فإن وجدني وإلا قال: قولوا لمحمد إذا جاء يأتي المنزل، فإني لا أتغدى حتى يجيء»، وكان يعين طلابه ويساعد المحتاج كي يكون عوناً له على طلب العلم وساداً فقره واحتياجه إلى الناس، قال الربيع: «تزوجت، فسألني الشافعي: كم أصدقتها؟ قلت: ثلاثين ديناراً، عجلت منها سنة، فأعطاني أربعة وعشرين ديناراً»، تمام الثلاثين.

وكان يكافئ غيره بأفضل مما عمل، من حسن خلقه وكمال مروءته وطيب معشره مع الناس، قال الربيع: «كان الشافعي ماراً بالحذائين، فسقط سوطه فوثب غلام ومسحه بكمه وناوله - إجلالاً وتقديراً له - فأعطاه الشافعي سبعة دنانير»، وأخذ رجل مرة بركاب دابته يسأله، فقال لمن معه «أعطه أربعة دنانير واعذرني عنده».

ومع تقدم الإمام الشافعي في العلم والعمل، والورع والزهد، والخوف

والخشية فقد كان مزرياً على نفسه غير مدل بعمله ولا معجب به، قال المزني: «دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف أصبحت؟ فرفع رأسه وقال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولإخواني مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً وعلى الله وارداً، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي	جعلت رجائي دون عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منةً وتكرما

إلى آخر الأبيات».

وقد كثر الثناء عليه والدعاء له، وبخاصة تلاميذه وهذا من الوفاء له وحسن العهد معه، وأكثر الناس ثناء عليه ودعاء له تلميذه إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل، يقول عبدالله بن أحمد: «قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ قال: يا بني كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فهل لهذين من خلف أو منهما عوض»؟ ويبين الإمام أحمد فضل الشافعي على الناس فيقول: «ما أحد مس محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في عنقه منة»، وقال يونس بن عبد الأعلى: «كان الشافعي قد أوتي عذوبة منطق وحسن بلاغة وفرط ذكاء وسيلان ذهن وكمال فصاحة وحضور حجة».

ولعلي أختم هذه السيرة العطرة بما روي عنه من أقوال تدل على سعة علمه وكمال عقله وفرط ذكائه ودقيق عبارته، من ذلك قوله: «طلب العلم

أفضل من صلاة النافلة»، وقال أيضاً: «ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر الذي فيه صلاحك فالزمه».

وصدق - رحمه الله تعالى - فإن إرضاء الناس كلهم صعب بل مستحيل، إن أحسنت إلى أحدهم مائة مرة ثم زللت معه بقول أو فعل عن غير قصد، ذهب ما كنت قد صنعته معه من الخير أمامه، لكنه عند الله مثبت في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ومع هذا فإن المؤمن مطالب أن يحسن إلى الناس وأن يكف شره ويمنع أذيته عنهم، ولا يرجو منهم جزاءاً ولا شكوراً، إنما يطلب هذا كله من ربه جل وعلا.

ومن الدواء النافع الذي ذكره الإمام الشافعي لمن خاف على نفسه العجب بعمله قوله: «إذا خفت على عملك العجب، فاذكر رضى من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب، فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله».

أحمد بن حنبل

إن الناظر في سير سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - يرى منهم الحب الصادق لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ والاستجابة الحقة والطواعية الكاملة لهما، يرى الإقبال على القرآن تلاوة لآياته وحفظاً لها، فقد كان لهم حزب لا يخلون به، مع التأثر بآياته رقةً في القلوب وإصلاحاً للنفوس وتعظيماً لله عز وجل، تظهر آثار ذلك عليهم حيث البكاء والتأمل، والنظر والتدبر، فكانوا كما قال تعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(١)، واستجابة لأمر الله القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

وقد حرصوا - رحمهم الله تعالى - على بيان أحكامه وشرح معانيه وتفسير آياته، مع الرد على علماء الضلال وأصحاب الأهواء الضالة، ممن لهم اعتقادات باطلة وآراء فاسدة في القرآن الكريم، وممن كان لهم الجهود المشكورة والأعمال المباركة في خدمة القرآن والسنة والعناية بهما مع التأثر الصادق بهما في كل شيء إمام أهل السنة والجماعة شيخ الإسلام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

مات والده شاباً عمره ثلاثون سنة، فنشأ الإمام أحمد يتيماً فتربى في حجر أمه وكانت امرأةً صالحة فاضلة، فاعتنت بتربيته على حب الكتاب والسنة والعناية بهما والسير على ضوئهما، وألحقته بحلق أهل العلم ومجالس الذكر، ملازماً كبار المشايخ في زمانه.

وقد روي أنه لما كان ببغداد وعزم الخروج إلى عبدالرزاق في اليمن لقيه بعض طلاب عبدالرزاق وقد أتوا من عنده، فقالوا له: تعال نحدثك بحديث عبدالرزاق، فقال: «لا تفسدوا علي النية، طلب الإسناد العالي سنة عمن سلف»، فرحل إليه من بغداد إلى اليمن، وتاه في الطريق عدة مرات، لكن هي عناية الله وحفظه ورعايته له، ولقد قال النبي ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**» (رواه أحمد والترمذي)، وقد كان – رحمه الله – آية في الحفظ، فحفظ كتاب الله عز وجل ومن سنة النبي ﷺ الشيء الكثير، حتى قيل إنه يحفظ ألف ألف حديث، ومسنده خير شاهد على ذلك.

ومن قوة حفظه ما رواه ابنه عبدالله قال: «قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام»، وعن أبي زُرعة قال: «حُزرت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني عشرة حملاً وعدلاً .. كل ذلك كان يحفظه»، وقال مهنى بن يحيى: «قد رأيت ابن عيينة ووكيعاً وبقية وعبدالرزاق والناس، ما رأيت رجلاً أجمع من أحمد في علمه وزهده وورعه وذكر أشياء»، وقال قتيبة بن سعيد وهو من أئمة الحديث وحفاظ السنة: «خير أهل زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب، يعني: أحمد بن حنبل، وإذا رأيت رجلاً

يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة، ولو أدرك عصر الثوري والأوزاعي والليث لكان هو المقدم عليهم، فقيل لقتيبة: يُضم أحمد إلى التابعين؟ قال: إلى كبار التابعين»، وأثنى عليه شيخه الإمام الشافعي وقد كان يجله ويحترمه بقوله: «خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل».

وقد جمع – رحمه الله تعالى – إلى حفظه الكتاب والسنة والعناية بهما العمل بهما مع الفقه والورع والزهد وكريم الخصال، قال ابن وارة: «كان أحمد صاحب فقه، صاحب حفظ، صاحب معرفة»، وقال النسائي: «جمع أحمد بن حنبل المعرفة بالحديث والفقه والورع والزهد والصبر»، وقال أبو داود: «كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا».

وهكذا ينبغي أن يكون أهل العلم الذين لهم عناية بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ يعمرون مجالسهم بالعلم النافع والمذاكرة فيما يفيد، لا أن تكون هممهم متعلقةً بالدنيا ومجالسهم معمورة بالحديث عنها، يتنافسون من أجلها ويتسابقون من أجل رتبها ومتاعها، ولو قصروا في تمسكهم بدينهم وتجرؤوا على حدود ربهم ووقعوا فيما يغضبه، إذ المسؤولية عليهم أكثر والحساب معهم أشد، فهم القدوة والأسوة لما تحملوه من العلم بالكتاب والسنة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به**» (رواه الترمذي)، لذا فقد حرص الإمام أحمد على أن يشغل زمانه بما يقربه إلى ربه، وكان يربي أهله

وطلابه على ذلك، مستضيئاً بنور القرآن الهادي لكل خير في الدنيا والآخرة، يقول ابنه صالح: «قلت لأبي: إن أحمد الدورقي أعطي ألف دينار، فقال يا بني: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾»[1]، ولم يكن يرائي بمظهره كحال بعض أهل زمانه ممن يقرأ القرآن طالباً الشهرة والكسب به، قال عبيد القارئ: «كان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك، رأيت عليه نعلاً لا يشبه نعال القراء، ورأيت عليه إزاراً وجبة بردٍ مخططة» أي: لم يكن بزي القراء.

كان للإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – حزبه ووروده من القرآن لا يخل به، كما هو عادة السلف – رحمهم الله تعالى – ومن لم يكن له حزب من القرآن لم يختم القرآن، بل ضاعات ساعات عمره، وذهبت أيامه على غير طائل، وذلك الحرمان، نسأل الله الهداية.

يقول عبدالله بن الإمام أحمد: «كان أبي يقرأ كل يوم سبعاً، وكان ينام نومة خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو»، وقال المروذي: «كان أبو عبدالله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرتُ الموت هان علي كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل».

وصدق – رحمه الله تعالى – يقول أبو الدرداء: «يا ابن آدم إنما أنت أيام، إذا مضى منك يوم مضى بعضك»، وقال أحد الصالحين: «عجبت لابن آدم كيف يفرح ويومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره».

فكان – رحمه الله تعالى – كثير العبادة، لا يخل بجزبه من القرآن والصلاة

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

والدعاء، مع رقة القلب وبكاء العين وصدق الخوف من الله عز وجل والرجاء فيه جل وعلا، وتلك سيما عباد الله الصالحين كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[1].

ومع ما كان فيه من الصلاح والخير وسابقته إلى كل طاعة وبلوغه المنزلة الرفيعة عند الناس فقد كان مزرياً بنفسه لا يعجب بعمله ولا يمتن به على الله، وتلك سيما الصالحين الأخيار من عباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[2]، وقد قال النبي ﷺ في وصفهم: «**هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يتقبل منه**» (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه)، يقول يحيى بن معين: «ما رأيت مثل أحمد، صحبناه خمسين سنة، ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير».

وكان بعيداً عن الشهرة وطلب التمدح والثناء من الناس، يقول – رحمه الله: «أريد أن أكون في شعب بمكة حتى لا أعرف، قد بُليت بالشهرة»، وكان يقول: «لو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذكر»، وعن المروذي قال: «لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أحمد، كان مائلاً إليهم، مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار، وإذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل، وإذا خرج من مسجده لم يتصدر».

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

ومما سئل عنه القراءة بالألحان، فقال: «هذه بدعة لا تسمع»، وعلى هذا درج السلف الصالح يحذرون من قراءة القرآن بالألحان المطربة والأصوات المنغمة المحدثة، فالقرآن ينزه عن هذا كله، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه سمع رجلاً يقرأ بهذه الألحان التي أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه، ولما قيل لورقاء بن إياس: «كان سعيد بن جبير يصنع كما يصنع هؤلاء الأئمة اليوم يطربون ويرددون؟ قال: معاذ الله، إلا أنه كان: إذا مر على مثل هذه الآية: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[1]، مدها شيئاً»، وقال رجل لعبدالله بن المبارك: «إنا نقرأ بهذه الألحان، فقال له: إنا أدركنا القراء، وهم يؤتون تسمع قراءتهم، وأنتم تدعون اليوم كما يدعى المغنون»، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى: «والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، وأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي فالقرآن ينزه عن هذا، ويُجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب»[2].

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى: «وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها ويسوغوها»[3].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧١.

(٢) فضائل القرآن: ٧٩.

(٣) زاد المعاد: ١/ ٤٩٣.

كان الإمام أحمد كثير الطاعات متعدد العبادة، في هدأة الليل وخفية من الناس، يطيل الصلاة ويسر الدعاء ولا يجهر بقراءة حزبه، يقول ابنه عبدالله: «ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم، وكان يكثر الدعاء ويخفيه، ويصلي بين العشائين، فإذا صلى عشاء الآخرة ركع ركعات صالحة، ثم يوتر وينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيصلي، وكانت قراءته لينة، ربما لم أفهم بعضها، وكان يصوم ويدمن ثم يفطر ما شاء الله، ولا يترك صوم الاثنين والخميس وأيام البيض».

ولا شك أن عبادة السر بجميع أنواعها أفضل، فهي أقرب إلى الإخلاص وجمع القلب وعدم تشتته حال العبادة، وبعده عن المشغلات والملهيات مما يكون بحضور غيره، ولذا قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾[1]، وقد روى بعض المفسرين عند هذه الآية ما حكاه الحسن البصري – رحمه الله تعالى – عن الصالحين في زمانه بقوله: «إن الله يعلم القلب التقي والدعاء الخفي، إن كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور – جمع زائر – وما يشعر به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

﴿رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وقد أثنى على زكريا فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾[1]، وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً».

وكان الإمام أحمد بن حنبل يتلو القرآن تلاوة متدبر متأمل، يتفهم آياته ويعي معانيها، ويفقه ما تتضمنه من أحكام وأخبار، من ذلك ما رواه ابنه صالح، قال: «سمعت أبي كثيراً يتلو سورة الكهف، وكثيراً ما كنت أسمعه يقول: «اللهم سلم سلم»، وذلك لما تضمنته هذه السورة العظيمة من تلك القصص الأربع التي لم ترد في غيرها من السور، قصة الفتية أصحاب الكهف وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى مع الخضر وقصة ذي القرنين، مع الحديث عن اليوم الآخر، ومآل المتقين عند ربهم في الجنات التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكذا مآل الكفار الفجار في نارٍ تلظى وقودها الناس والحجارة، وفي فضلها روى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»، وفي رواية «من آخر سورة الكهف».

ومما عرف عن الإمام أحمد واشتهر به نفوره ممن يمدحه وغضبه على من يثني عليه، فإن ذلك مورثٌ للعجب بالأعمال والفخر والخيلاء أمام الناس، روى الخلال عن محمد بن موسى قال: «رأيت أبا عبدالله وقد قال له خراسانيٌّ الحمد لله الذي رأيتك، فقال: اقعد، أي شيء ذا؟ من أنا؟ ورؤي في وجهه أثر الغم والهم لما أثنى عليه رجل فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فقال

(١) سورة مريم، الآية: ٣.

الإمام أحمد: بل جزى الله الإسلام عني خيراً، من أنا وما أنا»؟

وقال المروذي: «سمعت أبا عبدالله ذكر أخلاق الورعين، فقال: أسأل الله ألا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء»؟ وقال محمد بن الحسن: «رأيت أبا عبدالله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد»، وكان يقول: «أخمل ذكرك، فإني أنا قد ابتليت بالشهرة».

هذه سيما الصالحين من عباد الله، الذين تربوا على مشكاة الوحيين وعلى نور وهداية منهما، فإن ظهر العمل وبان للناس فأثنوا به عليه حمد الله، فتلك عاجل بشرى المؤمن كما أخبر بذلك النبي ﷺ، أخلص الناس عملاً وأبعدهم عن الرياء وأصدقهم في الورع والزهد.

وأشرف موقف للإمام أحمد وأعظمه ثباته على عقيدته عقيدة أهل السنة والجماعة في أن القرآن كلام الله تعالى منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وصبر على ذلك على ما أصابه من محنة وأذية من بعض أهل زمانه، فأعزه الله ورفع قدره، ونافح عن عقيدة السلف متحملاً كل ما يلقاه في سبيل ذلك، أداء للأمانة ونصحاً للأمة، فكان كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (١).

ولكم ناله في سبيل هذا من أذى وبلاء، فصبر واحتسب حتى أظهر الله أمره وأعز به دينه ونصر به عقيدة أهل السنة والجماعة، ثم إنه لاستجابته أمر الله سبحانه وتأسيه بقدوة الخلق أجمعين وسيد الأولين والآخرين عفا عمن ظلمه وأذاه، وجعلهم في حلٍ مما صنعوا به، وهذا من نبل أخلاقه وكريم

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

شمائله، فالله جل وعلا يقول: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [(١)]، ويقول سبحانه: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(٢)]. وسيرة النبي ﷺ مليئة بعفوه وصفحه عمن ظلمه وآذاه وأراد السوء به، فأعظم مواقفه عليه الصلاة والسلام في ذلك عفوه عن أهل مكة الذين آذوه وأخرجوه من بلده، فقال كلمته المشهورة بعد القدرة عليهم والتمكن منهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» (رواه البيهقي وغيره).

وهذا هو التأثر الصادق بكلام الله سبحانه والاستجابة التامة لما أمر به، بحثاً عن رضا الله وما يقرب إليه وما يكون به سبباً لنيل مغفرته ورحمته، فقد روي عنه رحمه الله أنه قال: «لقد جعلت الميت في حل من ضربه إياي، ثم قال:مررت بهذه الآية: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [(٣)]. فنظرت في تفسيرها، فإذا هو ما أخبرنا هاشم بن القاسم، أخبرنا المبارك بن فضالة، قال أخبرني من سمع الحسن يقول: إذا كان يوم القيامة جثت الأمم كلها بين يدي الله رب العالمين، ثم نودي ألا يقوم إلا من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا، قال: فجعلت الميت في حل، ثم قال: وما على رجل أن لا يعذب الله بسببه أحداً».

وروي عنه أنه قال: «كل من ذكرني ففي حل إلا مبتدعاً، وقد جعلت أبا إسحاق - يعني المعتصم - في حل، ورأيت الله يقول: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[(١)]. وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح، قال أبو عبدالله: وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سببك».

هكذا تكون الاستجابة لكلام الله سبحانه والطواعية لأمره، ولو خالف ذلك حظوظ النفس ورغباتها، وصدق الله القائل: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[(٢)]، فالعفو عند المقدرة والكف عمن ظلم أو تعدى من معالي الأخلاق وكريم الخصال، وعلامة صدق على صفاء القلوب وعلو الهمم والتطلع للدار الآخرة.

وقد أشار – رحمه الله تعالى – في معرض حديثه السابق إلى قصة مسطح بن أثاثة ابن خالة أبي بكر، شهد بدراً، وكان أبو بكر ينفق عليه ويصله لفقره وحاجته، فخاض في الإفك على عائشة – رضي الله عن الجميع – وكان ممن جُلد في ذلك، فأقسم أبو بكر ألا ينفق عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[(٣)]. عند ذلك قال أبو بكر الصديق: بلى والله، إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم عاد إلى نفقته على مسطح وكفر عن يمينه، وقال: والله لا أنزعها – أي الصدقة – منه أبداً، رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤، ٣٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٢.

من حلية أهل القرآن وسمات المعتنين به قيام الليل بما تيسر منه، فهذا هدي النبي ﷺ وصحابته الأخيار – رضي الله عنهم – وسلف هذه الأمة ومن أراد الله به خيراً – رحم الله الجميع – وكانوا يتواصون بهذا، ويتعاونون عليه ويتناصحون فيما بينهم من أجله، حتى يحققوا قيام الليل ولو باليسير، وهذا ما كان للإمام أحمد مع أهل بيته وطلابه، يقول عاصم بن عصام البيهقي: «بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله، فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل».

ويشبه هذا ما جاء في سيرة بعض السلف أنه نابته نائبة آخر الليل فطرق باب أحد جيرانه، فخرج إليه صاحب الدار وعليه آثار النوم، فاعتذر منه الطارق وذكر حاجته، ثم قال: كأني أرى عليك آثار النوم، ألست تقوم آخر الليل؟ فاعتذر بما نعتذر به اليوم من السهر وكثرة المشغلات والملهيات وعدم الرغبة الصادقة في قيام الليل، فقال هذا الرجل الصالح: «والذي نفسي بيده ما كنت أظن في أمة محمد ﷺ من يترك قيام الليل»، أي: بعدما علم فضله وثوابه وعظيم أجره، وآثاره المباركة على صاحبه في الدنيا والآخرة.

ولم تكن نصيحته لطلابه وغيرهم مقصورة على هذا، بل كان يرشدهم بعمله ويدعوهم بسمته وحرصه على السنة، فكان قدوتهم وإمامهم لما تمسك بالكتاب والسنة، روى الحسين بن إسماعيل عن أبيه قال: «كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمسمائة يكتبون، والباقون

يتعلمون منه حسن الأدب والسمت»، وقال أبو بكر المطوعي: «اختلفت إلى أبي عبدالله ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبت عنه حديثاً واحداً، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه».

وقد أحبه طلابه ومن حوله لما كان عليه من خلق جم وأدب فاضل وعلم نافع وتمسك بالسنة، روى ابن المنادي عن جده أبي جعفر قال: «كان أحمد من أحب الناس وأكرمهم وأحسنهم عشرة وأدباً، كثير الإطراق، لا يسمع منه إلا المذاكرة للحديث وذكر الصالحين في وقار وسكون ولفظ، وإذا لقيه إنسان بش به وأقبل عليه، وكان يتواضع للشيوخ شديداً، وكانوا يعظمونه، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره من التواضع والتكريم والتبجيل».

وقال الميموني: «كان أبو عبدالله حسن الخلق دائم البشر، يحتمل الأذى من الجار».

وكان الإمام أحمد بن حنبل حريصاً على تطبيق السنة والتمسك بهدي النبي ﷺ ولا غرو في ذلك فهو راوية السنة وحافظ الحديث، وكتابه المسند أوضح شاهد على مبلغ علمه وحفظه لسنة النبي ﷺ فكان يقرن قوله أو فعله بالسنة، مستدلاً على ذلك بما ثبت لديه من الحديث، قال إبراهيم الحربي: «سمعت أحمد بن حنبل يقول لأحمد الوكيعي: يا أبا عبدالرحمن إني لأحبك، حدثنا يحيى عن ثور عن حبيب بن عبيد عن المقدام قال: قال النبي ﷺ: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه**» (رواه أحمد وغيره بإسناد صحيح).

وقال المروذي: «قال لي أحمد: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت».

رحم الله تعالى الإمام أحمد رحمة واسعة ورفع درجته في المهديين وجمعنا به في الفردوس الأعلى مع النبيين.

أبو عبدالرحمن عبدالله المكي

إن من توفيق الله لعبده ومنته عليه أن يستعمله في عمل صالح وجهد مبارك متعدي النفع، تظهر آثاره على غيره في الدنيا والآخرة بعد أن كان سبباً فيها، وخير الناس أنفعهم للناس، وأعظم ما ينتفع به الخلق ارتباطهم بكتاب الله جل وعلا تمسكاً به وتحاكماً إليه، استهداء به وسيراً على نهجه، ولن يكون ذلك إلا بتعلم قراءته وإتقان تلاوته على المشايخ الأئمة القراء.

وقد هيأ الله سبحانه لهذه الأمة من يجلس لإقراء كتابه وتعليمه محتسباً في ذلك راجياً الخيرية التي وعد بها النبي ﷺ معلم القرآن ومتعلمه، فيما رواه البخاري عن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، وفي رواية أخرى في الصحيح: «**أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه**»، وفي الحث على تعلم القرآن وبيان فضل من وُفق لذلك وهُدي إليه ما رواه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال: «خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة، فقال: «**أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق** – واديان بالمدينة – **فيأتي منه بناقتين كوماوين** – مفردها كوما وهي عظيمة السنام – **في غير إثم ولا قطع رحم**»؟ فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك، قال: «**أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل**».

ولا يزال هذا الخير متواصلاً، جيلاً بعد جيل، متى وجد العلماء والقراء

المخلصون المجتهدون في تعليم القرآن وإقرائه، وأقبل عليهم الطلاب الحريصون على تعلم القرآن المتأدبون بآدابه، وممن اشتهر بهذا من السلف، أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي راوي حديث عثمان السابق عنه، حيث جلس يقرئ الناس في خلافة عثمان - رضي الله عنه - إلى أوائل أيام الحجاج بن يوسف، وكان الذي مكثه أكثر من أربعين سنة، يقرئ ويعلم القرآن، وكان يقول: «وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا» رحمه الله رحمة واسعة.

ومن الأئمة الذين اشتهروا بطول الإقراء ودوام الجلوس للطلاب والصبر على ذلك فحصل بهم نفع كثير الإمام الحافظ المقرئ أبو عبدالرحمن عبدالله بن يزيد الأهوازي البصري المكي، شيخ الحرم مولى آل عمر بن الخطاب، رفع الله شأنه وأعلى قدره مع أنه مولى لما اعتنى بالقرآن وأقبل عليه، وقد قال - عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**» (رواه مسلم).

روى الحروف عن نافع وعن جماعة من البصريين، قال ابن الجزري: «إمام كبير في الحديث ومشهور في القراءات، لقن القرآن سبعين سنة»، أي مكث يعلم الناس القرآن سبعين سنة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فلكم انتفع به من طالب، وكم أفاد من متعلم، وقد حدث بذلك عن نفسه - ولعله من باب التحدث بنعمة الله عليه وحثاً لغيره - قال محمد بن عاصم الثقفي: «سمعت أبا عبدالرحمن يقول: أنا بين التسعين إلى المائة، وأقرأت القرآن بالبصرة ستاً وثلاثين سنة، وههنا بمكة خمساً وثلاثين سنة».

وقد سئل ﷺ أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**»،

قيل: فأي الناس شر؟ قال: «**من طال عمره وساء عمله**» (رواه أحمد والترمذي)، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**».

لقد ضم الإمام المقرئ أبو عبدالرحمن المكي شيخ الحرم في زمانه إلى عنايته بالقرآن الكريم تعلماً وتعليماً، حفظ سنة النبي ﷺ والتحديث بها، فقد حدث عن ابن عون وأبي حنيفة النعمان بن ثابت والليث بن سعد وشعبة بن الحجاج وغيرهم، ثم حدث عنه الأئمة الحفاظ المشهورون كالبخاري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو خيثمة وابن نمير ومحمد بن يحيى الذهلي وغيرهم.

وحديثه مخرج في الكتب الستة ودواوين الأئمة، وقد كثر الثناء عليه، قال ابنه محمد: «كان ابن المبارك إذا سئل عن أبي قال: كان ذهباً خالصاً»، وقال أبو حاتم: «صدوق»رحمه الله رحمة واسعة.

يعقوب بن إسحاق الحضرمي

من أئمة السلف الصالح المقرئين الذين نفع الله بهم الناس في إقرائهم وتعليمهم كتاب الله عز وجل الإمام أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي مولاهم البصري، مقرئ البصرة وأحد القراء العشرة، أخذ القراءة عن أبي المنذر سلام الطويل وأبي الأشهب العطاردي ومهدي بن ميمون وحمزة الزيات وغيرهم، ارتفع قدره وعلا صيته وفاق أقرانه لما اعتنى بكتاب الله عز وجل، وصدق الأعمش وكان كحاله، فيما يروى عنه من قوله: «إن الله زين بهذا القرآن أقواماً، وإني ممن زينه الله بالقرآن، ولولا ذلك لكنت عبداً في عنقي دن أطوف به في سكك الكوفة».

ثم جلس للإقراء والتعليم فأقبل عليه الطلاب وازدحموا عنده، فانتفع به خلق كثير، فممن أخذ القراءة عنه روح بن عبدالمؤمن ومحمد بن المتوكل رويس والوليد بن حسان وأبو عُمرَ الدوري وأبو حاتم السجستاني وغيرهم.

وهو إمام حافظ من رواة الحديث، فحديثه مخرج في صحيح الإمام مسلم والأربعة عدا الترمذي، فقد روى عن شعبة وهمام بن يحيى وأبي عقيل الدورقي وهارون بن موسى وغيرهم، وقد وثقه كثير من الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

وقد كثر ثناء الأئمة عليه لحفظه وإتقانه وعنايته بالقراءة مع التدين والصلاح، قال أبو حاتم السجستاني: «يعقوب أعلم من رأينا بالحروف والاختلاف في القرآن وعلله ومذاهبه ومذاهب النحو»، وقال الإمام علي بن

جعفر السعيدي: «كان يعقوب أقرأ أهل زمانه، وكان لا يلحن في كلامه»، وقال أبو القاسم الهذلي: «ومنهم يعقوب الحضرمي، لم ير في زمنه مثله، كان عالماً بالعربية ووجوهها، والقرآن واختلافه، فاضلاً تقياً نقياً ورعاً زاهداً».

وهكذا كان – رحمه الله تعالى – جامعاً بين هذه العلوم كلها، مما يرتبط بالقرآن والسنة واللغة، مع ما يضاف لها من الورع والزهد، والجمع بين صلاح الظاهر والباطن، ومتى اجتمعت لعبد وحققها مع المسارعة في الخيرات والمسابقة في ميادين الصالحات فهو على خير إلى خير بإذن الله عز وجل، والمحروم البائس من حرم خير الله عز وجل وما وفق له الصالحين من عباده، من اشتغال بالصالحات واستثمار للأوقات بما نفعه متعدٍ وآثاره مباركة، ومن ذلك تعلم القرآن الكريم وتعليمه.

قالون

كان لي حديث فيما سبق عن الأعمال المباركة المتعدي نفعها وآثارها الطيبة، وأن المحروم حقاً من حرم الخير فلم يوفق له ولم يهد لأسبابه، ومن تلك الأعمال الصالحة تعلم القرآن الكريم وتعليمه، وقدوة الخلق في هذا سيد الأولين والآخرين نبينا محمد ﷺ الذي أقرأ أصحابه القرآن وعلمهم أحكامه وفسر لهم ما احتاجوا إلى فهمه، مع العمل بما تعلموه وقرؤوه، يقول أبو عبدالرحمن السلمي - رحمه الله تعالى: «أخذنا القرآن عن قوم - يعني الصحابة - أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم»، وروى أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي - رحمه الله تعالى عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وقد درج على هذا الأئمة القراء، من لزوم حلقهم وبذل جهودهم والصبر على ما ينالهم طلباً للثواب وابتغاء الأجر من الله سبحانه، فهم دعاة خير ورشد، بل إن تعليمهم القرآن الكريم من أعظم أبواب الدعوة إلى الله عز وجل وأعمها نفعاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله: «والدعاء

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

إلى الله يقع بأمور شتى، من جملتها تعليم القرآن، وهو أشرف الجميع»[(١)]، وروى ابن ماجه بسند حسن عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**من علم علماً فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل**»، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول اله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**» (رواه مسلم)، وروى أيضاً عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله**».

ومن عجيب ما جاء في تراجم الأئمة القراء الحريصين على تعليم الناس كتاب الله عز وجل ما ورد في ترجمة الإمام المجود مقرئ المدينة أبي موسى – عيسى بن مينا مولى بني زُريق، لازم نافعاً وعنه أخذ القراءة وأتقنها، ويقال: كان ربيب نافع، فلقبه: «قالون»، لجودة قراءته، وهي كلمة رومية معناها عندهم جيد.

حرص على الإفادة من شيخه نافع الذي أخذ قراءته عن أكثر من سبعين تابعياً، فقرأ عليه القرآن مرات عديدة من أجل الإتقان والضبط بلا كلل ولا ملل، يقول – رحمه الله تعالى: «قرأت على نافع قراءته غير مرة، وكتبتها في كتابي»، وقال النقاش: «قيل لقالون: كم قرأت على نافع؟ قال: ما لا أحصيه كثرة، إلا أني جالسته بعد الفراغ عشرين سنة».

---

(١) فتح الباري ٩/ ٧٦.

ثم جلس للإقراء وتعليم الناس كتاب الله تعالى، فأخذ القراءة عنه ابناه إبراهيم وأحمد، وإبراهيم بن الحسين الكسائي وأحمد بن صالح المصري وأحمد بن يزيد الحلواني وغيرهم، وقد استمر في تعليمه حتى ثقل سمعه وأصابه الصمم فكان يعرف خطأ القارئ من حركة شفتيه، قال ابن أبي حاتم: «كان أصم يقرئ القرآن، ويفهم خطأهم ولحنهم بالشفة، قال: وسمعت علي بن الحسين يقول: كان عيسى بن مينا قالون أصم شديد الصمم، وكان يقرأ عليه القرآن، وكان ينظر إلى شفتي القارئ، ويرد عليه اللحن والخطأ».

ابن جرير الطبري

كانت عناية السلف بالغة بتفسير القرآن وبيان معانيه وتعليم أحكامه للناس، إذ هي ثمرة قراءته ونتيجة تعليمه وحفظه، وإذا ذكر مَنْ لهم عناية بالتفسير من الصحابة وتابعيهم فإن إمام المفسرين بعدهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام الحافظ المقرئ المفسر، بل كل المفسرين بعده عيال عليه، ولد بطبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ثم رحل في طلب العلم وعمره اثنتا عشرة سنة، فطوف في الأقاليم، وسمع بمصر والشام والعراق، ثم استقر ببغداد وبها توفي سنة عشر وثلاثمائة من الهجرة.

كان – رحمه الله تعالى – أحد الأئمة الأعلام، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وسعة علمه، إذ جمع الله له من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من عصره، كان حافظاً للقرآن، عارفاً بمعانيه فقيهاً في أحكامه، عالماً بالسنة وطرقها، وصحيحها وضعيفها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، ولغة العرب وغريبها.

صنف – رحمه الله تعالى – في علوم كثيرة، فأبدع فيما ألف وأجاد فيما صنف، فمن مؤلفاته تفسيره المشهور جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وكتاب في القراءات وكتاب اختلاف العلماء وكتاب تهذيب الآثار وغير ذلك.

ولا غرو أن تفسيره إمام في كتب التفسير لا غنى عنه لطالب التفسير، فإنه اجتهد في جمعه وتصنيفه، وإملائه على طلابه وتدريسه إياهم، وقد ذكر بعض أهل التراجم كالسبكي أن تفسيره كان أوسع مما هو عليه اليوم، لكن مؤلفه الإمام الطبري اختصره لطلابه، حيث قال لهم يوماً: «أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا ربما تفنى لأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة».

ومع هذا فإن تفسيره من أوسع كتب التفسير مادة وأغناها علماً وأدقها تحقيقاً وأحسنها ترتيباً، وكانت له شهرة وقبول لدى الناس، قال النووي – رحمه الله: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري» (١)، وقال أبو حامد الأسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً»، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المهتمين، كمقاتل والكلبي» (٢)، وروي أن الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة استعار تفسير ابن جرير الطبري من ابن خالويه فرده بعد سنين، ثم قال: «نظرت فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير».

(١) الاتقان: ٢/ ١٩٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٥.

إن هذا الجهد المشكور لابن جرير – رحمه الله – في تفسيره هذا وغيره ما كان له إلا بتوفيق من الله وبركة له في وقته وعمله مع الحرص منه والطلب، يقول أبو محمد الفرغاني: «إن قوماً من تلامذة محمد بن جرير حسبوا له منذ بلغ الحلم إلى أن مات، ثم قسموا على تلك المدة أوراق مصنفاته، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة» - رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن أمة القرآن خير الجزاء.

ابن مجاهد

إذا ذكر القراء الأئمة الذين اعتنوا بكتاب الله عز وجل وجمع قراءاته المتواترة الصحيحة، فإن من أعلامهم أبا بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي، الإمام المحدث اللغوي شيخ المقرئين ومصنف كتاب السبعة.

ولد - رحمه الله تعالى - سنة خمسٍ وأربعين ومائتين ببغداد، أقبل على كتاب الله عز وجل فأخذه عن شيوخ القراء في زمانه، مغتنماً حياتهم الطيبة المباركة بالقرآن الكريم، ورحل إلى بعضهم، فقرأ على عبدالرحمن بن عبدوس القرآن وختمه على يديه عشرين مرة حرصاً منه على الإتقان والضبط، والتحسين والتجويد، كما قرأ على قنبل المكي وعبدالله بن كثير المؤدب ومحمد بن يحيى الكسائي الصغير وغيرهم.

ثم جلس لإقراء القرآن وتعليم الناس التلاوة، فأقبل عليه الطلاب وازدحموا عنده فانتفع به خلق كثير، يقول ابن الجزري: «وبعد صيته واشتهر أمره وفاق نظراءه، مع الدين والحفظ والخير، ولا أعلم أحداً من شيوخ القراء أكثر تلاميذاً منه، ولا بلغنا ازدحام الطلبة على أحد كازدحامهم عليه»[(1)]. وقد حكى كثرة هؤلاء الطلاب المنتفعين بهذا الإمام المقرئ من رأى مجالسه، وخير الناس أنفعهم للناس، وأعظم النفع لهذه الأمة تعليمهم قراءة كتاب الله عز وجل قراءة صحيحة وتلاوة سليمة كما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ.

حكى ابن الأخرم أنه وصل إلى بغداد فرأى في حلقة ابن مجاهد نحواً من

(١) غاية النهاية: ١/ ١٤٢.

ثلاثمائة متعلم، وقال علي بن عمل المقرئ: «كان ابن مجاهد له في حلقته أربعة وثمانون خليفة يأخذون على الناس»، ومن هؤلاء الطلاب الذين تتلمذوا على يديه ونفعهم الله بقراءته عبدالواحد بن أبي هاشم وأبو عيسى بكار، والحسن المطوعي وأبو الحسين عبيد الله بن البواب وغيرهم.

كثر الثناء عليه من أئمة زمانه ومن بعدهم لسعة علمه وورعه ونسكه وإقباله على كتاب الله عز وجل مستغنياً به عن غيره، وذلك سمتُ أهل القرآن وهديهم تعظيماً لكلام الله وتقديراً لنعمة الله به عليهم، قال أبو عمرو الداني: «فاق ابن مجاهد سائر نظائره مع اتساع علمه وبراعة فهمه، وصدق لهجته وظهور نسكه»، ومما يدل على عظيم ورعه وخشيته، وسيره على سنن من قبله من الأئمة ما رواه عبدالواحد بن أبي هاشم أحد تلامذته قال: «قال رجل لابن مجاهد: لم لا تختار لنفسك حرفاً؟ قال: نحن إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا».

ولقد كان من هدي سلفنا الصالح - رحمهم الله - أنهم لا يخصون بتعليم القرآن أحداً، ولا يمتنعون عن إقراء أحد، أداء للأمانه واغتناماً للخيرية التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» (رواه البخاري)، قال عبدالباقي بن الحسن: «كان في حلقة ابن مجاهد خمسة عشر رجلاً أضراء يتلقون لعاصم»، ولا شك أن إقراء كفيف البصر يحتاج إلى مضاعفة الجهد وبذل الوسع من الشيخ مع الصبر والاحتساب في ذلك، فكيف بخمسة عشر كفيفاً في مجلس واحد، وقد احتسب فيهم ذلك ابن مجاهد - رحمه الله تعالى -

بل إن من فضل الله على من كف بصره أن الله يعوضه حافظة قوية وبديهة سريعة وإتقاناً وضبطاً لا مثيل له وهذا مشاهد، فلله الحمد على ما أخذ وأعطى.

وكان يربي طلابه على معالي الأخلاق وكريم الخصال، يعلمهم الأدب وحسن السمت في مجلس القرآن، إذهو مجلس مبارك تحفة الملائكة، يقول – عليه الصلاة والسلام: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله عز وجل يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**» (رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه) روى الخطيب البغدادي عن محمد بن عبدالله الشيباني قال: «تقدمت إلى أبي بكر بن مجاهد لأقرأ عليه، فتقدم إليه رجل وافر اللحية كبير الهامة، فابتدأ ليقرأ، فقال ابن مجاهد: ترفق يا خليلي، سمعت محمد بن الجهم يقول سمعت الفراء يقول: أدب النفس ثم أدب الدرس».

فلمجالس العلم آداب وأخلاق يجب أن يتحلى بها ويراعيها من يجلس فيها ورام الفائدة من شيوخها ومعلميها، ومنها عدم تجاوز الآخرين لأمر سبقوا إليه، ومن ذلك القراءة على الشيخ، كما أن على طالب العلم أن يتواضع لشيخه ويهين نفسه من أجل تحصيل العلم والإفادة من مجالس الذكر.

قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى: «وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وإن كان أصغر منه سناً وأقل شهرة ونسباً وصلاحاً وغير ذلك، ويتواضع للعلم، فبتواضعه للعلم يدركه، وقد قالوا نظماً:

العلم حرب للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

وينبغي أن ينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره ويقبل قوله، كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق، وهذا أولى، قال الربيع صاحب الشافعي - رحمهما الله تعالى: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له»[1] .. إلخ كلامه رحمه الله تعالى.

(١) التبيان: ٣٧.

ابن شنبوذ

ممن عاصر الإمام ابن مجاهد الإمام المقرئ أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ، أكثر الترحال في طلب القراءة، حتى صار من أئمة زمانه في القراءة، فقد أخذ القراءة عن هارون بن موسى وقنبل المكي وإسحاق الخزاعي وغيرهم، وكان يفخر برحلته في طلب القراءة والحديث على ابن مجاهد فكان يقول: «هذا العطشي لم تغبر قدماه في طلب العلم».

وكان رجلاً صالحاً ديناً متبحراً في علم القراءات، لكنه كان يرى جواز الصلاة بالقراءات الشواذ، بما جاء في مصحف أبي ومصحف ابن مسعود وبما صح في الأحاديث، وهو بهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة منذ زمن الصحابة الذين استقر رأيهم على ما في هذا المصحف مما يوافق العرضة الأخيرة التي عارض فيها جبريل عليه السلام نبينا عليه الصلاة والسلام، وقد أحضر ونوظر عدة مرات وضيق عليه حتى أعلن توبته مما كان يراه ورجع عما ذهب إليه.

وبكل حال فإن ما حصل منه لا يحط من قدره وإمامته في القراءة إن ثبت رجوعه عما ذهب إليه من جواز القراءة في الصلاة بالشواذ مما يخالف المصحف الذي أجمعت عليه الأمة، قال الإمام النووي: «وتجوز قراءة القرآن بالقراءات السبع المجمع عليها، ولا يجوز بغير السبع، ولا بالروايات الشاذة المنقولة عن القراء السبعة، وقد اتفق الفقهاء على استتابة من يقرأ بالشواذ إذا قرأ بها، وقال أصحابنا وغيرهم: لو قرأ بالشواذ في الصلاة بطلت صلاته إن

كان عالماً، وإن كان جاهلاً لم تبطل، ولم تحسب له تلك القراءة، وقد نقل الإمام أبو عمر بن عبدالبر الحافظ إجماع المسلمين، على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ وأنه لا يصلى خلف من يقرأ بها.

قال العلماء: من قرأ بالشاذ إن كان جاهلاً به أو بتحريمه عُرف ذلك، فإن عاد إليه أو كان عالماً به عُزر تعزيراً بليغاً إلى أن ينتهي عن ذلك، ويجب على كل متمكن من الإنكار عليه والمنع الإنكار عليه ومنعه»[(١)].

---

(١) التبيان: ٧٥.

هناد بن السري – البخاري – أبو حاتم السجستاني

جمع سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – بين العلم والعمل، والسنة والخشية، وصلاح الظاهر والباطن، طولاً في العبادة وتنوعاً في الطاعة، تأثراً بآي القرآن الكريم واقتداءً بسنة سيد الأولين والآخرين – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

من هؤلاء أبو السَّري هناد بن السري بن مصعب التميمي الكوفي، إمام حجة في الحديث، ومصنف كتاب الزهد، كان من الحفاظ العباد الزهاد، حدث عن شريك وأبي الأحوص وابن المبارك وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغيرهم، حدث عنه الجماعة عدا البخاري، وقد روى له في غير صحيحه.

جمع – رحمه الله تعالى – بين العلم فروى السنة وحدث بها، وصنف في أحد موضوعاتها، وهو الزهد والرقائق، كما صنع الإمام أحمد وعبدالله بن المبارك وغيرهما، وهذا العنوان أحد أبواب مصنفات الحديث، ففي صحيح البخاري كتاب الرقاق، وفي صحيح مسلم كتاب الزهد والورع وغير ذلك.

ولم يكن تأليف هؤلاء الأئمة في هذا الموضوع بمعزل عن التطبيق منهم، والامتثال لما يدونونه فيها، فقد جاء في سيرة الإمام عبدالله بن المبارك أنه كان إذا قرئ عليه كتابه الزهد والرقائق يبكي ويكثر البكاء، ومما جاء في سيرة هناد السري ما رواه أحمد بن سلمة النيسابوري الحافظ قال: «كان هناد – رحمه الله – كثير البكاء، فرغ يوماً من القراءة لنا فتوضأ وجاء إلى المسجد، فصلى إلى الزوال وأنا معه في المسجد، ثم رجع إلى منزله فتوضأ وجاء فصلى بنا الظهر،

ثم قام على رجليه يصلي إلى العصر، يرفع صوته بالقرآن ويبكي كثيراً، ثم إنه صلى بنا العصر وأخذ يقرأ في المصحف حتى صلى المغرب، قال: فقلت لبعض جيرانه: ما أصبره على العبادة! فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل».

وما كان له ولغيره هذا التطوع الطويل إلا بتوفيق من الله ومنة ثم بمجاهدة نفسه وترويضها على طاعة الله، وإتباع ما كانوا يتعلمونه ويعلمونه العمل والانقياد.

ومن الأمثلة أيضاً ما جاء في سيرة إمام المحدثين أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب الصحيح الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل، كان له – رحمه الله تعالى – عناية بحديث النبي ﷺ رواية له وحفظاً، تمييزاً لصحيحه من ضعيفه، ومعرفةً تامة دقيقةً بأحوال رواته ورجال أسانيده، مع العناية بكتاب الله عز وجل يتلوه ولا يخل بحزبه منه، يقوم به ورده من الليل مع التدبر والتأمل في آياته، متأثراً به في الانقياد لأمره والاستجابة الحقة لندائه والإيمان التام به، قال عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي: «محمد – يعني البخاري – أكيس خلق الله، إنه عقل عن الله ما أمره به ونهى عنه في كتابه، وعلى لسانه نبيه، إذا قرأ محمد القرآن شغل قلبه وبصره وسمعه، وتفكر في أمثاله وعرف حلاله وحرامه».

وكان يثني عليه بقوله: «محمد بن إسماعيل – يعني البخاري – أعلمنا وأفقهنا وأغوصنا وأكثرنا طلباً».

وقد ضم البخاري إلى هذا العناية بتفسير القرآن والحديث عن فضائله، وكتاب التفسير في صحيحه خير شاهد على ذلك، فقد اعتنى فيه - رحمه الله تعالى بتفسير القرآن بحديث النبي ﷺ؛ لأنه المبلغ عن ربه، وأعلم الناس بمراده من كلامه، مع نقل ما روي عن الصحابة في تفسير مفرداته وبخاصة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - حبر الأمة وترجمان القرآن، ثم جعل كتاباً في فضائل القرآن، أودع فيه ما ثبت عنده في فضله عموماً، وفي فضل بعض سوره وآياته على وجه الخصوص، مع التبويبات الكثيرة على كثير من المسائل المرتبطة به، كتحسين الصوت بتلاوته، وفضل تعلمه وتعليمه، وحفظه وتعاهده والتحذير من نسيانه وغير ذلك.

إن المؤمن الفطن الموفق من يغتنم الأزمان الفاضلة والأماكن الشريفة يستغلها بما هي جديرة به من العمل الصالح ومضاعفة الجهد بكثرة الطاعة وتنوع العبادة، والمحروم من حرم خير الله، ولا أغبن في الدنيا من عبدٍ تمر عليه تلك الأزمان والأماكن الفاضلة دون نشاط في العبادة ومسارعة لكل بر وإحسان، يقول مسبح بن سعيد: «كان محمد بن إسماعيل - يعني: البخاري - يختم في رمضان في النهار كل يومٍ ختمة»، اغتناماً لفضل شهر الصيام، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[1].

وكان - رحمه الله تعالى - كافاً جوارحه عما حرم الله تعالى، محاسباً إياها على كل شيء كان يقول: «أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً»، وهذا غاية الورع، وقال الحسين بن محمدٍ السمرقندي: «كان محمد بن إسماعيل -

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

البخاري – مخصوصاً بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحمودة، كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس، كل شغله كان في العلم»، وقال سليم بن مجاهد: «ما رأيت بعيني منذ ستين سنة أفقه ولا أورع ولا أزهد في الدنيا من محمد بن إسماعيل البخاري».

ومما اشتهر به الإمام البخاري – رحمه الله تعالى – قوة الحفظ وسرعة البديهة وحسن الاستدلال ودقة الاستنباط من الكتاب والسنة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، مع بذل الجهد في الحفظ والإتقان والمعاهدة والمذاكرة، لما قيل له: «أنى لك هذا الحفظ والإتقان؟ قال: بالمذاكرة والمدارسة»، ويقول محمد بن أبي حاتم: «أتى رجل أبا عبدالله البخاري فقال: يا أبا عبدالله، إن فلاناً يكفرك، فقال: قال النبي ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما»، وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك، فيقول: إن كيد الشيطان كان ضعيفاً»، ويتلو أيضاً: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1]، فقال له عبدالمجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»، وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه فقد انتصر».

ومن أئمة السلف المعتنين بكتاب الله عز وجل الإمام المقرئ أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، إمام البصرة في القراءة واللغة والنحو، وهو من أوائل من صنف في القراءات لسعة علمه ورسوخ قدمه في هذا الشأن. اشتهر رحمه الله تعالى بالحفظ والإتقان مع مراعاة أحكام التجويد

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وإحسان الوقوف، قال الحسن بن تميم البزاز «صلى أبو حاتم بالبصرة ستين سنة بالتراويح وغيرها، فما أخطأ يوماً ولا لحن يوماً ولا أسقط حرفاً، ولا وقف إلا على حرف تام».

وما كان له هذا إلا بتوفيق من الله وهداية ثم بنشأته بين أبوين صالحين وعيشه في بيت معمور بالقرآن والصلاة والذكر، يقول محمد بن إسماعيل الخفاف: «كان أبو حاتم وأبواه جعلوا الليل بينهم أثلاثاً، فكان أبوه يقوم الثلث وأمه تقوم الثلث وأبو حاتم يقوم الثلث، فلما أن مات أبوه جعل الليل بينه وبين أمه نصفين، فلما ماتت أمه جعل أبو حاتم يقوم الليل كله»، حتى توفي سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة.

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – تعليق مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير – دمشق بيروت- الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م.
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان – علاء الدين علي الفارسي – دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى : ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .
- إحياء علوم الدين – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي- دار الفكر – بيروت – بدون.
- أخلاق حملة القرآن – محمد بن الحسين الآجري- تحقيق فواز أحمد زمرلي – دار الكتاب العربي- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الاستقامة ـ شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الطبعة الثانية : ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- الاعتصام ـ إبراهيم بن موسى الشاطبي ـ عناية محمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم – شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ـ تحقيق ناصر العقل – الطبعة الأولى – ١٤٠٤هـ.

- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد الزركشي - تحقيق محمد إبراهيم- دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثانية.
- تاريخ بغداد – أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي – دار الكتاب العربي- بيروت.
- التبيان في آداب حملة القرآن – أبو زكريا يحي بن شرف النووي – تحقيق عبد القادر الأرناؤوط – مكتبة دار البيان – الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- التأثر بالقرآن والعمل به أسبابه ومظاهره – بدر بن ناصر البدر – مدار الوطن – الطبعة الأولى – ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧ م.
- التذكار في أفضل الأذكار – محمد بن أحمد القرطبي – تحقيق بشير محمد عيون – دار البيان- دمشق وبيروت – الطبعة الرابعة – ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- تفسير البحر المحيط – أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- تفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – مطبعة عيسى البابي الحلبي – ١٩٦٤ م .
- تفسير القرآن العظيم –عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم – تحقيق أسعد محمد الطيب- مكتبة الباز –مكة المكرمة – الرياض- الطبعة الثانية- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء إسماعيل بن كثير- دار المعرفة- بيروت .
- التفسير الكبير ـ فخر الدين عمر الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- التفسير والمفسرون – محمد حسين الذهبي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- بدون.
- تهذيب التهذيب – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- دار صادر- بيروت – الطبعة الأولى- ١٣٢٥ هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري- دار المعرفة – بيروت – الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد القرطبي- تحقيق أحمد البردوني- دار الفكر- بيروت .
- جامع العلوم والحكم – ابن رجب الحنبلي – تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس – طبعة خاصة بدارة الملك عبد العزيز – الطبعة التاسعة – ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني- دار الكتاب العربي – القاهرة – الطبعة الرابعة- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الداء والدواء (الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي)-

محمد بن أبي بكر ابن القيم- تحقيق يوسف علي بدوي- دار ابن كثير- دمشق – بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- دار الفكر –بيروت – الطبعة الثانية – ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- ذم الهوى - أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي _ تحقيق: خالد عبد اللطيف السبع العلمي - دار الكتاب العربي – الطبعة الأولى – ١٤١٨هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد- محمد بن أبي بكر ابن القيم- تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت – الطبعة الثالثة- ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- الزهد- أحمد بن محمد بن حنبل- تحقيق محمد بسيوني زغلول- دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الزهد والرقائق – عبد الله بن المبارك – تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي- دار الكتب العلمية – بيروت.
- سنن ابن ماجه – محمد بن يزيد بن ماجه- تحقيق محمد الأعظمي- شركة الطباعة العربية السعودية- الطبعة الثانية- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- سنن أبي داود – أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني- عناية

محيي الدين عبد الحميد- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

- سنن الترمذي (الجامع الصحيح) -تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- السنن الكبرى – أحمد بن الحسين البيهقي- دار المعرفة-بيروت- بدون.
- سنن النسائي – أحمد بن شعيب النسائي – دار الكتاب العربي – بيروت.
- السنة - أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال - تحقيق : د. عطية الزهراني - دار الراية – الرياض - الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ.
- سير أعلام النبلاء – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية- ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- شرح النووي على صحيح مسلم- أبو زكريا يحيى بن شرف النووي – دار الفكر – بيروت.
- الشريعة - محمد بن الحسين الآجري- تحقيق محمد حامد – دار السلام – الرياض – الطبعة الأولى – ١٤١٣هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى – عياض بن موسى اليحصبي- تحقيق علي محمد البجاوي- طبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة.

- صحيح ابن خزيمة ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي .
- صفة الصفوة – أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي- تحقيق محمود فاخوري- دار المعرفة –بيروت- الطبعة الرابعة – ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الطبقات الكبرى – محمد بن سعد – دار صادر – بيروت.
- غاية النهاية في طبقات القراء – محمد بن محمد بن الجزري- بعناية ج برجستراسر- دار الكتب العلمية –بيروت –الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي- إشراف الشيخ عبد العزيز بن باز- دار الفكر- بيروت.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد – عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ – بعناية الشيخ عبد العزيز بن باز – المكتبة السلفية – المدينة المنورة- الطبعة الخامسة – ١٣٩١هـ.
- فضائل القرآن- أبو عبيد القاسم بن سلام- تحقيق وهبي غاوجي- دار الكتب العلمية- بيروت – الطبعة الأولى- ١٤١١هـ.
- فضائل القرآن – أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير- تحقيق زهير شفيق الكبي- دار الفكر العربي –بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

- الفوائد ـ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية ـ دار الفكر - بيروت.
- كشف الأستار عن زوائد مسند البزار- علي بن أبي بكر الهيثمي- تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي- مؤسسة الرسالة – بيروت- الطبعة الثانية –١٤٠٤هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية- جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم- مكتبة ابن تيمية.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ـ محمد بن أبي بكر ابن القيم ـ دار الفكر العربي – بيروت.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز –عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة- تحقيق طيار آلتي حولاج- دار صادر- بيروت-١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- المستدرك على الصحيحين وحاشيته تلخيص المستدرك للذهبي - أبو عبد الله الحاكم- دار الكتاب العربي-بيروت.
- المسند – أحمد بن حنبل – المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الخامسة- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- المسند – أحمد بن حنبل- تحقيق أحمد شاكر- دار المعارف- مصر- ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- مسند أبي يعلى – أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي – تحقيق حسين سليم أسد – دار المأمون للتراث – دمشق – الطبعة الأولى – ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

◆ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه – أحمد بن أبي بكر البوصيري- تحقيق كمال يوسف الحوت- مؤسسة الكتب الثقافية – دار الجنان – بيروت- الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

◆ المعجم الأوسط ـ سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق محمود الطحان ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .

◆ المعجم الكبير – سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي- مطبعة الوطن العربي- العراق- الطبعة الأولى – ١٤٠٠هـ.

◆ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي- تحقيق شعيب الأرناؤوط وصالح عباس- مؤسسة الرسالة –بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

◆ المغني ، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، تحقيق د. عبد الله التركي ، و د . عبد الفتاح الحلو ـ دار هجر للطباعة ـ الطبعة الثانية : ١٤١٢هـ .

◆ مفاتيح للتعامل مع القرآن – صلاح عبد الفتاح الخالدي – دار القلم – دمشق – الطبعة الثانية – ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م .

◆ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ محمد بن أبي بكر ابن القيم الدمشقي ـ دار الباز ـ مكة المكرمة .

◆ مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد بن عبد العظيم الزرقاني- دار الفكر- ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- منجد المقرئين ومرشد الطالبين – محمد بن محمد بن الجزري – بعناية علي بن محمد العمران – دار عالم الفوائد – الطبعة الأولى – ١٤١٩هـ .
- منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم – بدر بن ناصر البدر – دار الفضيلة – الرياض – الطبعة الأولى – ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- الموافقات في أصول الشريعة – أبو إسحاق الشاطبي – دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٥هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال – محمد بن أحمد الذهبي – تحقيق علي محمد البجاوي – دار المعرفة – بيروت.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب – ابن قيم الجوزية – عناية إبراهيم العجوز – دار الكتب العلمية – بيروت.

الفهرس

المقدمة ٥
الإيمان بالقرآن وصفاته ١٣
هداية القرآن ٢٣
فضل القرآن وأهله ٢٩
جلالة القرآن وهيبته ٣٤
حفظ القرآن ومعاهدته ٣٧
تنافس السلف في تلاوة القرآن وعنايتهم بتحقيقها ٤٦
التحذير من هجر القرآن ٥٤
عناية السلف بإقراء القرآن وتعليمه ٥٩
نهيهم عن التقعر والتكلف حال القراءة ٦٣
تدبر القرآن ٦٨
العمل بالقرآن والإخلاص فيه ٧٥
أخلاق أهل القرآن وسيماهم والواجب عليهم ٨٤
عنايتهم بآداب حملة القرآن ٩٠
الاستئكال بالقرآن وأخذ الأجرة عليه ٩٥
تحذير السلف من اتباع الهوى ١٠٣
هدي النبي ﷺ في التأثر بالقرآن ١١٣
أبو بكر الصديق – رضي الله عنه ١١٩
عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ١٢٤
عثمان بن عفان – رضي الله عنه ١٢٩

علي بن أبي طالب – رضي الله عنه.. ١٣٣
عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه ١٣٨
ابن عباس – رضي الله عنهما.. ١٤٦
أبي بن كعب – رضي الله عنه.. ١٥٨
معاذ بن جبل – رضي الله عنه ١٦٣
أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه ١٦٩
أبو الدرداء – رضي الله عنه.. ١٧٤
عبدالله بن رواحة – رضي الله عنه.. ١٧٩
عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما ١٨٤
عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما... ١٨٧
أبو رقية تميم بن أوس – رضي الله عنه..................................... ١٩٣
أبو طلحة زيد بن سهل وأبو الدحداح ثابت بن الدحداح وفضالة بن عبيد... ١٩٨
أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها ٢٠٣
صفية بنت حيي وأسماء بنت أبي بكر وأم أيمن رضي الله عنهن ٢٠٨
تتلمذ التابعين على الصحابة – علقمة بن قيس ٢١٣
مسروق ٢١٨
الربيع بن خثيم.. ٢٢٣
الحسن البصري ٢٢٨
مطرف بن عبدالله.. ٢٣٣
عروة بن الزبير ٢٣٧
أبو العالية الرياحي ٢٤٠
محمد بن سيرين ٢٤٣

أبو رجاء العطاردي ٢٥١
ثابت بن أسلم البناني ٢٥٣
قتادة بن دعامة ٢٥٨
محمد بن واسع – مالك بن دينار ٢٦٣
هرم بن حيان ٢٦٨
صفوان بن محرز ٢٧٢
سليمان التيمي ٢٧٤
طلق بن حبيب ٢٧٩
يزيد بن أبان الرقاشي ٢٨١
أبو الجوزاء أوس بن عبدالله الربعي ٢٨٤
أبو الشعثاء جابر بن زيد ٢٨٩
أبو الحلال العتكي – أبو نضرة المنذر بن مالك – ميمون بن سياه – شميط بن عجلان – محمد بن المنكدر ٢٩٣
زين العابدين علي بن الحسين ٢٩٨
عبدالله بن عون – عامر بن عبدالله – صفوان بن سليم – سعد بن إبراهيم الزهري ٣٠٣
محمد بن كعب القرظي ٣٠٨
عبيد بن عمير ٣١٣
مجاهد بن جبر ٣١٦
عطاء بن أبي رباح ٣٢١
عكرمة مولى ابن عباس ٣٢٣
ميمون بن مهران ٣٢٦

شقيق بن سلمة ٣٢٨
خيثمة بن عبدالرحمن ٣٣١
الحارث بن سويد ٣٣٣
عمرو بن عتبة ٣٣٦
مرة بن شراحيل – زر بن حبيش ٣٣٨
أبو عبدالرحمن السلمي ٣٤١
إبراهيم بن يزيد التيمي ٣٤٧
إبراهيم النخعي ٣٥٠
عون بن عبدالله بن عتبة ٣٥٦
سعيد بن جبير ٣٥٨
أبو إسحاق السبيعي ٣٦١
عبدالرحمن بن أبي ليلى ٣٦٣
عامر بن عبد قيس ٣٦٥
محمد بن سوقه ٣٦٦
الأعمش ٣٦٩
حبيب بن أبي ثابت ٣٧٣
كرز بن وبرة ٣٧٥
عمرو بن قيس الملائي ٣٧٩
محكول الشامي ٣٨٤
عاصم بن أبي النجود ٣٨٩
عبدالله بن عامر ٣٩٤
عبدالله بن كثير ٣٩٧

نافع المدني ٣٩٩
أبو عمرو بن العلاء ٤٠٣
حمزة الزيات ٤٠٦
الكسائي ٤٠٩
يحيى بن وثاب ٤١٣
أبو جعفر القارئ ٤١٥
عبدالرحمن بن هرمز الأعرج ٤١٨
شعبة بن عياش ٤٢٠
حفص بن سليمان ٤٢٥
سليم بن عيسى ٤٢٦
أيوب السختياني ٤٢٨
عبدالملك بن جريج ٤٣٣
عبدالله بن عون ٤٣٨
عمر بن ذر ٤٤٢
أبو حنيفة ٤٤٤
أبو حازم سلمة بن دينار - سفيان الثوري ٤٤٩
سفيان بن عيينة ٤٥٤
الحسن وعلي ابنا صالح الهمذاني ٤٦٠
الفضيل بن عياض وابنه علي ٤٦٣
عبدالله بن المبارك ٤٦٩
خلف بن هشام ٤٧٤
أبو عمر الدوري ٤٧٦

داود الطائي ٤٧٩
صالح المري ٤٨٢
بشر بن الحارث الحافي ٤٨٤
مالك بن أنس ٤٨٩
الإمام الشافعي ٤٩٢
أحمد بن حنبل ٥٠١
أبو عبدالرحمن عبدالله المكي ٥١٥
يعقوب بن إسحاق الحضرمي ٥١٨
قالون ٥٢٠
ابن جرير الطبري ٥٢٣
ابن مجاهد ٥٢٦
ابن شنبوذ ٥٣٠
هناد بن السري – البخاري – أبو حاتم السجستاني ٥٣٢
ثبت المصادر والمراجع ٥٣٧
الفهرس ٥٤٧